بسم الله الرحمن الرحیم

التربية الروحية

بحوث في جهاد النفس

سماحة آية الله العلّامة

السيّد كمال الحيدري

■ **التربية الروحية (بحوث في جهاد النفس)**

تاليف :سماحة آية الله العلّامة السيد كمال الحيدري

الموضوع: أخلاق

الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

الطبعة: الأولى

المطبعة: مجاب

الكمية: ٣٠٠٠

تاريخ النشر: ١٤٣٢ هـ

ردمك ؟-؟؟؟ - ٥٢٩ - ٩٦٤ - ٩٧٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

info@ahl-ul-bayt. org

www. ahl-ul-bayt. org

كلمة المجمع

غير خفي أنّ الأخلاق والتربية الروحية من المسائل التي كانت موضع اهتمام الديانات السماوية السابقة، حيث لم يخل دين من تعاليم تخصّ هذا الجانب بصورة واضحة، والتأكيد على نشرها، ودعوة الناس إلى التمسّك بها كشرط أساسي لبلوغ السعادة والتقرّب إلى الله.

وقد اهتمّ الإسلام اهتماماً بالغاً بتثقيف النفوس البشرية، وحرص كلّ الحرص على أن تعلو عن الرذائل والخلق المنحطّ بالالتزام بالمثل العليا لأجل بلوغ سعادة الدارين.

فالإنسان في المعتقد الإسلامي يعدّ أفضل مخلوق على سطح البسيطة، وقد تسنّم مكاناً رفيعاً بكونه خليفة الله في أرضه. فإذا كان هذا حاله فإنّه من الواجب عليه أن يتّصف بالمزايا الحميدة حتّى يكون أهلاً لمهمّته التي أوكلها الباري سبحانه إليه، وليشعر بسموّه الذاتي على بقية المخلوقات التي وجدت لقضاء حاجاته وهو يشقّ طريقه في هذا السبيل.

والأُمّة الإسلامية ـ وذلك حينما انطلقت من أرض الحجاز مهد النبوّة لنشر النور الإلهي في أرجاء المعمورة ـ لم تكن لتنجح في مهمّتها لولا أنّها جسّدت المثل العليا للآخرين، وأثبتت أنّ الإسلام هو دين المحبّة والمعدالة والحرّية والفضيلة، فكان له الأثر في أن تنظر إليهم الأُمم نظرة إجلال وإكبار ، معتبرة ما في هذه الرسالة من معان عظيمة وقيم سامية من أنّها لا بدّ وأن تدلّل على صدقها وأصالتها.

وقد كان أهل البيت عليهم السلام من أبرز مَن جسّد هذه الفضائل على أتمّها، وارتقى

سلّم المكارم إلى أقصى درجاته ، فأضحوا قدوة للمعلّمين والمربّين بعدما ضربوا أروع المثل في هذا المجال.

وقد خلّف النبي الأكرمﷺ وأهل بيته الكرام آثاراً قيّمة وروائع خلّاقة من الحكم والكلمات القصار والأقوال الفريدة في الفضيلة والخُلق الكريم والتربية أثارت دهشة المختصّين الذين عكفوا على دراستها وحفظها ككنوز من القيم والمعارف، فتوصّلوا بذلك إلى نتائج باهرة في هذا المضمار.

ومن هؤلاء المختصّين والعلماء «سماحة آية الله العلّامة السيّد كمال الحيدري» الذي أخرج هذا الكتاب القيّم إلى النور حتّى يُشبع تطلّع طلّاب الحقيقة والإصلاح ويروي ضمأ نفوس شبابنا الذين يعيشون عصر الجدب الروحي بمفاهيم الأخلاق والتربية الروحية وجهاد النفس وبقلم سيّال وجميل كما هي عادته في كتاباته المتنوّعة ، فجزاه الباري تعالى خير جزاء المحسنين.

ومن هنا قرّر المجمع العالمي لأهل البيتعليهم السلام إعادة طباعة هذا الكتاب القيّم إيماناً منه بأهمّية هذه البحوث في بيان الحقائق النورانية وبرفدها المكتبة الإسلامية بكلّ جديد ومفيد، والله الموفّق إلى سواء السبيل.

المجمع العالمي لأهل البيتعليهم السلام

المعاونيّة الثقافيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا
﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا
طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

سورة الشمس: ١ ـ ١٠

المقدمة الأُولى:

طرق إصلاح أخلاق الإنسان

أنّ الإنسان قادر على أن يختار الأخلاق الحميدة والحسنة وأن يتجنّب الأخلاق الرذيلة والسيئة، وأنّه ليس مجبوراً على إحداهما ولا فاقداً لاختياره تجاههما.

فإذا كان الأمر كذلك، فما هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لتجنّب مساوئ الأخلاق ورذائلها، وليتحلّى بمحاسنها وفضائلها؟ ليصل إلى تلك الغاية الحميدة التي بُعث من أجلها النبي الخاتم ـ صلّى الله عليه وآله ـ والتي لخّصها بقوله: «**إنّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[1] وعلى رواية «**إنّما بعثت بمحاسن الأخلاق**»[2].

وقبل الإجابة على هذا التساؤل لابدّ من الإشارة إلى مقدّمة مهمّة في المقام، حاصلها: أنّ هناك علاقة وطيدة بين العلم والاعتقاد القلبي من جهة وبين العمل الذي يصدر من الإنسان من جهة أُخرى. وبتعبير آخر: إنّ هناك نحواً من السنخية بين العلم والعمل؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾[3] «فالآية الكريمة ترتّب عمل الإنسان على شاكلته بمعنى أنّ العمل يناسبها ويوافقها، فهي بالنسبة إلى العمل كالروح السارية في البدن الذي يمثّل بأعضائه وأعماله هيئات الروح المعنوية.

وقد تحقّق بالتجارب والبحث العلمي أنّ بين الملكات والأحوال النفسانية وبين الأعمال رابطة خاصّة، فليس يتساوى عمل الشجاع الباسل والجبان إذا حضرا

---

(١) مستدرك الوسائل ١١ : ١٨٧ / ١٢٧٠١ .

(٢) مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي ٨ : ٢٣ .

(٣) الإسراء: ٨٤.

موقفاً هائلاً، ولا عمل الجواد الكريم والبخيل اللئيم في موارد الإنفاق وهكذا»[١].

وهذه الحقيقة أشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة حيث «استدلّ تعالى على كفر اليهود وعلى فساد ضمير المشركين وعلى نفاق المنافقين من المسلمين وعلى إيمان عدّة من الأنبياء والمؤمنين بأعمالهم وأفعالهم في آيات كثيرة يطول ذكرها، فالعمل كيف كان يلازم ما يناسبه من العلم ويدلّ عليه»[٢].

وعلى هذا الأساس تتّضح هذه الحقيقة القرآنية؛ حيث قال تعالى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[٣].

من هنا نثبت أنّ الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يصدر منه الظلم، لا لعدم قدرته على ذلك، بل لعدم انسجام ومسانخة الظلم له عزّ وجلّ. وهكذا لا تصدر عن المعصوم عليه السلام معصية، لا لأنّه غير قادر على ارتكابها، بل لعدم انسجامها مع ذاته المطهّرة التي لا يصدر عنها إلاّ العمل الصالح.

ثمّ إنّه كما أنّ كلّ علم واعتقاد قلبي يترشّح منه نوع من العمل يناسب ذلك العلم، كذلك العكس، فإنّ كلّ نوع من العمل صالحاً كان أو طالحاً فإنّه يركّز ويحصّل في النفس نوعاً خاصّاً من العلم والاعتقاد يناسبه وينسجم معه، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص١٨٩.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٦٥.
(٣) الاعراف: ٥٨.
(٤) الحجر: ٩٩.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[١]. هذا في العمل الصالح، وأمّا في العمل الطالح فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٣].

لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يثبت الإيمان إلاّ بالعمل**»[٤].

وورد أيضاً: «**قليل يدوم خيرٌ من عمل كثير منقطع**»[٥] وما ذلك إلاّ لأنّ أثر القليل الدائم أكثر بكثير من أثر الكثير المنقطع.

فتحصّل أنّ الإنسان إذا أراد أن يتخلّق بأخلاق الله وأن يصدر منه العمل الصالح، عليه أوّلاً أن يصحّح اعتقاداته القلبية، وإلاّ إذا كان الاعتقاد فاسداً، فإنّه لا يصدر عنه إلاّ العمل السيئ ﴿وَالَّذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾، لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ العمل القليل الدائم على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين**»[٦].

وإنّه إذا أراد «اكتساب الأخلاق الفاضلة وإزالة الأخلاق الرذيلة فلا يمكنه تحقيق ذلك إلاّ بتكرار الأعمال الصالحة المناسبة لها ومزاولتها والمداومة عليها، حتّى تثبت في النفس من الموارد الجزئية علوم جزئية، وتتراكم وتنتقش في النفس

---

(١) فاطر: ١٠.

(٢) الروم: ١٠.

(٣) البراءة: ٧٧.

(٤) تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الفقيه المحدّث الشيخ محمد الحسن الحرّ العاملي، المتوفى سنة (١١٠٤هـ) تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ج١٥، ص١٦٨، الحديث ٦.

(٥) عيون الحكم والمواعظ، دار الحديث، قم، ص ٣٧٠ / ٦٢٤٤.

(٦) المصدر السابق: ج١٥، ص٢٠٢، الحديث ٦.

انتقاشاً متعذّر الزوال أو متعسّرها»[١].

وعلى هذا لو أراد الإنسان أن يكون شجاعاً مثلاً فلابدّ له من اقتحام موارد الشجاعة والاستمرار عليها، لتنتقش في نفسه وتثبت له، وإلاّ لو تكلّم ما تكلّم في مدح الشجاعة وفضلها والجزاء المترتّب عليها ولم يزاولها لما أصبح شجاعاً، لأنّ مثل هذا الإنسان لا يعرف من الشجاعة إلاّ«الاصطلاح» ولا قيمة لذلك بمفرده، ولا لحمل الأسفار دون العمل بها، قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَيَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[٢].

لهذا قلنا سابقاً: إنّ الكمال ليس في التوحيد النظري وفي معرفة اصطلاحاته، بل هو شرط لوصول الإنسان إلى هدفه الذي يتكامل من خلاله وهو التوحيد العملي.

مسالك التهذيب

بعد أن اتّضحت هذه المقدّمة، ذكر الأعلام أنّ هناك مسالك ثلاثة لتهذيب الأخلاق الإنسانية وإصلاحها:

المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيوية

ويبتني هذا المسلك على حثّ الإنسان ودفعه وإيجاد الداعي فيه إلى القيام بالأعمال الحسنة وإلى إصلاح نفسه من خلال الجزاء والمصالح الدنيوية من جاه أو

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١ ص٣٥٤.

(٢) الجمعة: ٥.

مال أو ثناء أو ذكر حسن، وعلى تحذيره من القيام بالأعمال السيئة وذمّها من خلال بيان المساوئ والمضار الدنيوية المترتّبة عليها.

ولهذا الجزاء المترتّب على العمل خصوصيتان، هما:

الأُولى: أنّه جزاء دنيوي، ومن الواضح أنّ مثل هذا الجزاء مهما طال به الزمن فهو منقطع الآخر وإلى زوال.

الثانية: أنّه جزاء اعتباري لا حقيقي، فالثناء الجميل والذكر الحسن والسمعة الطيبة وما شاكل ذلك كلّها أمور اعتبارية لتنظيم الحياة الاجتماعية ليس إلاّ.

ومع هذا، فلو رجع الإنسان إلى واقعه لوجد الكثير منّا يقوم بجملة من أعماله ـ شاء أم أبى ـ لأجل هذا الجزاء، بشهادة أنّه لو لم يترتّب على أعماله ذلك الثناء الجميل والمدح لشخصه ولم يتحقّق ذلك البُعد له لترك العمل ولم يداوم عليه، ولا يشذّ عن هذا إلاّ الأوحدي من الناس الذي يقول: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا**﴾[1].

ولأضرب لذلك مثالاً عن نفسي، فلو درّس أحد درس الأخلاق في نفس هذا المكان، وكان من حيث المستوى والإمكانية العلمية بنفس الدرجة التي أنا عليها ـ لكي لا أجد في ضعفه مبرّراً لعدم ارتياحي ـ أقول: لو جاء مثل هذا الأستاذ وذهب أكثر طلاّ بنا إليه وحضروا درسه ولم يبق معي إلاّ ثلاثة أو أربعة طلاّب، فهل أتأذّى وأشعر بعدم الراحة أم لا؟ لا أدري، فإذا كان الأمر مرتبطاً بتكليف إلهي وبخدمة الناس، فإنّ هؤلاء قد استبدلوا بي شخصاً آخر مثلي، وجزاهم الله خيراً إذ

---

(١) الدهر: ٩.

رفعوا المسؤولية عن عنقي مع حصولي على الثواب و«**نيّة المرء خير من عمله**»[١]، فهل ينبغي لي أن أتأذّى أم أفرح؟ ومَنْ منّا يفرح؟ فهل نحن نعمل لمعارف أهل البيت عليهم السلام حقّاً أم لأجل السمعة؟ امتحن نفسك، وقف عندها طويلاً، ولا تذهب إلى مكان بعيد، فإنّ الكثير منّا مبتل بهذا وقد لا يلتفت إليه.

وللشيخ المطهري قدس سره كلمة قيّمة هنا، إذ يقول: «كثير من الناس يحبّ الإسلام ولكن بشرط أن يكون هو حجّة الإسلام، فلو قال غيره هذا الإسلام الذي يقوله هو لا يقبله».

ومن هنا قال الإمام الخميني قدس سره: (لو اجتمع الأنبياء جميعاً في مكان واحد لما اختلفوا، لأنّه لا يوجد أحد منهم يقول: «أنا»، بل كلّ منهم يقول: «هو»، و«هو» واحد فلا معنى لأن يقع الاختلاف بينهم، بل يقع التنازع والاختلاف حينما تصير الأعمال للـ «أنا» وهي متعدّدة). والقرآن صريح في ذلك: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾[٢]، وهذا ضابط مهمّ وخطير يضعه القرآن الكريم بيدك لتعرف هل العمل من عند الله عزّ وجلّ أو من عند غيره.

ولابد من التنبيه هنا، أنّ الاختلاف المرفوض الذي نتحدّث عنه هو الاختلاف الذي ينشأ بين المؤمن وأخيه المؤمن داخل الأُمّة الواحدة وذلك بفعل «الأنا» وإلاّ فإنّ الاختلاف بين الحق والباطل هو من وظائف وتكاليف المسلم؛ يقول تعالى: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[٣].

---

(١) المحاسن للبرقي، دار الكتب الإسلامية، قم ٢٦٠: ٣١٥.

(٢) النساء: ٨٢.

(٣) الفتح: ٢٩.

وعلى كلّ حال، فإنّ منشأ الاختلاف داخل الأمّة الصالحة هو «الأنا»، ولعلمائنا قول: بأنّ هذه «الأنا» هي التي أسقطت إبليس عن ذلك المقام الرفيع، فقد صلّى إبليس قبل سقوطه ركعتين لله في السماء في ستّة آلاف سنة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام عنها: «**لا يدري أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة**»[١] التي لو حوّلت إلى أيّام حسب ما نعدّ ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[٢] لكانت أمراً خيالياً، حتى لو فرضنا أنها (الستّة آلاف) كانت هي الواقع لا أنّها لكثرة وأنّ الواقع كان أكثر منها بكثير، ومع ذلك فإنّ هذا الذي صدر منه مثل هذا العمل، طلب منه سبحانه وتعالى طلباً حيث أمره بالسجود لآدم عليه السلام، فقال في جوابه «أنا» فأسقطته «أناه» من ذلك المقام.

كلّ ذلك لنعتبر نحن فلا نفكّر بأننا قد ضمّنا لأنفسنا ضماناً بما نعمله من أعمال نعتقد بأنّها مانعتنا عن السقوط لأن «أنا» واحدة تسقط وتحبط كلّ عمل عمله الإنسان مهما امتدت سنواته، وبالعكس فقد يطوي الإنسان من خلال عمل واحد صغير مسافة الألف سنة بخطوة واحدة، فلا تتصوّروا بأنّ الإنسان يصل بكمّ أعماله «..**من تقرب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، ومن تقرّب إليّ باعاً مشيت إليه هرولةً**»[٣] فقد يدخل الإنسان إلى المسجد وهو كافر فاجر من أهل النار بنيّة صالحة فيتحوّل إلى مؤمن صالح، ويخرج آخر وهو كافر فاجر وإلى النار وقد دخل مؤمناً صالحاً.

فلا الكمّ منظور في الأعمال ولا صورتها وظاهرها بل المدار على نيّة العمل

---

(١) نهج البلاغة: ٢٨٧ ، الخطبة القاصعة.

(٢) الحج: ٤٧.

(٣) صحيح البخاري، باب ما جاء في دعاء النبي.

وحقيقته وباطنه. وعلى هذا تفسّر ضربة عليّ عليه السلام يوم الخندق التي ساوت عبادة الثقلين ـ وفي بعض الروايات فضلتهما ـ وما ذلك إلاّ بسبب باطن عمل الإمام عليه السلام ونيّته وإخلاصه، وإلاّ قد لا تفرق تلك الضربة من حيث الظاهر والعمل الخارجي عن ضربة أيّ شخص آخر يضربها ويقتل بها عمر بن عبد ودّ.

واعلموا أنّ الإخلاص في العمل كالكبريت الأحمر في ندرته، ولا إخلاص إلاّ بمعرفة ولذا قال عليه السلام: «**أوّل الدين معرفته**»[١]. والمطلب أخطر ممّا يتصوره بعضٌ، ويشتدّ فيمن يريد سلوك طريق العلم والعلماء «**إذ يغفر [الله] للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً**»[٢] وقد يكتفى بالعدد المعلوم من الركعات وبصيام ثلاثين يوماً وآيتين من القرآن الكريم بالنسبة لعوام الناس ولا يكون ذلك كافياً لطالب العلم، لأنّ المعرفة إذا اختلفت اختلف الحساب.

«وهذا المسلك هو المأثور من بحث الأقدمين من يونان وغيرهم فيه (أي في علم الأخلاق). ولم يستعمل القرآن هذا المسلك الذي بناؤه على انتخاب الممدوح عند عامّة الناس عن المذموم والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه...»[٣].

فهو إذن مسلك الفلاسفة وعلماء الأخلاق السابقين ولم يستعمله القرآن الكريم، والسرّ في ذلك أنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يدعو الناس إلى هذا الأمر على أساس دنيوي وجزاء زائل اعتباري.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأُولى .

(٢) خاتمة المستدرك للشيخ النوري، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ٥ : ٢٤٧ .

(٣) الميزان في تفسير القرآن ١: ٣٥٥.

كما أنّ مثل هذا الأساس إنّما يصلح ظاهر العمل لا باطنه فإنّ الثناء الجميل والذكر الحسن ـ مثلاً ـ يتوقّف على ظاهر العمل لا باطنه، ومثل هذا مثل ذلك الشخص الذي كان يصلّي في المسجد ويحسن القراءة، حتّى إذا مدح قراءته من كان جالساً إلى جواره التفت إليه قائلاً: وأنا مع ذلك صائم، فلأنّه كان يعيش مع الظاهر اضطرّ إلى إعطاء الظاهر والتصريح به مع أنّ حقيقة الجزاء تكمن في باطن العمل لا ظاهره.

وهاهنا مسألة مهمّة لابدّ من الإشارة إليها، وهي أنّ الإسلام لم يهمل ظاهر العمل، كما قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس، بل أوجد له قوانين محكمة ودقيقة ثمّ وجّه الإنسان بعد ذلك إلى اتخاذ هذا الظاهر معبَراً إلى الحقيقة وإلى بواطن الأعمال.

المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخروية

ويبتني هذا المسلك على دعوة الإنسان وحثّه على الاتّصاف بالخصال الحسنة والحميدة وعلى اجتناب العادات الرديئة والسيّئة، وذلك من خلال الجزاء الأخروي ثواباً أو عقاباً.

فهاهنا، كما في المسلك الأوّل، تجارة وعوض ومعوض. غاية الأمر أنّ العوض قد يكون معجلاً ومرتبطاً بالدنيا كما في المسلك الأوّل، وقد يكون مؤجّلاً ويعطى للإنسان في الآخرة كما هو في المسلك الثاني.

والظاهر أنّ أغلب الناس لا يعتني بالعوض المؤجَّل لأنّهم طُبعوا على حبّ الثمن المعجّل والاهتمام به حتّى لو كان أقل قيمة بل لا قيمة له بالنسبة إلى المؤجّل كما في العوض الدنيوي بالنسبة إلى الأخروي! قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ

الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[١].

وعلى كلّ حال فإنّ للجزاء الأخروي خصوصيتين مهمّتين أيضاً هما:

الأُولى: أنّه يصلح ظاهر العمل وباطنه لأنّ المجازي هو الله سبحانه وتعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء. فعن علي عليه السلام: «... **فإنّ الشاهد هو الحاكم..**»[٢]. فالحاكم يوم القيامة هو الشاهد في هذا العالم وفي هذه النشأة؛ ولذا قال صلى الله عليه وآله: «**اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[٣].

فعلى الإنسان عبادة الله تعالى كأنّه يراه إذا لم يستطع الوصول إلى مقام أن يرى الله شاهداً في كلّ شيء ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[٤] أي: أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء مشهود، فالله تعالى مشهود في كلّ شيء ولكن لعمى بصائرنا لا نراه، ولذا قال علماؤنا في تفسير قول إمام العارفين، الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**عميت عين لا تراك عليها رقيباً**»[٥] : إنّ هذا ليس دعاءً بل هو قضية إخبارية، وإنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ من لا يراك فهو أعمى.

وحين سأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام: هل رأيت ربّك، يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: «**أفأعبد ما لا أرى؟**» فقال: وكيف تراه؟ فقال: «**لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان...**»[٦] فهو ـ عزّ وجلّ ـ مشهود

---

(١) القيامة: ٢٠، ٢١.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار: ٣١٦.

(٣) مصباح الشريعة، مؤسسة الأعلمي، بيروت : ٨.

(٤) فصلت : ٥٣.

(٥) مفاتيح الجنان دعاء عرفة.

(٦) نهج البلاغة: ٢٥٨ ، الخطبة ١٧٩.

بالبصيرة وبالقلب لا بالعين المادية. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما من قلب إلاّ وله عينان وأُذنان فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين هما للقلب ليشاهد بهما الملكوت**»[١].

وعن السجّاد عليه السلام: «**ألا إنّ للعبد أربع أعين، عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته**»[٢] وهو الملكوت الذي عُبّر عنه في الآية المباركة ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[٣] فقد حصل إبراهيم عليه السلام على اليقين من رؤيته ملكوت السماوات والأرض، فإذا أبصر الإنسان هذا الملكوت وصل إلى مقام اليقين الذي تحدّثت عنه الروايات الشريفة. ولكن كيف يرى الإنسان ملكوت السماوات والأرض؟

والجواب: إنّ هذه الرؤية لا يمكن أن تتمّ إلاّ من خلال تنقية القلب وتطهيره؛ ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[٤] وفي نسبة العمى إلى القلب دليل على أنّ للقلب إبصاراً حسب نسبة الملكة وعدمها، وعلى هذا فقد يرى الإنسان ما حوله ويقول: هذه عيني أرى فيها كلّ شيء، فيقال له: إنّك لا ترى شيئاً؛ يقول تعالى: ﴿**وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا**﴾[٥] لأنّها رؤية لا تتمّ بهذه الأعين الظاهرية الموجودة حتّى للحيوانات، بل هي أعين القلب ولذا

---

(١) تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم للسيّد حيدر الأمين، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه السيّد محسن الموسوي التبريزي ١: ٢٧٢.

(٢) الخصال ٢٤٠ / ٩٠.

(٣) الأنعام: ٧٥.

(٤) الحج: ٤٦.

(٥) الأعراف: ١٧٩.

فإنّهم لا يبصرون بها. وهكذا قوله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾[١] أي صدئت قلوبهم كما تصدأ المرآة، فلم تعد ترى الحقّ بسبب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢] وسيأتي مزيد من التوضيح لهذه الحقيقة في بحث رابطة الجزاء مع العمل، إن شاء الله تعالى.

الثانية: أنّه جزاء دائم لأنّه جزاء أُخروي والآخرة لا تزول لأنّها باقية بإرادة الله سبحانه وتعالى.

«وهذا المسلك في إصلاح الأخلاق هو طريقة الأنبياء، ومنه شيء كثير في القرآن وفيما ينقل إلينا من الكتب السماوية»[٣]، فالقرآن الكريم لم يتجاوز هذا المسلك بل اعتبره طريقاً جيّداً لإصلاح النفوس من خلال الترهيب والتحذير من النار والترغيب في الجنّة. وهناك آيات كثيرة أشارت إلى هذه الطريق، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٤]، والباء في «بأنّ» للمقابلة، لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها**»[٥] لا بدراهم معدودة أو رئاسة أو جاه محدود وما إلى ذلك من العناوين الاعتبارية التي نتقاتل عليها كلّ يوم صباحاً ومساءً. وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٦]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ

(١) المطففين: ١٤.
(٢) المطففين: ١٤.
(٣) الميزان في تفسير القرآن ١: ٣٥٨.
(٤) التوبة: ١١١.
(٥) نهج البلاغة: ٥٥٦.
(٦) الزمر: ١٠.

أَلِيمٌ﴾[١]، وقال أيضاً: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾**[٢].

كما أنّ هناك كثيراً من الروايات التي تعضد الآيات المباركة في تأييد هذا المسلك. وستأتي الإشارة إليها فيما بعد.

وهذا المسلك هو الغالب على الناس في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها، قال الطباطبائي في تفسيره: «وطباع الناس مختلفة في إيثار هذه الطرق الثلاثة واختيارها، فبعضهم ـ وهو الغالب ـ يغلب على نفسه الخوف، وكلّما فكّر فيما أوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعدَّ لهم، زاد في نفسه خوفاً، ولفرائصه ارتعاداً ويساق بذلك إلى عبادته خوفاً من عذابه، وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء، وكلّما فكّر فيما وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاءً وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعاً في المغفرة والجنّة»[٣].

من هنا نجد أنّ تلامذة الأئمّة عليهم السلام كانوا يطلبون منهم أن يرغّبوهم في الجنّة ويشوّقوهم إليها، أو يخوّفوهم من النار. فعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: جعلت فداك يابن رسول الله، شوّقني إلى الجنّة، فقال: «**يا أبا محمد إنّ من أدنى نعيم الجنّة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام من مسافة الدّنيا وإنّ أدنى أهل الجنّة منزلاً لو نزل به أهل الثقلين الجنّ والإنس لوسعهم طعاماً وشراباً ولا ينقص ممّا**

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) آل عمران: ٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ١١: ١٥٨.

عنده شيء...»[١] فللجنّة درجات بعدد آيات القرآن الكريم، حسب ما ورد في الروايات الشريفة، ولذا يقال للعبد يوم القيامة: «**اقرأ وارقَ**»[٢]، ولا يتصوّر بعضٌ أنّ المراد هو حفظ الآيات، وإلاّ قد يتفوّق بعض النواصب على كثير من شيعة أهل البيت عليهم السلام لكثرة حفظهم، بل المراد هنا أنّ ذاك العلم بالآيات قد صار عملاً، كما أشرنا إلى ذلك إجمالاً عندما تحدّثنا عن التوحيد العملي، وسيأتي مزيد من البيان إن شاء الله تعالى.

أضاف الإمام عليه السلام في وصف الجنّة: «**... وإنّ أيسر أهل الجنّة منزلة من يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق، فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج والخدم والأنهار والأثمار ما شاء الله ممّا يملأ عينه قرّة وقلبه مسرّة، فإذا شكر الله وحمده، قيل له ارفع رأسك إلى الحديقة الثانية**»[٣] فالشكر إذن سبب لزيادة العطاء الإلهي حتّى في الآخرة، ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[٤] فهو سبب ارتقاء الإنسان في مراتب الجنّة ودرجاتها.

ثمّ أضاف الإمام عليه السلام: «**فيقول يا ربّ اعطني هذه، فيقول الله تبارك وتعالى: إن أعطيتك إيّاها سألتني غيرها. فيقول: ربّي هذه هذه**»[٥] إذ لا حدّ لطمع الإنسان؛ باعتبار حبّه للكمال المطلق فكلّما يُعطى يريد المزيد.

ثمّ قال عليه السلام: «**فإذا هو دخلها شكر الله وحمده أيضاً، فإذا شكر الله وحمده، قال: فيقال: افتحوا له باب الجنّة، ويقال له: ارفع رأسك هذه الحديقة الثالثة، فإذا فتح له**

---

(١) تفسير القمي، نشر مكتبة الهدى، قم ٢ : ٨٢.
(٢) أمالي الصدوق : ٤٤٠ / ٥٨٦.
(٣) تفسير القمي ٢ : ٨٢.
(٤) إبراهيم: ٧.
(٥) تفسير القمي ٢ : ٨٢.

باب من الخلد ويرى أضعاف ما كان فيه، قيل: فيقول عند تضاعف مسرّاته: ربّي لك الحمد الذي لا يحصى إذ مننت عليَّ بالجنان ونجيتني من النيران».

قال أبو بصير: فبكيت، ثمّ قلت: جعلت فداك زدني، قال: «**يا أبا محمد إنّ في الجنّة نهراً في حافته جوار نابتات إذا مرّ المؤمن بجارية أعجبته، قلعها وأنبت الله مكانها...**»[1]. فلا ينقص عطاء الله بل لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً، إذ كلّ ما وجد جوع وعطش وطلب وحاجة يوجد هناك عطاء وجود وكرم.

إلى أن يقول السائل: قلت: جعلت فداك، ألهنّ كلام يكلّمن به أهل الجنّة؟ قال: «**نعم، كلام يتكلمن به لم يسمع الخلائق بمثله**»، قلت: ما هو؟ قال: «**يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبؤس ونحن المقيمات فلا نضعن ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن خلق لنا وطوبى لمن خلقنا له، نحن اللواتي لو قرن إحدانا عُلّق في جوّ السماء لأغشى نوره الأبصار**»[2].

وفي رواية ليلة المعراج، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**لما أُسري بي إلى السماء دخلت الجنّة فرأيت فيها قيعان ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا، فقلت لهم: ما بالكم قد أمسكتم؟ فقالوا: حتّى تجيئنا النفقة. فقلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المؤمن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا، وإذا سكت أمسكنا..**»[3].

وحين استبشر أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله بهذا الخبر وظنّوا أنّ قصورهم في الجنّة

---

(١) تفسير القمي ٢ : ٨٢.
(٢) تفسير القمي ٢ : ٨٢ ـ ٨٣.
(٣) البحار ١٨: ٢٩٢.

كثيرة، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها!**»[١].

ثمّ قال في ذيل الرواية: «... فهاتان الآيتان، قوله ﴿**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾، قال: التوحيد والإخلاص... وقوله: ﴿**وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾[٢] قال: الولاية»، فالهدف إذن هو التوحيد والطريق هو الولاية، ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا الصراط المستقيم**»[٣] فهو عليه السلام الصراط المستقيم الناطق.

المسلك الثالث: الحبّ الإلهي

قال الطباطبائي قدس سره: «وهاهنا مسلك ثالث مخصوص بالقرآن الكريم لا يوجد في شيء ممّا نقل إلينا من الكتب السماوية، وتعاليم الأنبياء الماضين (سلام الله عليهم أجمعين)، ولا في المعارف المأثورة من الحكماء الإلهيين، وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل، وبعبارة أُخرى إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع»[٤].

ولكي يتّضح هذا المسلك لابدّ من بيان مقدّمة حاصلها: أنّ طريقة التهذيب تتمّ تارةً من خلال وجود المانع، وأُخرى من خلال رفع المقتضي.

فقد يريد الإنسان جاهاً أو عزّاً أو ملكاً أو سمعة حسنة في هذه الدنيا، ويتصوّر أنّ بإمكان الله سبحانهُ وتعالى إعطاء هذه الأمور له كما أنّ بإمكان غير الله تبارك وتعالى ذلك، فيميل وحسب طبعه إلى ما في أيدي الناس، فيأتيه التحذير،

---

(١) أمالي الصدوق: ٧٠٤ / ٩٦٨.

(٢) الحج: ٢٤.

(٣) نوادر المعجزات للطبري، نشر وتحقيق مدرسة الإمام المهدي، قم، ١٤١٠ هـ: ٣٣.

(٤) الميزان، للطباطبائي ١: ٣٥٨.

بأنّك سوف تخسر وتُعذَّب يوم القيامة فيكون العذاب مانعاً عن توجّه النفس إلى ما في أيدي الناس، وهكذا يكون المقتضي للتوجّه إلى ما عند الناس موجود ولكن المانع غير مفقود، وهذا من قبيل الورقة المبتلة بالماء التي لا تحترق بالنار، لا لعدم وجود المقتضي، فاقتضاء الإحراق موجود في النار، بل لوجود المانع وهو البلل، وكما أنَّ تهذيب النفس وإصلاحها يمكن أن يكون بإيجاد المانع من خلال الترهيب فإنّه يمكن أن يكون من خلال الترغيب أيضاً فيُقال لمن يرجو ويرغب بما في أيدي الناس، بأنّ هذا الذي ترجوه محدود ومنقطع وزائل وعليك أن تستبدله بأجر أفضل منه وهو أجر الآخرة الباقي الدائم الذي عند الله تبارك وتعالى ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾[1].

إنّ خصوصية إبداء المانع مع وجود المقتضي هي خصوصية المسلك الثاني ، أمّا المسلك الثالث الذي نحن فيه، فإنّه يقوم على أساس اقتلاع أصل وجود المقتضي في الإنسان لا أن يزاحمه بالمانع المخوف أو المرغب.

ويتقوّم هذا المسلك بركنين:

الركن الأوّل: وهو ركن المعرفة والعلم وذلك بأن يعطى الإنسان علوماً ومعارف توصله إلى التوحيد الخالص، فمن أراد العمل فعليه أن يعرف الله أوّلاً «**أوّل الدين معرفته**» فيعرف أنّ العزّة والقوّة والملك لله وحده تبارك وتعالى، وأنّه لا يوجد شيء في العالم صغر أو كبر، هان أو عظم، إلاّ بإذنه تبارك وتعالى، وحينئذ لن يتوجّه مثل هذا الإنسان إلى الناس وإلى ما في أيديهم لأنّه يعرف حقّ المعرفة أنّ الغني منهم لا يملك ولا يعطي ولا يمنع إلاّ بإذن الله، فلا يرجوه، وأنّ القوي

(١) النحل: ٩٦.

منهم لا يعزّ ولا يذلّ ولا يضرّ ولا ينفع إلاّ بإذن الله، فلا يخافه، ومن هنا ورد في الرواية عنهم عليهم السلام: «**من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء**»[١].

وقد وجدنا مصداق ذلك العملي في الإمام الخميني قدس سره الذي لم يخف إلاّ الله فأخاف الله العالم كلّه منه، ولم يكن ذلك لقدرته العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية فإنّ العالم أكبر من ذلك بكثير، ولكنّها العزّة الإلهية التي لا يقهرها شيء.

وقد بيّن العلاّمة قدس سره هذا الركن، قال: «.. وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل وذلك كما أن كلّ فعل يراد به غير الله سبحانه فالغاية المطلوبة منه إمّا عزّة في المطلوب يطمع فيها، أو قوّة يخاف منها ويحذر عنها، لكن الله سبحانه يقول: ﴿**إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾[٢]، ويقول: ﴿**إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾[٣]، والتحقّق بهذا العلم الحقّ لا يبقى موضوعاً لرياء، ولا سمعة، ولا خوف من غير الله، ولا رجاء لغيره، ولا ركون إلى غيره، فهاتان القضيتان إذا صارتا معلومتين للإنسان تغسلان كلّ ذميمة وصفاً أو فعلاً عن الإنسان وتحليان نفسه بحلية ما يقابلها من الصفات الكريمة الإلهية من التقوى بالله، والتعزّز بالله وغيرهما من مناعة وكبرياء واستغناء وهيبة إلهية ربّانية.

وأيضاً قد تكرّر في كلامه تعالى: أن الملك لله، وأن له ملك السماوات والأرض وأن له ما في السماوات والأرض وقد مرّ بيانه مراراً، وحقيقة هذا الملك كما هو ظاهر لا تبقى لشيء من الموجودات استقلالاً دونه، واستغناء عنه بوجه من

(١) وسائل الشيعة ١٥: ٢١٩، الحديث ٤.
(٢) يونس: ٦٥.
(٣) البقرة: ١٦٥.

الوجوه، فلا شيء إلاّ وهو سبحانه المالك لذاته ولكل ما لذاته، وإيمان الإنسان بهذا الملك وتحقّقه به يوجب سقوط جميع الأشياء ذاتاً ووصفاً وفعلاً عنده عن درجة الاستقلال، فهذا الإنسان لا يمكنه أن يريد غير وجهه تعالى، ولا أن يخضع لشيء، أو يخاف أو يرجو شيئاً، أو يلتذ أو يبتهج بشيء، أو يركن إلى شيء أو يتوكّل على شيء أو يسلّم لشيء أو يفوّض إلى شيء، غير وجهه تعالى، وبالجملة لا يريد ولا يطلب شيئاً إلاّ وجهه الحقّ الباقي بعد فناء كلّ شيء، ولا يعرض إعراضاً ولا يهرب إلاّ عن الباطل الذي هو غيره الذي لا يرى لوجوده وقعاً ولا يعبأ به قبال الحقّ الذي هو وجود باريه جلّ شأنه»[1].

لذا قال الطباطبائي في موضع آخر: «إذن الواجب على العبد أن يتوجّه في حوائجه إلى جناب العزّة وباب الكبرياء، ولا يركن إلى سبب بعد سبب، وإن كان أبى الله أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، وهذه دعوة إلى عدم الاعتماد على الأسباب إلا بالله الذي أفاض عليها السببية، لا أنّها هداية إلى إلغاء الأسباب والطلب من غير السبب، فهو طمع فيما لا مطمع فيه، كيف والداعي يريد ما يسأله بالقلب، ويسأل ما يريده باللسان ويستعين على ذلك بأركان وجوده، وكلّ ذلك أسباب؟»[2].

وهاهنا نكتة مهمّة، وهي أنّ قولنا: إنّ مثل هؤلاء الناس لا يريدون ولا يطلبون غير وجه الله، لا يعني أنّهم لا يتوسّلون بالأسباب إلى أغراضهم فيجلسون جياعاً ويطلبون الطعام منه عز وجل، وعراة ويطلبون اللباس منه وهكذا، بل عليهم طلب الطعام واللباس وغير ذلك ممّا يحتاجونه في حياتهم الدنيوية مع علمهم بأن لا

(١) الميزان، للطباطبائي ١: ٣٥٨ ـ ٣٥٩.
(٢) الميزان ٢: ٤٠.

مؤثر في طلباتهم هذه وغيرها إلاّ الله تبارك وتعالى.

الركن الثاني: وهو ركن العمل، فبعد أن يتعلّم الإنسان التوحيد وتحصل عنده تلك الملكة العلمية التي أشرنا إليها في الركن الأوّل، عليه أن يتحقّق بالتوحيد العملي، والطريق إلى ذلك هو الحبّ، فلا يحبّ غير الله تعالى، فإنّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً أطاعه وعبده فإنّ من آثار الحبّ الطاعة والتسليم وهي «العبادة»، فمن أحبَّ الله عبَده ومن أحبَّ الدنيا الزائلة عبَدها ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[1]. ومن عبد الشيء الزائل فإنّ معبوده سوف يزول يوماً ما ولكن علاقته به لن تزول وسوف يحشر يوم القيامة ومعه تلك العلاقة وذلك الحبّ للمعبود الزائل وسيعيش حرقة الألم اللامتناهي على محبوبه الذي لا وجود له.

ولا يعني هذا حرمة الاستفادة من الدنيا أو أن يملك الإنسان فيها شيئاً ما، فإنّ القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام لم تحرّم ولم تمنع الإنسان المسلم من أن يتزوّج أو أن يكون له مال أو ولد، بل له كلّ ذلك، بشرط أن لا يتعلّق قلبه بهذه الأمور لأنّها إلى زوال وفناء، ومن هنا قالوا: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً ولكن الزهد أن لا يملكك شيء». وفي قوله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[2] إشارة إلى أنّ نيل البرّ لا يتمّ حتّى ينفق الإنسان ممّا يحبّه بحيث لا يستطيع هذا الشيء الذي يحبّه أن يتملّكه فيكون عبده ولا يتمكّن من إنفاقه في سبيل الله.

وفي ذيل هذه الآية المباركة، يقول الفيض الكاشاني: هناك قراءة أُخرى في

---

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) آل عمران: ٩٢.

الآية وهي «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حتَّى تُنفقوا مَا تُحبُّونَ»[١] لا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، فشرط نيل البرّ ـ على هذه القراءة ـ هو إنفاق كلّ ما يحبّ الإنسان لا بعض ما يحبّه! فمن لم يستطع أن يكون من هذه الطبقة فلا أقلّ يعمل على أن يكون من طبقة ﴿ممّا تحبّون﴾.

والخلاصة، أنّ على الإنسان أن يجعل قلبه متعلّقاً بالله سبحانه وتعالى وحده ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[٢] إذ لا يجتمع حبّ الله تبارك وتعالى وحبّ الدنيا في قلب واحد.

وقد أشار العلامة الطباطبائي إلى هذا المسلك وآثاره المترتّبة عليه بقوله: «إنّ العبد إذا أخذ إيمانه في الاشتداد والازدياد انجذبت نفسه إلى التفكير في ناحية ربّه، واستحضار أسمائه الحسنى وصفاته الجميلة المنزّهة عن النقص والشين، ولا تزال تزيد نفسه انجذاباً وتترقى مراقبة حتى صار يعبد الله كأنّه يراه وإنّ ربه يراه، ويتجلّى له في مجالي الجذبة والمراقبة والحبّ، فيأخذ الحبّ في الاشتداد، لأنّ الإنسان مفطور على حبّ الجميل، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾[٣] وصار يتبع الرسول في جميع حركاته وسكناته، لأنّ حبّ الشيء يوجب حبّ آثاره، والرسول من آثاره وآياته كما أنّ العالم أيضاً آثاره وآياته تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٤].

---

(١) تفسير الصافي، تأليف فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أستاذ عصره ووحيد دهره المولى محسن الملقب بـ«الفيض الكاشاني» المتوفي سنة ١٠٩١ هـ ١: ٣٢٨، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان.

(٢) الأحزاب: ٤.

(٣) البقرة: ١٦٥.

(٤) آل عمران: ٣١.

ولا يزال يشتدّ هذا الحبّ ثمّ يشتدّ حتى ينقطع إليه من كلّ شيء ولا يحبّ إلاّ ربّه ولا يخضع قلبه إلاّ لوجهه، فإنّ هذا العبد لا يعثر بشيء ولا يقف على شيء وعنده شيء من الجمال والحُسن إلاّ وجد أنّ ما عنده أنموذج يحكي ما عنده (تعالى) من كمال لا ينفد وجمال لا يتناهى وحسن لا يحدّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، وكلّ ما كان لغيره فهو له، لأنّ كلّ ما سواه آية له ليس له إلاّ ذلك، والآية لا نفسية لها وإنّما هي حكاية تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحبّ على قلبه ولا يزال يستولي، ولا ينظر إلى شيء إلاّ لأنّه آية من آيات ربّه، وبالجملة فينقطع حبّه عن كلّ شيء إلى ربّه، فلا يحبّ شيئاً إلاّ لله وفي الله سبحانه.

وحينئذ يتبدّل نحو إدراكه وعمله، فلا يرى شيئاً إلاّ ويرى الله سبحانه قبله ومعه، وتسقط الأشياء عنده من حيّز الاستقلال، فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس، لأنّهم إنّما ينظرون إلى كلّ شيء من وراء حجاب الاستقلال بخلافه، هذا من جهة العلم. وكذلك الأمر من جهة العمل فإنّه إذا كان لا يحبّ إلاّ الله، فلا يريد شيئاً إلاّ الله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف ولا يختار ولا يترك ولا ييأس ولا يستوحش ولا يرضى ولا يسخط إلاّ لله وفي الله، فيختلف أغراضه مع ما للناس من الأغراض، وتتبدّل غاية أفعاله، فإنّه كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنّه فضيلة إنسانية، ويحذر الفعل أو الخلق لأنّه رذيلة نفسانية. أمّا الآن فإنّه يريد وجه ربّه، ولا همّ له في فضيلة ولا رذيلة ولا شغل له بثناء جميل وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة أو

جنّة أو نار، وإنّما همّه ربّه وزاده ذلّ عبوديّته ودليله حبّه»[١].

وهؤلاء هم العلماء بالله الذين لا يعبدونه خوفاً من عقابه ولا طمعاً في جنّته وإنّما يعبدونه لأنّه أهلٌ للعبادة «وذلك لأنّهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العليا، فعلموا أنّه ربّهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكلّ شيء غيرهم، ويدبّر الأمر وحده وليسوا إلاّ عباد الله فحسب، وليس للعبد إلاّ أن يعبد ربّه ويقدّم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله ولا يريدون في شيء من أعمالهم فعلاً كان أو تركاً إلاّ وجهه. وهذا ما أشارت إليه الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»[٢].

وفي «العلل» و«المجالس» و«الخصال» عن الصادق (عليه السلام) أيضاً: «إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبةً في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عز وجل فتلك عبادة الكرام، لقوله عز وجل ﴿**وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**﴾[٣] ولقوله عز وجل ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله**﴾ فمن أحبّ الله عز وجل أحبّه الله، ومن أحبّه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١ :٣٧٣.

(٢) أصول الكافي، الكليني ٢ :٨٤، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة، الحديث٥.

(٣) النمل: ٨٢.

لا يمسّه إلاّ المطهّرون»[١].

وقد بيّن القرآن مَنْ هم المطهّرون بقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢]. وقد أوضحنا مفصّلاً في كتاب «العصمة» أنّ هذه الآية مختصّة بالنبيّ وعلي وفاطمة والحسنين صلوات الله و سلامه عليهم.

ولا يفهم من هذا أن مسلك الحبّ والقرب الإلهي محال على الآخرين، ولا ينبغي لهم اليأس منه، غير أنّه صعب المنال لتوقّفه على معرفة عالية بالتوحيد وإلى تهذيب ورياضات ومجاهدات شاقّة من أجل أن يصل الإنسان إلى مقام ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾[٣].

طبعاً لا يخفى أنّ مقام العصمة والطهارة التي ثبتت لأصحاب الكساء ممّا لا يمكن نيله لأحد غيرهم عليهم السلام لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج: «**إنّ آل محمّد صلى الله عليه وآله لا يقاس بهم أحد**»[٤].

وكيفما كان فإنّ الغالب على الناس هو اتّباعهم مسلك الجزاء الأخروي في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها، وإلاّ فهل سيبقون على طاعاتهم وعبادتهم وعلى ارتداعهم عن المعاصي، حتّى لو أمنوا النار أو ضمنت لهم الجنّة؟ ولا أقول هل سيبقون على ذلك حتّى لو علموا بأنّ الله تبارك وتعالى سوف يدخلهم النار، ومن

---

(١) نقلاً عن الميزان ١: ٣٧.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) الدهر: ٩.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٢، ص ٤٧.

الواضح أنّ هذا مقام لا يصله إلاّ الأوحدي من الناس كالنبي الأكرم وأهل بيته عليهم السلام.

ومع هذا كلّه، فإنّ بإمكان الإنسان أن يروّض نفسه من أجل الارتقاء إلى ذلك المقام العالي، فلا يقرأ دعاءً مثلاً ولا يصلّي صلاة ولا يفعل فعلاً ما ونظره المباشر إلى ثواب تلك الأعمال التي يقوم بها، بل ينظر إلى العمل بذاته وإلى محتواه، وأنّ ما يقوم به هو عبادة لله سبحانه وتعالى قبل كلّ شيء، وهكذا وبتكرار هذا العمل يحصل على الملكات التي تؤهّله لأن يرتقي وأن يصل إلى ما يصبو إليه.

المقدمة الثانية:

العلاقة بين عمل الإنسان والجزاء المترتّب عليه

قلنا سابقاً: إنّ هناك مسالك ثلاثة لإصلاح أخلاق الإنسان هي: مسلك الجزاء الدنيوي ومسلك الجزاء الأخروي ومسلك القرب الإلهي.

ومن الواضح أنّ المسلك الأوّل لا ينسجم مع الإيمان بالمبدأ واليوم الآخر؛ إذ لا معنى لأن يجعل الإنسان المؤمن جزاء أعماله أموراً دنيوية زائلة فانية مقرونة لذّتها بالغصّة والشقاوة، كما أنّ هذا المسلك لا يصلح إلاّ الظاهر دون الباطن. فيدور الأمر حينئذ عند المؤمن بين أن يتّخذ المسلك الثاني أو الثالث طريقاً له. وهذا ما أشرنا إليه في البحث السابق.

من هنا نصل إلى أنّ مسلك الجزاء الأخروي، الذي يُعدّ مقدّمة مهيئة إلى مسلك القرب الإلهي، والذي هو مسلك الأعمّ الأغلب منّا، هذا المسلك يقوم على العلاقة بين العمل والجزاء، فما هي حقيقة الرابطة الموجودة بين عمل الإنسان وبين الجزاء المترتّب عليه؟

أنواع الجزاء الذي يترتّب على العمل

من أجل بيان حقيقة الرابطة الموجودة بين العمل والجزاء المترتّب عليه، نتعرّض إلى أنواع الجزاء المترتّب على العمل في هذه الدنيا، والذي هو على ثلاثة أنحاء هي:

النحو الأوّل: وهو الذي لا وجود فيه لارتباط حقيقي وواقعي بين العمل

وجزائه وإنّما هناك رابطة عقلائية واعتبارية يضعها من يتصدّى لهذه المجالات في المجتمعات المختلفة، من قبيل مجازاة المجرمين بالحبس الذي لا حدّ له إلاّ ما يقرّره أولئك المتصدّون.

والقاعدة في هذا الجزاء الاعتباري أن يختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ومن بيئة إلى أُخرى، بل قد يعاقب الإنسان في مكان على عمل قد يكافأ عليه في مكان آخر، كإنجاب الأطفال الذي قد يعاقب عليه في دولة كثيرة السكّان كالصين ويكافأ عليه في دولة أخرى قليلة السكّان، وهكذا.

النحو الثاني: وهو الذي تكون الرابطة بين الجزاء والعمل فيه رابطة حقيقة وواقعية، كالعلاقة بين أكل السكريات بكثرة والإصابة بمرض السكري، وشرب السمّ القاتل والموت وما شابه ذلك، إذ من الواضح أنّ العلاقة بين هذه المقدّمات والأسباب ونتائجها علاقات تكوينية لا علاقة لها بإخبار الخبير عنها أو عدم إخباره، وعلمك بها أو عدم علمك.

إنّ هذا النحو من العلاقة وإن اتّصف بأنّه نحو علاقة واقعية وحقيقية، وأنّ هناك ملازمة بين الجزاء والعمل بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر، غير أنّ زمن العمل وظرفه مختلف وسابق على زمن وظرف الجزاء والأثر المترتّب عليه.

النحو الثالث: وهو النحو الذي يكون فيه الفعل مستبطناً للجزاء المترتّب عليه، أي أنّ الفعل هو نفس الجزاء، والجزاء هو باطن الفعل. كما أنّ ظرف وزمن حدوث الفعل هو نفس ظرف وزمن تحقّق الجزاء.

ومثال هذه العلاقة هو اللّعب بالنار الذي ينتج الاحتراق بها، فإنّ الاحتراق هو نفس اللعب بالنار لا أنّه يأتي بعد ذلك أو أنّ أحدهما يسبق الآخر كما في النحو

الثاني. وهكذا في رفع السيف وضرب عنق الكافر، فإنّ ضربة السيف وقتل الكافر أمر واحد، إذ بنفس الضربة يتحقّق القتل، فنفس الفعل محقّق للجزاء، وظرف حدوث الفعل هو ظرف حدوث الجزاء.

العلاقة بين العمل والجزاء الأخروي علاقة من النحو الثالث

بعد أن بيّنا أنحاء العلاقة الثلاثة بين العمل والجزاء، نتساءل عن نحو العلاقة الموجودة بين عمل الإنسان والثواب والعقاب الأخروي المترتّب عليه.

وقد اختلف الأعلام فيما بينهم في تحديدها، ونحن لا نريد الدخول في هذا البحث من ناحيته الفلسفية، بل نريد التعرّف على نظرية القرآن الكريم ورواية أهل البيت عليهم السلام فيها.

والمدعى أنّ العلاقة هي من النحو الثالث، أي إنّ الإنسان بفعله الحرام يحصل على ما يستحقّه من الجزاء الحقيقي، ويكون قد دخل النار في نفس ظرف وزمان صدور الحرام منه، لا أنّه سيعاقب بعقوبة وجزاء اعتباري ولا بعقوبة وجزاء حقيقي مؤجّل إلى ظرف لاحق.

توضيح هذا: أنّ للفعل ظاهراً يمكنك أن تنظر إليه، وأن تراه بعينك، وتحسّ به بيدك، وتشمّه وتسمعه، وما إلى ذلك، كما أنّ للفعل ـ وفي الوقت نفسه ـ باطناً، وباطن العمل هذا هو جزاؤه، ولابدّ له من حواس باطنة لإدراكه لأنّه لا يدرك بالحواس الظاهرة كظاهره، فللإنسان سمع ظاهر وباطن، وشمّ ظاهر وباطن، وعين ظاهرة وباطنة، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى**

﴿الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١]، وقال حكاية عن المجرم (رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[٢]، فلم يكن ـ المجرم ـ في هذه الدنيا أعمى بصر بل كان أعمى قلب وبصيرة فلم يدرك آيات الله تبارك وتعالى.

ومن هنا نخلص إلى أنّ ظرف تحقّق الجزاء هو نفس ظرف تحقّق الفعل لأنّ الجزاء ما هو إلاّ باطن العمل لا أمراً آخر، وأنّ الإنسان سوف ينال جزاءه من ثواب أو عقاب في هذه الدنيا ولن يؤجّل إلى الآخرة.

وحينئذ، نتساءل: فما هي وظيفة الآخرة، إذن؟

والجواب: أنّ الآخرة ظرف ظهور الجزاء لا وجوده، فما كان خافياً عليك ولم تستطع رؤيته هنا، سوف تلتفت إليه وتراه يوم القيامة؛ لأنّك بسبب معاصيك حُرمت من النظر إلى باطن العمل ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣] ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينَ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[٤] وأمّا من كانت عنده تلك العين فهو يرى باطن الأعمال في الدنيا والآخرة وينظر إلى الناس فيقول: هذا في نار جهنّم وذاك في جنّة النعيم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، فهناك من هو في نار جهنّم وهو في الحياة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٥]. فبقرينة «إنّ»

---

(١) الحج: ٤٦.
(٢) طه: ٩٨ ـ ٩٩.
(٣) المطففين: ١٤.
(٤) التكاثر: ٥ ـ ٦.
(٥) العنكبوت: ٤٧.

و«اللام الداخلة على الخبر» اللتين تفيدان التوكيد، نفهم أنّ القرآن الكريم يريد القول بأنّ نار جهنّم موجودة ومحيطة بالكافرين الآن، لا أنّها سوف تحيط بهم، وإلاّ لقالت الآية و«إنّ جهنّم ستحيط بالكافرين». ومثل ذاك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[1] أي: إنّهم يأكلون النار الآن، لا أنّهم سيأكلونها فيما بعد، وذلك بقرينة استخدام «إنّما» وعدم استخدام «السين» بدلها أيضاً.

ولرب قائل يقول: فلماذا لا نحسّ بهذه النار الآن؟ والجواب: إنّ هناك من الشواغل في الحياة الدنيا ما يشغل الإنسان عن الالتفات إلى هذه الحقيقة وإنّه سيفهم فيما بعد أنّه كان في النار حقّاً، لا أنّه سوف يدخلها آنذاك. لذا نجد القرآن يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2].

وفي الحياة الدنيوية أمثلة كثيرة لآلام لا نلتفت إليها إلاّ بعد مدّة من حدوثها وما ذلك إلاّ لانشغالنا عنها وعدم التفاتنا إليها في وقت تحقّقها.

الحاجة إلى المعصوم في معرفة باطن الأعمال

إنّ العلاقة بين ظاهر العمل وباطنه لا تعني أنّ أحكامهما واحدة ، فللظاهر أحكام غير متوافقة مع أحكام الباطن، فقد يكون ظاهر العمل لذيذاً كأكل مال اليتامى ولكن باطنه نار، وقد يكون هذا الظاهر مؤلماً وشاقّاً كالصبر على الصلاة والصوم والجهاد والقتل في سبيل الله ولكن باطنه لذيذ وصورة من أبهى الصور

(١) النساء: ١٠.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

التي يراها الإنسان في النشأة الأخرى. لذا ورد: «**إنَّ الجنّة حفَّت بالمكاره وإنَّ النار حفّت بالشهوات**»[1].

فلا يمكن الركون إلى ظواهر الأعمال بل لابدّ من التعرّف على بواطنها لنتعرّف على حقيقتها، فلمن نرجع في صلاتنا وصومنا وجهادنا وأعمالنا الأُخرى لكي يخبرنا ببواطنها تلك؟ الجواب: إنّ الذي بإمكانه إخبارنا عن هذه البواطن هو القرآن الكريم والمعصومعليه السلام فقط، وبهذا نستدلّ على حاجتنا الأكيدة إليهعليه السلام في مسيرتنا نحو الحقّ تبارك وتعالى.

ما هي العلاقة بين الإنسان وبين ملكاته؟

ألمحنا سابقاً إلى أنّ العمل ليس هو المقصود بالذات، بل المقصود بالذات هو إيجاد تلك الملكات الحميدة عند الإنسان من خلاله، من قبيل ملكة الجود والعفّة والشجاعة والعدالة وغيرها، ولكي تتحقّق هذه الملكات لابدّ للإنسان من القيام ببعض الأعمال التي تؤهّله إلى حصولها في النفس وإلاّ فلا.

وهذا الأمر لا يختصّ بالملكات الحسنة بل يعمّ الملكات السيئة أيضاً، فلكي يكون الإنسان جلاداً وقاسي القلب ـ مثلاً ـ لابدّ أن يمارس من الأعمال ما يناسب حصول هذه الهيئة في نفسه، وهكذا.

وهنا يرد السؤال المهمّ التالي، وهو: ما هي الرابطة والعلاقة بين الإنسان وبين هذه الملكات التي هي نتيجة عمله لا نفس عمله؟ فهل هذه العلاقة موجودة؟ وهل هي قابلة للانفكاك؟ وهل أحدهما هو غير الآخر أو عينه أو متّحد معه؟

وللإجابة على هذا التساؤل، نرجع إلى القرآن الكريم، حيث أشار إلى هذه

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١١١.

العلاقة وطبيعتها من خلال عدّة قوانين، أهمّها:

القانون الأوّل: أنّ الإنسان سوف يرى عمله يوم القيامة. وقد أشار القرآن الكريم إلى العمل من خلال هذا القانون بما هو عمل ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ**﴾[1] فهو يرى- إذن - باطن عمله خيراً أو شرّاً لا نتيجة عمله.

ومثله قول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْس مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْر مُحْضَرًا**﴾[2] فكلّ عمل عمله الإنسان سوف يراه يوم القيامة وسيرى باطنه، هذا الباطن الذي كان موجوداً من قبل في هذه النشأة، ولكننا لم نكن نستطيع رؤيته لغفلتنا ﴿**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَة مِن هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ**﴾ فيومذاك سوف يكشف الغطاء عن أمر كان موجوداً ولكنّه محجوب بحجاب يضعه الإنسان على قلبه بعمله فلا يرى باطن عمله ﴿**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم**﴾[3] فالرين والحجاب موجود على قلب العامل لا على عمله، وعلى هذا ورد «**وإن الراحل إليك قريب المسافة إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك**»[4] ومن دون هذه الأعمال الحاجبة فإنّهم يرون الحقائق كما هي ﴿**فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[5] وفي الآية إشارة لطيفة، فهي لا تقول «فكشفنا عنها غطاءها» بل تقول ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ**﴾ فالغطاء والحجاب كان على عينك وقلبك لا على تلك الحقيقة.

---

(١) الزلزلة : ٧ـ٨.

(٢) آل عمران: ٣٠.

(٣) المطففين: ١٤.

(٤) إقبال الأعمال، الطبعة الحجرية، دار الكتب الإسلامية، طهران: ٦٨

(٥) ق: ٢٢.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[١]. قال العلاّمة في الميزان: «المراد بالسعي ما سعى فيه من العمل، وبالرؤية المشاهدة، وظرف المشاهدة يوم القيامة؛ بدليل تعقيبه بالجزاء، فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾[٢]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٣]»[٤].

وكما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا القانون، فهناك العديد من الروايات الشريفة التي أشارت إليه أيضاً، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «**وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في مؤجلهم**»[٥].

القانون الثاني: أنّ العمل ونتيجته لا ينفكّان عن العامل.

لا شكّ بوجود رابطة بين العمل وبين فاعله في هذه الدنيا، فإذا قمتُ بضرب شخص ما فإنّ عمل الضرب سوف ينسب إليّ، فهل مثل هذه النسبة والرابطة موجودة بين العمل وفاعله يوم القيامة أيضاً أم بالإمكان أن ينفك أحدهما عن الآخر؟

إنّ القرآن الكريم صريح في إثبات هذه العلاقة من خلال العديد من الآيات الشريفة، كقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ

(١) النجم: ٤٠.
(٢) آل عمران: ٣٠.
(٣) الزلزلة: ٨.
(٤) الميزان، ج١، ص٤٧.
(٥) البحار، ج٦٩، ص٤٠٩، ح١٢٠.

﴿يُرَى﴾[١]. «ومعنى اللام في قوله (للإنسان): الملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياماً باقياً ببقائه يلازمه ولا يفارقه بالطبع وهو الذي يكتسبه الإنسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر، وأمّا ما يراه الإنسان مملوكاً لنفسه وهو في ظرف الاجتماع من مال وبنين وجاه وغير ذلك من زخارف الحياة الدنيا وزينتها فكلّ ذلك من الملك الاعتباري الوهمي الذي يصاحب الإنسان ما دام في دار الغرور ويودعه عندما أراد الانتقال إلى دار الخلود وعالم الآخرة.

فالمعنى: وأنّه لا يملك الإنسان ملكاً يعود إليه أثره من خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ حقيقة إلاّ ما جدّ فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه وأمّا ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيراً أو شرّاً»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٣].

«فالطائر الذي ألزمه الله الإنسان في عنقه هو عمله ومعنى إلزامه إيّاه أنّ الله قضى أن يقوم كلّ عمل بعامله ويعود إليه خيره وشرّه ونفعه وضرّه من غير أن يفارقه إلى غيره...»[٤].

والكتاب في ذلك اليوم هو متن العمل وحقيقته لا كما يتصوّر بعضٌ من أنّه سوف تعرض على الإنسان يومذاك صور ما قام به من أعمال في حياته كما تعرض الأفلام المصوّرة من خلال أجهزة العرض التي لا تستطيع إبراز وبيان النيّات

(١) النجم: ٣٩ ـ ٤٠.
(٢) الميزان، الطباطبائي، ج١٩، ص٤٦.
(٣) الإسراء: ١٣ ـ ١٤.
(٤) الميزان، للطباطبائي ١٣: ٥٤.

والأمور المعنوية، كما هو واضح، بل ذلك اليوم هو يوم كما وصفه الله تعالى ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾[١].

وقد تعرّض العلاّمة (قدس سره) في ذيل بحثه لآية ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[٢] إلى موضوع الانتفاع بشفاعة الشفعاء أو أثر من يعمل بالسنّة الحسنة أو السيئة على من يسنّها إلى يوم القيامة، أو أثر ما يقوم به الولد الصالح من عمل على والديه، وما شاكل هذا كثير. فبيّن (قدس سره) أنّ هذه الموارد ليست خارجة عن قانون ارتباط وملازمة العمل لعامله، قال: «وأمّا الانتفاع من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لأهل الكبائر فلهم في ذلك سعي جميل حيث دخلوا في حظيرة الإيمان بالله وآياته، وكذا استفادة المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له، والأعمال الصالحة التي تهدى إليه مثوباتها هي مرتبطة بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين وتكثير سوادهم وتأييد إيمانهم الذي من آثاره ما يأتون به من الأعمال الصالحة.

وكذا من سنّ سنّة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيّئة كان له وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة فإنّ له سعياً في عملهم حيث سنّ السنّة وتوسّل بها إلى أعمالهم كما تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ﴾»[٣][٤].

وهناك كثير من الروايات التي تؤكّد وجود هذه الرابطة بين العمل وعامله،

---

(١) يس: ٦٥.
(٢) النجم: ٣٩.
(٣) يس: ١٢
(٤) الميزان ١٩: ٤٦ ـ ٤٧.

منها ما رواه قيس بن عاصم عن النبيّ (صلى الله عليه وآله)، أنّه قال: «**ياقيس، إنّ مع العزّ ذلاًّ، ومع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة، وإنّ لكلّ شيء رقيباً وعلى كلّ شيء حسيباً وإنّ لكلّ أجل كتاباً، وإنّه لابدّ لك من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً ألأمك، ثمّ لا يحشر إلاّ معك ولا تحشر إلاّ معه ولا تُسأل إلاّ عنه، فلا تجعله إلاّ صالحاً فإنّه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلاّ منه وهو فعلك**»[1].

ومنها، قولهم عليهم السلام: «**المرء مرهون بعمله**»[2].

القانون الثالث: أنّ العمل يوم القيامة ناطق وإن كان في الدنيا صامتاً.

لاشكّ في أن أعمال الإنسان في هذه الدنيا أعمال صامتة لا نطق لها ، وأنّ الأدوات التي ينفِّذ بها أعماله من يد أو رجل وغيرهما أدوات صامتة أيضاً، لا تعترض على ما يقوم به صاحبها ولا تخبر عنه.

غير أنّ هذه الأعمال وتلك الأدوات المنفّذة أعمال وأدوات حيّة وناطقة يوم القيامة، تشهد بالحقّ وتنطق بأمر الله لتقيم الحجّة على صاحبها. والآيات والروايات الدالّة على ذلك كثيرة جدّاً منها:

قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[3].

أي يشهد كلّ منهما بما كانوا يكسبونه بواسطته، فالأيدي بالمعاصي التي

---

(١) جامع السعادات للنراقي ١: ٤٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يس: ٦٥.

كسبوها بها والأرجل بالمعاصي الخاصّة بها، على ما يعطيه السياق.

ومن هنا يظهر أنّ كلّ عضو ينطق بما يخصّه من العمل وأن ذكر الأيدي والأرجل من باب المثال، ولذا ذكر في موضع آخر السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1]، وفي موضع آخر الجلود كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا الله الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

«وشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وأخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحمّلته، ولولا التحمّل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعوراً ونطقاً يوم القيامة فعلمت ثمّ أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتاً يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به، لم يصدق عليها الشهادة، ولما تمّت بذلك على العبد المنكر حجّة، وهو ظاهر.

والمتيقّن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقة من غير تجوز هو إظهار ما في الضمير من طريق التكلّم فيتوقّف على علم وكشفه لغيره، قال الراغب: ولا يكاد يستعمل النطق في غير الإنسان إلاّ تبعاً وبنوع من التشبيه، وظاهر سياق الآيات وما فيها من ألفاظ القول والتكلّم والشهادة والنطق أنّ المراد بالنطق ما هو حقيقة معناه.

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) فصّلت: ٢٠ ـ ٢١.

فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقاً وتكلّماً حقيقة عن علم تحملته سابقاً بدليل قولها: ﴿أَنطَقَنَا الله﴾. ثمّ إنّ قولها ﴿أَنطَقَنَا الله﴾ جواباً عن قول المجرمين: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾[1] إراءة منها للسبب الذي أوجب نطقها وكشف عن العلم المدّخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجئة إلى التكلّم والنطق، ولا يضرّ ذلك في نفوذ شهادتها وتمام الحجّة بذلك فإنّها إنّما أُلجئت إلى الكشف عمّا في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذباً وزوراً حتّى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجّة.

وقوله: ﴿الَّذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ توصيف لله سبحانه وإشارة إلى أنّ النطق ليس مختصّاً بالأعضاء حتّى تختص هي بالسؤال بل هو عام شامل لكلّ شيء، والسبب الموجب له هو الله سبحانه»[2].

أمّا الروايات الشريفة، فمنها ما ورد في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن جدّه، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة يصف هول يوم القيامة: **ختم الله على الأفواه فلا تكلّم وتكلّمت الأيدي وشهدت الأرجل ونطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثاً**»[3].

ومنها، ما ورد في تسلية الفؤاد، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهي تصلح للاستدلال على ملازمة العمل للعامل وعدم انفكاكه عنه، وعلى أنّ العمل حيّ ناطق في الآخرة. قال (عليه السلام): «**إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيّام الدنيا وأوّل يوم من أيّام الآخرة مثّل له ماله وولده وعمله، فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إنّي كنت عليك**

---

(١) فصّلت : ٢١ .

(٢) الميزان، للطباطبائي ١٧: ٣٧٨ ـ ٣٨٠.

(٣) الميزان، للطباطبائي ١٧: ١٠٥.

حريصاً شحيحاً فما لي عندك؟ فيقول خذ منّي كفنك. قال: فيلتفت إلى ولده، فيقول: والله إنّي كنت لكم محبّاً، وإنّي كنت لكم محامياً فماذا لي عندكم؟ فيقولون: نؤدّيك إلى حفرتك فنواريك فيها، قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنّي كنت فيك لزاهداً وإن كنت عليّ لثقيلاً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتّى أعرض أنا وأنت على ربّك، قال: فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً وأحسنهم رياشاً فقال: ابشر بروح وريحان وجنّة نعيم ومقدمك خير مقدم، فيقول له: مَنْ أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، المرتحل من الدنيا إلى الجنّة، وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجّله فإذا أُدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشعارهما ويخدّان الأرض بأقدامهما، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: الله ربّي وديني الإسلام ونبيّي محمّد. فيقولان له: ثبّتك الله فيما تحبّ وترضى، وهو قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[1] ثمّ يفسحان له في قبره مدّ بصره ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنّة، ثمّ يقولان له: نم قرير العين نوم الشاب الناعم فإنّ الله يقول: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[2]. قال: وإذا كان لربّه عدوّاً فإنّه يأتيه أقبح من خلق الله زيّاً ورؤياً وأنتنه ريحاً فيقول له: أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم، وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا أُدخل القبر، أتاه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثمّ يقولان له: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دريت ولا هديت، فيضربان يافوخه بمرزبّة معهما ضربة ما خلق الله من دابّة إلاّ وتذعر لها ما خلا الثّقلين، ثمّ يفتحان له باباً إلى النار يقولان له:

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) الفرقان: ٢٤.

نم بشرٍّ حال...»[١].

ومنها، ما ورد عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «**إذا وضع الميّت في قبره، مثّل له شخص فقال له: يا هذا كنّا ثلاثة: كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلك فخلفوك وانصرفوا عنك، وكنت عملك فبقيت معك، أما إنّي كنت أهون الثلاثة عليك**»[٢].

وفي الرواية، كسابقتها، دلالة على أنّ العمل ملازم لعامله ولا ينفكّ عنه، وإنّه في الآخرة حيّ ناطق.

القانون الرابع: إنّ عمل الإنسان يعيّن كيفيّة علاقته مع الواقع الخارجي.

نحن نعلم أنّ هناك عالماً خارجاً عنّا وعن وجودنا، وهو شيء، ونحن شيء آخر، وأنّ هذا الواقع الخارجي والأشياء التي خلقها الله سبحانه وتعالى قد تكون معينة للإنسان في عمله وقد تكون معيقة له، فإذا أعانته أدّى عمله بيسر كالسابح في النهر مع تيّاره، وإن أعاقته أدّى عمله بعسر كالسابح ضدّ التيّار.

فكيف يتعيّن ارتباط الإنسان بواقعه الخارجي بحيث يعينه أو يعيقه؟

إنّ الذي يعيّن كيفية ارتباط الإنسان بالواقع الخارجي وبالعالم هو عمله، فإن كان صالحاً رأى العالم جميلاً وحسناً ومعيناً له، وإن كان عمله طالحاً فإنّ نفس هذا العالم يراه معيقاً له، ولذا فإنّ الملكين اللّذين يراهما كلّ إنسان في قبره، يراهما الفاجر بمنظر كريه ويسمّيان حينئذ بمنكر ونكير، ويراهما المؤمن بمنظر حسن جميل ويسمّيان عنده بمبشر وبشير، فالملكان هما الملكان ورؤيتهما بهذه الهيئة أو

---

(١) الكافي ٣: ٢٣٢ / ١.

(٢) البحار ٦: ٢٥٦، الرواية ١١٠.

تلك هي انعكاس لعمل الإنسان نفسه ليس إلاّ.

وهكذا في مسألة حضور الأئمّة (عليهم السلام) عند كلّ إنسان حين موته ـ كما ورد في بعض الروايات ـ لا خصوص المؤمن، غاية الأمر أنّ المؤمن يراهم على هيئة معيّنة، وغيره يراهم على هيئة أُخرى مختلفة، وما ذلك إلاّ لاختلاف عمل المؤمن عن عمل غيره لا أنّهم عليهم السلام يختلفون من حال إلى آخر.

فمثال عمل الإنسان بالنسبة إلى العالم من حوله مثال الحاجب الذي يضعه الإنسان على عينه ليرى من خلاله ضوء الشمس، فإذا كان هذا الحاجب أخضر فإنّه يرى الضوء أخضر وإذا كان أحمر فإنّه يراه أحمر وهكذا، فبفعل الحاجب رأى الشمس خضراء ثمّ حمراء لا أنّها قد أصبحت خضراء ثمّ حمراء. وهكذا عمل الإنسان، فبه يرى الإنسان الواقع من حوله بهذه الكيفية أو بتلك.

ومن الروايات المؤكّدة لهذه الحقيقة، ما ورد في «تسلية الفؤاد»، عن أبي بصير، عن الإمام عليه السلام قال: «**إنّ المؤمن إذا أُخرج من بيته شيّعته الملائكة إلى قبره. يزدحمون عليه حتّى إذا انتهى به إلى قبره قالت له الأرض مرحباً بك وأهلاً، أما والله لقد كنت أحب أن يمشي عليَّ مثلك ثمّ لترينّ ما أصنع بك، فتوسّع له في قبره، ويدخل عليه في قبره ملكا القبر، فيلقيان فيه الروح إلى حقويه فيقعدانه ويسألانه، فيقولان له: مَنْ ربّك؟ فيقول: الله...**».

إلى أن يقول: «**صدق عبدي افرشوا له في قبره من الجنّة وافتحوا له في قبره باباً إلى الجنّة وألبسوه من ثياب الجنّة حتّى يأتينا وما عندنا خير له...**».

ثمّ قال: «**وإن كان كافراً خرجت الملائكة تشيّعه إلى قبره يلعنونه حتّى إذا انتهي به إلى قبره قالت له الأرض: لا مرحباً بك ولا أهلاً، أما والله لقد كنت أبغض أن يمشي**

عليّ مثلك، لترينّ ما أصنع بك في هذا اليوم، فتضيّق عليه حتّى تلتقي جوانحه ثمّ يدخل النكير والمنكر...»[1] فيفعلان ما يفعلان.

وفي الرواية دلالة واضحة على أنّ علاقة الإنسان بالواقع الخارجي تتحدّد من خلال عمله، وأنّ الأرض عندما تستقبل الإنسان الذي عمل صالحاً تترحّم عليه، وهكذا السماء والملائكة ويكون هذا معيناً له وميسراً لأمره، وإذا استقبلت العامل للطالح لعنته ودعت عليه بالشرّ وكان هذا معيقاً له ومعسراً لأمره. وبعمله يرى ملكي القبر بشيراً ومبشراً وأنّهما يؤديان به إلى الجنّة، وبعمله أيضاً يراهما منكراً ونكيراً وأنّهما يؤدّيان به إلى النار، والعياذ بالله.

كيفيّة الارتباط بين العامل وعمله

بيّنا فيما سبق أنّ العمل هو متن الجزاء وأنّ الجزاء هو متن العمل. وأنّ ملكات الإنسان تحصل من خلال العمل، ثمّ بيّنا من خلال عدّة قوانين أنّ هناك رابطة حقيقية بين العامل وعمله بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر، غير أننا لم نتعرّض إلى كيفيّة الارتباط الذي يحصل بين العمل والعامل.

إنّ الكيفية التي يرتبط بها العمل بعامله تمرّ بمراحل ثلاث هي: الحال ثمّ الملكة ثمّ الاتحاد أو التحقّق.

المرحلة الأُولى: الحال

ونعني بها حصول حالة معيّنة لدى الإنسان بعد قيامه بعمل ما، ولكن هذه

---

(١) تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد، عبدالله شبّر، مكتبة بصيرتي، قم: ٩٦.

الحالة سرعان ما تزول بزوال المؤثّر وهي من قبيل صفرة الخوف وحمرة الخجل ومن قبيل أن يسمع الإنسان موعظة في مسجد ما وتحصل لديه حالة نفسية معيّنة كحبّ للإنفاق أو رغبة في الجهاد أو خوف من الموت، ولكن هذه الحالة سرعان ما تزول بمجرّد أن يخرج من المسجد وتمرّ على الموعظة فترة زمنية قصيرة.

المرحلة الثانية: المَلَكة

ونعني بها اشتداد الحالة السابقة وقوّتها في وجود الإنسان بحيث يتعذّر ويتعسّر زوالها، كملكة الشجاعة في الشجاع وملكة العدالة في العادل، وإذا زالت هذه الملكات فإنّها سرعان ما تعود.

المرحلة الثالثة: الاتحاد

وهي المرحلة التي تكون فيها الملكة جزءاً من وجود الإنسان بحيث لا يمكن زوالها منه، وهي أوّل درجات العصمة، ولذا لا يمكن تصوّر صدور المعصية ـ مثلاً ـ من المعصوم عليه السلام لأنّ ملكة العدالة قد اشتدّت فيه حتّى صارت جزءاً من وجوده المبارك.

ويمكن تقريب هذه المراحل الثلاث من خلال مثال يضربه علماؤنا في هذا المقام، فلو أخذنا فحمة سوداء ووضعناها على النار، لمرّت هذه الفحمة بمراحل ثلاث، الأولى أن تصبح حارّة مع بقائها فحمة سوداء ولو زالت النار عنها فسرعان ما ترجع إلى ما كانت عليه، وهذه هي مرحلة «الحال»، ثمّ يتحوّل ظاهر الفحمة إلى نار مع بقاء باطنها فحمة سوداء، ولو زالت النار عنها فإنّ رجوعها إلى حالتها الأولى متعسّر بطيء، وهذه هي مرحلة « الملكة»، ثمّ لو بقيت تلك الفحمة على النار

لتحوّلت إلى جمرة من نار حيث لا يمكن بعدها زوال النارية عنها ولو زالت النار عنها لما رجعت إلى طبيعتها الفحمية الأولى، وهذه هي مرحلة «الاتحاد».

إذن، تبيّن أنّ ارتباط الإنسان بعمله يمرّ بمراحل ثلاث، صالحاً كان العمل أو طالحاً، فالعمل الصالح كالصلاة أو الصوم أو إصلاح ذات البين أو الإنفاق في سبيل الله له ظاهر وله باطن، كما بيّنا سابقاً، وباطنه هو الجنّة والروح والريحان، فإذا اتّحد العمل مع الإنسان كان الإنسان هو الجنّة لا أنّه يدخل الجنّة ﴿**فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ**﴾[1]. وورد «**إن الجنة لأشوق إلى سلمان من سلمان إلى الجنّة**»[2] وورد «**يا عليّ أنا مدينة الحكمة ـ وهي الجنّة ـ وأنت يا علي بابها**»[3] وورد عن الصادق عليه السلام أنّه قال: **ولايتنا هي الجنّة**[4].

كلّ هذا بشرط أن يكون هناك اتحاد بين العامل وعمله وبين الإنسان وملكاته ليكون هو الجنة، ومن هنا كانت فاطمة عليها السلام جنّة، حتّى ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «**فإذا اشتقت إلى الجنّة شممت رائحة فاطمة**»[5] فهي عليها السلام جنّة، وله صلى الله عليه وآله من الشمّ الباطني ما يستطيع به شمّ رائحة الجنّة.

وهكذا إذا صار الإنسان عالماً حقيقياً، كان النظر إلى وجهه عبادة لأنّه يكون حينئذ نظراً إلى الجنّة، ومنظره يذكّر بالله سبحانه وتعالى ورائحته تفوح منها رائحة الجنّة لمن يستطيع أن يشمّ.

---

(١) الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) روضة الواعظين للفتال النيشابوري، منشورات الرضي : ٢٨٢.

(٣) روضة الواعظين : ١١٩.

(٤) الكافي ٨: ٢١٣ .

(٥) علل الشرائع، نشر مكتبة داوري : ١٨٤ .

ومثل هذا ما ينقل عن بعض أولياء الله الذين يرون الناس على صور مختلفة، وما هذا في واقعه إلاّ رؤية لأعمال أولئك الناس التي اتّحدت معهم فصارت تلك الملكات حقيقة لهم.

ومثل هذا الأمر جار في العمل الطالح الذي له ظاهر وباطن أيضاً، فأكل مال اليتيم طيّب لذيذ في ظاهره ولكن باطنه نار موقدة ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا**﴾[1].

وإذا افترضنا هذا الجزاء صار جزءاً من وجود الإنسان فإنّ الإنسان سيكون هو قطعة من نار وسيدخل النار ﴿**نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**﴾[2] إذ تحرق الباطن لتخرج إلى الظاهر عكس حالها في الدنيا. وقد ورد أنّ بعض المجرمين الذين هم من أهل التابوت عندما يفتح الغطاء عنهم يئن أهل جهنّم من حرارة ذلك التابوت لأنّهم هم قطعة من النار وأُدخلوا النار أيضاً.

ثمّ إنّ كثيراً من الأعمال الإجرامية لا يستطيع أن يقوم بها كلّ أحد، كقتل المعصوم (عليه السلام)، ولابدّ أن تصل الجريمة والخباثة في هذا الإنسان القاتل إلى درجة عالية بحيث تكون جزءاً من وجوده ليقدِم على عمل كهذا، وقد عبّر القرآن الكريم عن أمثال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿**بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾[3] بحيث لا يرى بعد ذلك الخطيئة خطيئة بل يراها عملاً حسناً ﴿**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[4].

---

(١) النساء: ١٠.

(٢) الهمزة: ٦ ـ ٧.

(٣) البقرة: ٨١.

(٤) الكهف: ١٠٤.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة وأنّ الأعمال قد تكون حالات أو ملكات أو جزءاً من وجود الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾[١] حيث وصف عملهم بالصالح، وأمّا هم فمسكوت عنهم ولعلّ الجزاء هنا بنحو الحال أو الملكة.

أمّا في قوله تعالى: ﴿**وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[٢] إشارة إلى أنّ هؤلاء ليس عملهم صالحاً فقط، وإنّما ذاتهم صالحة أيضاً لأنّ الصلاح أصبح متّحداً معها، ومن الواضح أنّ الذات لا يصدر عنها إلاّ ما ينسجم مع طبيعتها ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾[٣]. وفي هذا السياق ما ورد بشأن ابن نوح، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾[٤] أي إن وجوده وجود غير صالح، لا أن عمله غير صالح فقط.

ثمّ إنّ أعمال الإنسان الطالحة حينما تكون «حالاً» كفى بضغطة القبر أو عذاب البرزخ مطهّراً له، فيأتي يوم القيامة وهو طاهر، أمّا إذا اشتدّت هذه الحالة وتحوّلت إلى «ملكة» فلا تكفي ضغطة القبر ولا عذاب البرزخ لتطهيره، بل لابدّ له من أن يدخل النار يوم القيامة لكي يطهر بها إن كان موحِّداً، وإلاّ فإنّه لن يخرج منها لأنّه قطعة منها. وهكذا بمقدار اشتداد الملكات الطالحة فينا يكون مقدار عذابنا من حيث الشدّة والطول.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اتقوا الله معاشر الشيعة، فإنّ الجنّة لن تفوتكم وإن أبطأت**

---

(١) البقرة: ٢٥.
(٢) آل عمران: ١١٤.
(٣) الإسراء: ٨٤.
(٤) هود: ٤٦.

بها عنكم قبائح أعمالكم، فتنافسوا في درجاتها». قيل: فهل يدخل جهنّم أحد من محبّيك ومحبّي عليّ عليه السلام؟ قال: **من قذر نفسه وواقع المحرمات وظلم المؤمنين والمؤمنات وخالف ما رسم له من الشريعة، جاء يوم القيامة قذراً طفساً**[1] **فيقال له: يا فلان أنت قذر طفس لا تصلح لمرافقة الأخيار ولا لمعانقة الحور الحسان ولا الملائكة المقرّبين. لا تصل إلى هناك إلاّ بأن يطهر عنك ما هاهنا** ـ يعني ما عليك من الذنوب ـ **. فيدخل إلى الطبق الأعلى من جهنّم فيعذّب ببعض ذنوبه، ومنهم من يصيبه الشدائد في المحشر ببعض ذنوبه، ومنهم من يكون ذنوبه أقلّ وأخفّ فيطهر منها بالشدائد والنوائب من السلاطين وغيرهم، ومن الآفات في الأبدان في الدنيا ليدلى في قبره وهو طاهر، ومنهم من يقرب موته وقد بقيت عليه سيئة، فيشتدّ نزعه فيكفّر به عنه**»[2].

وهكذا الأعمال الصالحة، فإنّ ضغطة القبر تنسي الإنسان تلك الأعمال حينما تكون «حالاً» ولذا ذكروا في حكمة «التلقين» أنّ الميّت يُذكّر بالعهد الذي فارقنا عليه أي بشهادة أن لا إله إلاّ الله... فإنّه ينسى هذا بل ينسى حتّى اسمه لهول المقام، ومن هنا قال تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾[3] لا «من عمل الحسنة فله عشر أمثالها» وإلاّ الكثير منّا يعمل الحسنة ولكنّها بعد ذلك تزول ولا تبقى لأنّها «حال» لا «ملكة» فإذا استطاع الإنسان أن يجعلها متجذّرة وجزءاً من وجوده، وجاء بها يوم القيامة فله عشر أمثالها.

---

(١) طفس ككتف بمعنى النجس.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٣٥٢.

(٣) الأنعام: ١٦٠.

الخلاصة

والخلاصة، أنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان على أحسن ما يمكن ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١] وهيأ له كلّ الأسباب إلى أن أوصله إلى هذا العالم ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٢] حيث أعطاه حجّة داخلية ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٣] ثمّ أرسل إليه عشرات الآلاف من الأنبياء والأوصياء والصلحاء وأنزل له الرسالات السماوية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٤]، ثمّ جعله حرّاً يفعل ما يريد، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٥] ليبني باختياره وجوده يوم القيامة، فنحن في كل آن ونيّة، وفي كلّ صغيرة وكبيرة وفي كلّ اعتقاد وعمل، نبني نفوسنا ووجودنا يوم القيامة، فأيّ علم وعمل سنختار وكيف سنبني هذا الوجود؟

إنّ الآيات والروايات التي تثبت أنّ الإنسان سوف يحشر يوم القيامة على أساس عمله وسيكون رهيناً له بل سيكون حقيقة عمله، كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا. ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي

---

(١) المؤمنون: ١٤.
(٢) الشمس: ٧ ـ ٨.
(٣) الروم: ٣٠.
(٤) الحديد: ٢٥.
(٥) الإنسان: ٣.
(٦) الإسراء: ٩٧ ـ ٩٨.

هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾[٣]، وآيات أخرى كثيرة.

أمّا الروايات، فمنها:

ما ورد في تفسير الصافي في ذيل الآية: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[٤]، ففي المجمع عن النبي (صلى الله عليه وآله) سُئل عن هذه الآية، فقال: «يحشر عشرة أصناف من أُمّتي أشتاتاً، قد ميّزهم الله من المسلمين وبدّل صورهم، فبعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت، ثمّ يسحبون عليها، وبعضهم عُمي يتردّدون، وبعضهم صمّ بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم.

فأمّا الذين على صورة القردة، فالقتّات من الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير فأهل السحت، وأمّا المنكوسون على رؤوسهم، فآكلة الربا، والعمي الجائرون في الحكم، والصمّ البكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم العلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم، والمقطّعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين هم أشدّ نتناً من

(١) الإسراء: ٧٢.
(٢) آل عمران: ١٨٢.
(٣) البقرة: ١١٠.
(٤) النبأ: ١٨.

الجيف فالذين يتمتّعون بالشهوات ويمنعون حقّ الله تعالى في أموالهم، والذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء»[١].

وفي البحار، في رواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، تتعلق بليلة المعراج قال (صلى الله عليه وآله): «**دخلت الجنّة فرأيت فيها قصراً من ياقوت أحمر يُرى داخله من خارجه وخارجه من داخله من نوره، فقلت: يا جبرائيل، لمن هذا القصر؟ قال: لمن أطاب الكلام وأدام الصيام وأطعم الطعام وتهجّد بالليل والناس نيام**»[٢].

وفي رواية أُخرى، قال صلى الله عليه وآله: «**لمّا أُسري بي إلى السماء، دخلت الجنّة فرأيت فيها قيعان ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة وربما أمسكوا، فقلت لهم: ما بالكم قد أمسكتم؟ فقالوا: حتّى تجيئنا النفقة. فقلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المؤمن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا وإذا سكت أمسكنا..**»[٣]. فلفظ العبد المؤمن الظاهر في الدنيا له باطن، وباطنه هو تلك الأحجار التي تكون جدراناً للقصور التي ينزل بها في الجنّة.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «**ثمّ مضيت فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيّب ولحم خبيث، يأكلون اللحم الخبيث ويدعون الطيّب، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون الحرام ويدعون الحلال وهم من أمّتك يا محمّد**»[٤]. وهذا قانون أساسي في الجزاء، إذ إنّ الإنسان يرتزق من عمله يوم القيامة، فإن كان عمله صالحاً

---

(١) تفسير الصافي، للفيض الكاشاني، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ٥: ٢٧٥.

(٢) البحار ١٨: ٢٩٢.

(٣) البحار ١٨: ٢٩٢ .

(٤) البحار١٨: ٣٢٣.

فرزقه طيب ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَن لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِن خَمْر لَّذَّة لِلشَّارِبِينَ﴾[١] وإن كان عمله طالحاً فرزقه كذلك ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ.طَعَامُ الأَثِيمِ﴾[٢].

ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوام ترضخ رؤوسهم بالصخر، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العشاء، ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار في أفواههم وتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٣]، ثمّ مضيت، فإذا أنا بأقوام يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[٤]، قال: ثمّ مضيت فإذا أنا بنسوان معلّقات بثديهنّ، فقلت: من هؤلاء ياجبرائيل؟ فقال: هؤلاء اللواتي يورثن أموال أزواجهنّ أولاد غيرهم، ثمّ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم في نسبهم من ليس منهم فاطّلع على عوراتهم وأكل خزائنهم»[٥].

وفي المحاسن عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام، قال: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستّ صور، فيهنّ صورة أحسنهنّ وجهاً وأبهاهنّ هيئة وأطيبهنّ ريحاً وأنظفهنّ صورةً، قال: فتقف صورة عن يمينه وأُخرى عن يساره وأخرى بين يديه

(١) محمد: ١٥.
(٢) الدخان: ٤٣.
(٣) النساء: ١٠.
(٤) البقرة: ٢٧٥.
(٥) البحار ١٨: ٣٢٣.

وأُخرى خلفه وأُخرى عند رجله، وتقف التي هي أحسنهنّ فوق رأسه، فإن أُوتي عن يمينه منعته التي عن يمينه ثمّ كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست. قال: فتقول أحسنهنّ صورة: ومن أنتم جزاكم الله عنّي خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، والتي عن يساره: أنا الزكاة، وتقول التي بين يديه أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحجّ والعمرة، وتقول التي عند رجليه: أنا برّ من وصلت من اخوانك. ثمّ يقلن: مَن أنتِ، فأنت أحسننا وجهاً وأطيبنا ريحاً وأبهانا هيئة؟ فتقول: أنا الولاية لمحمّد صلّى الله عليه وآله»[1]. قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَد وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَّ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

* * *

(١) تسلية الفؤاد، عبدالله شبّر، ص٩٣.
(٢) الحشر: ١٨ ـ ١٩.

بحوث الكتاب

الحديث الأوّل: جهاد النفس

روى الكليني قدس سره في الكافي: (أخبرني إجازة مكاتبةً ومشافهةً عدّة من المشايخ العظام، والثقات الكرام منهم: الشيخ العلاّمة المتكلِّم، الفقيه الأصولي الأديب المتبحِّر الشيخ محمد رضا آل العلاّمة الوفي الشيخ محمد تقي الأصفهاني أدام الله توفيقه حين تشرّفه بقم المشرّفة، والشيخ العالم الجليل المتعبّد الثقة الثبت الحاج الشيخ عبّاس القمّي دام توفيقه. وكلاهما عن المولى العالم الزاهد العابد الفقيه المحدِّث الميرزا حسين النوري نوَّر الله مرقده الشريف، عن العلاّمة الشيخ مرتضى الأنصاري قدّس الله سرّه.

ومنهم السيّد السند الفقيه المتكلِّم الثقة الثبت العلاّمة السيّد محسن الأمين العاملي أدام الله تأييداته، عن الفقيه العلاّمة صاحب المصنّفات العديدة السيد محمد بن هاشم الموسوي الرضوي الهندي المجاور في النجف الأشرف حيّاً وميّتاً قدّس الله سرّه، عن العلاّمة الأنصاري.

ومنهم العالم الثقة الثبت السيّد أبو القاسم الدهكردي الأصفهاني، عن السيّد السند الأمجد الميرزا محمد هاشم الأصفهاني+ ، عن العلاّمة الأنصاري.

ولنا طرق أخرى غير منتهية إلى الشيخ تركناها، عن المولى الأفضل أحمد النراقي عن السيّد مهدي الملقّب بـ «بحر العلوم» صاحب الكرامات رضوان الله عليه عن أستاذ الكلّ الآقا محمد باقر البهبهاني، عن والده الأكمل محمد أكمل، عن المولى محمد باقر المجلسي، عن والده المحقّق المولى محمد تقي المجلسي، عن الشيخ

المحقّق البهائي، عن والده الشيخ حسين،عن الشيخ زين الدين الشهير بالشهيد الثاني، عن الشيخ علي بن عبد العالي الميسي، عن الشيخ شمس الدين محمد ابن المؤذن الجزيني، عن الشيخ ضياء الدين علي، عن والده الحائز للمرتبتين الشيخ شمس الدين محمد بن مكي عن الشيخ أبي طالب محمد فخر المحقّقين، عن والده آية الله الحسن بن مطهر العلاّمة الحلي، عن الشيخ أبي القاسم جعفر بن الحسن بن سعيد الحلّي المحقّق على الإطلاق، عن السيّد أبي علي فخار بن معد الموسوي، عن الشيخ شاذان بن جبرئيل القمّي، عن الشيخ محمد بن أبي القاسم الطبري، عن الشيخ أبي علي الحسن، عن والده شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله جامع «التهذيب والاستبصار» عن إمام الفقهاء والمتكلّمين الشيخ أبي عبدالله محمد بن النعمان «الشيخ المفيد» عن شيخه رئيس المحدّثين الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، صاحب كتاب «من لا يحضره الفقيه» عن الشيخ أبي القاسم جعفر بن قولويه، عن الشيخ الأجلّ ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني صاحب «الكافي» عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي عن السكوني، عن أبي عبدالله الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «أنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، بعث سرية فلمّا رجعوا، قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[1]).

وقبل التعرّض إلى بيان شرح السيّد الإمام قدس سره لهذا الحديث الشريف لابدّ من تناول بعض المطالب المهمّة على نحو التمهيد:

---

(١) فروع الكافي، ج٥، كتاب الجهاد، باب وجوه الجهاد، ص٣.

منها: ما ذكره السيّد الإمام قدس سره من تسلسل إجازته في نقل الرواية إلى أن يصل إلى ثقة الإسلام الكليني صاحب كتاب «الكافي» ثمّ يتسلسل إلى الإمام الصادق عليه السلام وذلك تبعاً للسنّة الحسنة المتّبعة في نقل الروايات والأحاديث من قبل العلماء السابقين والممتدّة إلى يومنا هذا والمتمثّلة بذكر العالم إجازته مكاتبة ومشافهة في نقل الرواية عمّن سبقه من العلماء إلى أن يصل إلى المعصوم عليه السلام ليبيّن بذلك سند الرواية ويثبت رجالاته، ولا تخفى أهمّية هذا العمل العلمية العظيمة على أحد.

ومنها: ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ العمل بلا علم لا فائدة منه، وأنّ بداية العلم أن يعرف الإنسان نفسه، ومن هنا بدأ الإمام قدس سره بحديث النفس لنتعرّف عليها ولننطلق منها إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[1].

وقد ورد في المأثور: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[2] و «**أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّكم**»[3]. فمن لم يعرف ربّه ولم يطّلع على حقيقة التوحيد لا يمكنه التعرّف على ما يقرّبه منه تبارك وتعالى ولا ما يبعده عنه، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**أوّل الدين معرفته**» إذ إنّ العمل بلا معرفة لا يزيد صاحبه ـ وإن حثَّ الخطى في السير وأسرع ـ إلاّ بُعداً عن الحقّ ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[4].

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٠٣ / ٨٠٤٨.

(٣) روضة الواعظين: ٢٠.

(٤) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

ومنها: أنّه وقبل الدخول في البحوث التفصيلية المتعلّقة بدرجتي الجهاد الأكبر والأصغر اللّتين أشارت إليهما الرواية الشريفة وما هو المراد منهما، لابدّ من التعرّض ـ وبصورة أكثر تفصيلاً ممّا ذكرناه سابقاً ـ لبحث «النفس الإنسانية» هذه النفس التي نريد إصلاحها وتزكيتها وإيصالها إلى مقام القرب الإلهي، وإلاّ فكيف يتسنّى لنا إصلاح وتزكية ما نجهله ولا نعلم حقيقته ولا نعرف مواطن قوّته وضعفه.

ما هو الإنسان وما هي النفس الإنسانية؟

هناك علمان يستطيع الباحث من خلالهما الإجابة عن هذا التساؤل، وهما: علم النفس التجريبي وعلم النفس الفلسفي، وما يهمّنا هنا هو الإجابة من خلال علم النفس الفلسفي، فنقول: إنّ الله سبحانه وتعالى قد تعلّقت إرادته الأزلية في أن يوجِد موجودات مختلفة جعل لبعضها عقلاً دون شهوة وغضب وأوجد في بعضها الآخَر شهوة وغضباً دون عقل وركّب القسم الثالث من العقل والشهوة والغضب.

والقسم الأوّل من هذه الموجودات هو ما تعبّر عنه الآيات والروايات بـ«الملائكة» ويعبّر عنه في البحوث الفلسفية بـ «العقول».

ويختصّ القسم الثاني بـ«الحيوانات». وليست الحيوانات كلّها في هذا القسم على حدّ سواء، فقد تتغلّب في بعضها الشهوة على الغضب كما في الخنازير، وقد يحدث العكس كما في السباع، وما يجمعها هو وجود الشهوة والغضب فيها دون العقل.

ويختصّ القسم الثالث بـ «الإنسان» الذي عجنت فيه القوى الثلاث معاً، حيث خلقه الله سبحانه وتعالى في أحسن تقويم ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ**

﴿تَقْوِيم﴾[١] وجعله قادراً مختاراً في سلوك أي طريق يختاره من طريقي الخير أو الشرّ ﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٢] فإن أمّر عقله على شهوته وغضبه وجعلهما منقادتين له ترقى في درجات الكمال حتّى يصل إلى مقامات لا تصل إليها حتّى الملائكة المقرّبة، قال تعالى واصفاً موقع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[٣]، وما ذلك إلاّ لأنّ الإنسان يترقّى في درجات الكمال ويصل إلى تلك المقامات مع وجود المنازع والمزاحم له في مسيرته وعدم وجوده في عالم الملائكة.

أمّا إذا انقاد عقله لشهواته أو لغضبه كان كالحيوان بل هو أضلّ سبيلاً ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٤]. وما تأسّف القرآن على تشبيه هؤلاء بالأنعام إلاّ لأنّهم قد امتلكوا العقل إلى جنب الشهوة والغضب ولكنّهم أسّروه لشهوتهم أو لغضبهم فتسافلوا دون درجة الحيوانات في الوجود.

تفصيل بعد إجمال في قوى النفس المختلفة

ذكر العلماء أربع قوى للنفس البشرية ـ سبقت الإشارة إليها على نحو الإجمال وهي:

القوّة العقلية والتي يعبّر عنها بالقوة «الملكية» لأنّها تسمو بالإنسان إلى عالم

---

(١) التين: ٤.
(٢) الشمس: ٧ ـ ١٠.
(٣) النجم: ٨ ـ ٩.
(٤) الفرقان: ٤٤.

الملائكة والطهر والطهارة وعالم القرب الإلهي.

والقوة الشهوية التي توصف أيضاً بالبهيمية لوجودها بصورة أشدّ في البهائم.

ثمّ **القوّة الغضبية** التي قد تردف بصفة السبعية لأنّها القوّة التي زوّدت بها السباع والحيوانات الضارية.

وهاتان القوّتان ـ أعني الشهوية والغضبية ـ هما اللتان تجرّان الإنسان إلى عالم الملك والشهادة والمادة وإلى هذه الدنيا الدنية.

ثمّ **القوّة الوهمية**، ولها دور خطير ومهمّ في حياة الإنسان فهي التي تعينه في الطريق الصحيح أو الخطأ فتوفّر له الوسائل لتنفيذ ما يريد ويختار.

وقد تطرقنا لكلّ هذا فيما سبق، وما نريد الإشارة إليه هنا هو التعرّض لهذه القوى بصورة أكثر تفصيلاً من حيث تعريفها وبيان وظائفها، ونبدأ بالقوّة الشهوية قبل غيرها، فنقول:

القوّة الشهوية

تعريفها: وهي القوّة التي لا يصدر عنها إلاّ أفعال البهائم من عبودية الفرج والبطن والحرص على الجماع والأكل[1].

وظيفتها: عند تحليلنا لوظيفة هذه القوّة نجد أنّها تقوم بعملين أساسيين، وهما:

الأوّل: الأكل وتتبيّن أهمّية هذا العمل من خلال فائدتين أساسيتين يحصل عليهما الإنسان من خلاله وهما:

---

(١) جامع السعادات، النراقي ١ :٦١،

الفائدة الأولى: حفظ البدن. فمن الواضح أنّ النفس بصورة عامة وبلا نظر إلى الاستثناءات الخاصة، لا تستطيع أن تؤدّي أي فعل من الأفعال إلاّ من خلال البدن فهو الوسيلة والآلة والمركب الذي تستطيع النفس من خلاله القيام بأي عمل تريده في هذه النشأة فإذا عجز أو تلف فقدت النفس وسيلتها في إنجاز أفعالها تماماً كما يفقد المسافر وسيلة سفره فيقصر عن بلوغ هدفه.

ولا يحفظ البدن ـ كما هو واضح ـ إلاّ الأكل الذي تحثّ عليه القوّة الشهوية. غير أنّ هذه القوّة لا تعرف حلالاً ولا حراماً ولا كثيراً ولا قليلاً، فكان لابدّ من وجود قوّة أخرى تسيطر على عمل هذه القوّة فتشخص لها المصالح والمفاسد وتبيّن لها الحلال من الحرام. وما هذه القوّة إلاّ ما نسمّيها بالقوّة العاقلة.

وعلى كلّ حال فليست القوّة الشهوية وبلحاظ هذه الفائدة قوّة مهمّة فحسب، بل هي قوّة أساسية وبدونها لا يستطيع الإنسان من الوصول إلى كماله المطلوب. بل إنّ النفس الإنسانية إنّما تنشأ في هذا البدن فإذا كان البدن قد نشأ وتكوّن من طعام حلال طاهر فالنفس تكون طاهرة وإن نشأ من طعام حرام نجس كانت النفس خبيثة نجسة؛ ولهذا ورد «**تخيّروا لنطفكم**»[1] كما ورد كثير من الروايات التي تحثّ المرأة الحامل على أكل كذا والامتناع عن أكل كذا. ومن هنا ورد أيضاً: «**الشقيّ من شقي في بطن أمّه والسعيد من سعد في بطن أمّه**»[2] أي إنّ شقاوة الإنسان وسعادته تبدأ من مراحل حياته الأولى حال كونه جنيناً في بطن أمّه تبعاً للطعام والغذاء الذي يتدخّل في تكوّنه.

---

(١) دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ٢ : ٢٠٠ / ٧٣٣.
(٢) التوحيد للصدوق : ٣٥٦ / ٣.

الفائـدة الثانيـة: أنّ هـذه القـوة الـشهوية ـ وفـي جانـب الأكـل ـ لـو لـم تكـن موجودة في الإنسان لما استطاع الوصول إلى الكمالات المرتبطة بها.

ولتوضيح الفكرة نقول: إنّ الأعمى فاقـد للكمـالات الناشـئة مـن غـضّ البـصر عمّا حرّم الله، ومع فقدان الكافر من على وجـه الأرض يفقـد الإنـسان كمـال الجهـاد في سبيل الله، وهكذا... فلو لم يكن الإنسان آكلاً وشـارباً لمـا اسـتطاع الوصـول إلـى الكمالات المرتبطة بعدم أكل الحرام والنجس وما شابه ذلك.

العمل الثاني: الجماع. ولهذا العمل فائدتان أيضاً هما:

الفائدة الأولى: حفظ واستمرار النسل الإنـساني. وإلاّ لـو لـم يكـن مـع الجمـاع شهوة ولذّة ـ مع قطع النظر عن الأجـر الأخـروي ـ لمـا أقـدم الإنـسان علـى ذلـك مـع وجود كلّ تلك المشاكل والصعوبات المترتّبـة علـى وجـود الولـد والذريـة وتربيتهـا ورعايتها.

الفائـدة الثانيـة: تـوفير هـذا العمـل لمجـالات تكامـل الإنـسان فـي الجوانـب المرتبطة بإشباع الشهوة الجنسية ونعني بها الكمالات المرتبطة بالعفّة.

سؤال و جواب

قد يتبادر إلى أذهان بعض سـؤال يتعلّـق بـالقوّة الـشهوية وهـو: ألـم يكـن مـن الأفضل لو أنّ الله تعالى قد خلقنا من دون هذه الشهوة وكمالاتها المرتبطة بها؟

والجواب: إنّ هذا السؤال هو عين سؤالنا لماذا لـم يخلقنـا الله تعـالى ملائكـة؟ وجوابهما واحد، وهو أنّ الله تعالى قد شـاءت حكمتـه أن يخلـق خلقـاً لـم يجعـل لـه شهوة جنس ولا أكل فكانـت الملائكـة، كمـا شـاءت حكمتـه أيـضاً أن يخلـق خلقـاً

آخر توجد فيه هذه الشهوة فكان هو الإنسان الذي بإمكانه أن يتسامى فوق هذه القوّة التي تجذبه إلى البهيمية ويتعالى عليها فيكون أفضل من الملائكة.

القوة الغضبية

تعريفها: وهي القوّة التي تكون منشأً لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء والتوثّب على الناس بأنواع الأذى[1] من ذلك الموجود الذي ركّبت فيه تلك القوّة مع غيرها.

هدفها وفائدتها: إنّ لهذه القوّة فائدتين مهمّتين هما:

الفائدة الأولى: الدفاع. تعتبر القوّة الغضبية منشأ حصول الحمية والغيرة لدى الإنسان؛ وعنهما تصدر عملية دفاع الإنسان عن نفسه وعرضه وماله ووطنه، والأهم من ذلك جميعاً دفاعه عن دينه وعقيدته. وبدون الحمية والغيرة لا يتحرّك الإنسان للدفاع عن أي أمر مهما عظم قدره، وبتعبير آخر لولا القوّة الغضبية المولدة للحمية والغيرة لما صدرت عملية الدفاع من الإنسان.

غير أنّ هذه القوّة ـ وكما في الشهوية ـ لا تراعي فيما يصدر عنها حلالاً ولا حراماً ولا تشخص له حدوداً ولا كيفية معيّنة بل تقطع وتدمر وتقضي على كلّ شيء، وإنّما يعود تشخيص الحلال من الحرام والكم والنوع إلى القوّة العاقلة كما ذكرنا ذلك مراراً.

الفائدة الثانية: تمتاز القوّة الشهوية بأنّها قوّة عنيدة لا تهدأ بسرعة بخلاف القوّة الغضبية التي تمتاز بشدّتها من ناحية وبأنّها سرعان ما تهدأ من ناحية أُخرى،

---

(١) جامع السعادات، للنراقي، ج١، ص٥٢.

فلذا ورد في المأثور عن النبيّ (صلى الله عليه وآله): «**إنّ الغضب جمرة تتوقّد في القلب. ألم تر إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم فإن لم يزل ذلك فليتوضّأ بالماء البارد وليغتسل فإنّ النار لا يطفيها إلاّ الماء**»[1].

ومادامت القوّة العاقلة تعجز عن الوقوف بوجه القوّة الشهوية العنيدة الطويلة الأثر، فتستعين بالقوّة الغضبية الشديدة كالنار المحرقة للوقوف بوجهها والحدّ من أثرها.

ومن هنا ورد عن أفلاطون: «أمّا هذه ـ أي السبعية ـ فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأمّا تلك ـ أي البهيمية ـ فإنّها بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع».

وقال أيضاً: «ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلاً، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية في إيثار الوسط فليستعن بالغضبية المهيّجة للغيرة والحمية يقهرهما»[2].

غير أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلاّ بأن تكون الغضبية تحت إمرة القوّة العاقلة وإلاّ فستكون العاقلة في أسر الغضبية وخدمتها، وفي هذا الأمر من الأخطار الجسيمة العظيمه ما سنبيّنه في بحوث لاحقة إن شاءالله تعالى.

القوّة الوهمية

تعريفها: وهي القوّة التي من شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصّل

---

(١) المحجّة البيضاء، للفيض الكاشاني، ج٥، بيان علاج الغضب، ص٣٠٧.

(٢) جامع السعادات، للنراقي، ج١، ص٦٢.

إلى الأغراض بالتلبيس والخدع[١] فهي من أهم قوى الإنسان بل إنّ قواه الأخرى تحت سلطان قوّة الواهمة، على ما سنذكره عن السيّد الإمام (قدس سره).

وظيفتها: إنّ وظيفة القوّة الوهمية وعملها وكما هو واضح من تعريفها هو استنباط وجوه المكر والحيلة والتوصّل إلى الأغراض وإن استدعى ذلك التلبيس والخداع ومن أي طريق كان محللاً أو محرّماً، جائزاً أو غير جائز.

فهي سلاح ذو حدّين وبإمكان الإنسان استخدامه في هذا الاتجاه أو ذاك وفي تحقيق هذا الهدف أو ذاك حسب ما يريد ويختار.

فإذا صارت هذه القوّة في خدمة القوّة الغضبية أصبح الإنسان جبّاراً في الأرض فيطغى ويعيث فيها فساداً ويتنكّر لكلّ خير ويتنكّب كلّ شرّ ويتحوّل إلى فرعون ونمرود.

أمّا إذا صارت هذه القوّة في خدمة القوّة الشهوية فإنّها تهيئ لهذه القوّة كلّ وسيلة توصلها إلى غرضها وتبحث لها عن كل طريق حتّى ما لا يخطر على بال الشيطان نفسه من أجل الوصول إلى تلك الشهوة.

وأمّا إذا صارت في خدمة القوّة العاقلة فإنّها سوف تبحث لها عن طرق الوصول إلى القرب الإلهي وسبل الرقي في درجات الكمال.

---

(١) المصدر السابق.

القوة العاقلة

البحث الأوّل: فضل العقل

عن ابن عباس قدس سره قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**لكلّ شيء آلة وعدّة، وإنّ آلة المؤمن وعدّته العقل، ولكلّ شيء مطيّة، ومطيّة المرء العقل، ولكلّ شيء دعامة، ودعامة الدين العقل، ولكلّ قوم غاية، وغاية العبّاد العقل، ولكلّ قوم راع، وراعي العابدين العقل، ولكلّ تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكلّ أهل بيت قيّم، وقيّم الصدّيقين العقل، ولكلّ خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكلّ امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به، وعقب الصدّيقين الذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل، ولكلّ سفر فسطاط، وفسطاط المؤمنين العقل**»[١].

وفي الكافي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتّى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته**»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**حجّة الله على العباد النبي صلى الله عليه وآله والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل**»[٣].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنّما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما**

---

(١) المحجّة البيضاء ١ : ١٧٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ١: ١٧٤.

آتاهم من العقول في الدنيا»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**ليس بين الإيمان والكفر إلاّ قلّة العقل**» قيل: **وكيف ذلك يابن رسول الله؟ قال: «إنّ العبد يرفع رغبته إلى مخلوق، فلو أخلص نيّته لله لأتاه الذي يريد في أسرع من ذلك»**[٢].

البحث الثاني: حقيقة العقل وأقسامه

إنّ فهم أخبار العقل يتوقّف على بيان حقيقة العقل، واختلاف الآراء والمصطلحات فيه. فنقول: إنّ العقل في اللغة، هو تعقّل الأشياء وفهمها. واصطلح إطلاقه على أُمور:

الأوّل: «الوصف الذي به يفارق الإنسان سائر البهائم، وهو الذي به استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية. وهو الذي أراده الحارث المحاسبي حيث قال في حدّ العقل: «إنّه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وتدبير الصناعات وكأنّه نور يقذف في القلب، به يستعدّ لإدراك الأشياء»[٢].

فإذا حصلت هذه الهيئة في الإنسان، فإنّه يستطيع «إدراك الخير والشرّ والتمييز بينهما، والتمكّن من معرفة أسباب الأمور وذوات الأسباب، وما يؤدّي إليها وما يمنع منها. والعقل بهذا المعنى مناط التكليف والثواب والعقاب»[٣].

الثاني: «عبارة عن العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميّز، بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأنّ

(١) المحجة البيضاء ١: ١٧٤

(٢) المصدر السابق ١: ١٧٧.

(٣) بحار الأنوار ١: ٩٩.

الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وهو الذي عناه بعض المتكلّمين حيث قال في حدّ العقل: إنّه بعض العلوم الضرورية بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وهذا أيضاً صحيح في نفسه، لأنّ هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهرة.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإنّ من حنكته التجارب وهذّبته المذاهب، يقال: إنّه عاقل في العادة، ومن لا يتّصف بذلك يقال: إنّه غبي جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمّى عقلاً.

الرابع: أن ينتهي قوّة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، فيقمع الشهوة الداعية إلى اللذّة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوّة سُمّي صاحبها عاقلاً، بحيث إنّ إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواصّ الإنسان التي يتميّز بها عن سائر الحيوانات»[1].

البحث الثالث: الثمرة الأساسية المترتّبة على العقل

وهذا المعنى الرابع هو الثمرة الأساسية المترتّبة على المعاني الثلاثة الأول، لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سُئل ما العقل؟ قال عليه السلام: «**ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان**» قال: قلت: فالذي كان في معاوية، فقال: «**تلك النكراء وتلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل**»[2].

وهو المراد بقوله صلى الله عليه وآله لعليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا اكتسب الناس من أنواع البرّ ليتقرّبوا بها إلى ربّنا عز وجل، فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة**

(١) المحجّة البيضاء ١: ١٧٨.

(٢) المحاسن للبرقي، دار الكتب الإسلامية، قم : ١٩٥ / ١٥ .

والقرب»[١].

وكذلك ما ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

قوله لأبي الدرداء: «**ازدد عقلاً تزدد من ربّك قرباً**» فقال: بأبي أنت وأُمّي، وكيف لي بذلك؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**اجتنب محارم الله وأدّ فرائض الله، تكن عاقلاً، واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة، وتنل من ربّك القرب والعز**»[٢].

وهكذا عن سعيد بن المسيب أنّه قال: «إنّ جماعة دخلوا على النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يارسول الله من أعلم الناس؟ فقال: **العاقل**، فقالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: **العاقل**. فقالوا: فمن أفضل الناس؟ فقال: **العاقل**. قالوا: أليس العاقل من تمّت مروّته وظهرت فصاحته وجادت كفّه وعظمت منزلته؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**وإنّ كلّ ذلك لّما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربّك للمتّقين**»[٣].

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «**إنّما العاقل من آمن بالله وصدّق رسله وعمل بطاعته**»[٤].

فبعد أن تبيّن لنا أنّ القوى الثلاث الشهوية والغضبية والوهمية لا تميّز مفسدة من مصلحة ولا حلالاً عن حرام ولا ما يبعد عن الله تعالى ولا ما يقرب إليه عز وجل، احتاج الإنسان إلى من يركن إليه في تحديد مصيره، فأوجد الله تعالى فيه القوّة العاقلة، وأوكل إليها القيام بهذا الدور المهمّ والخطير في مسيرة الإنسان نحو الحقّ تبارك وتعالى.

---

(١) المحجة البيضاء ١: ١٧٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣)المحجة البيضاء ١: ١٧٩.

(٤) المصدر السابق.

إلاّ إذا صارت هذه القوّة العاقلة أسيرة عند إحدى القوى الثلاث السابقة فإنّها ستتصرّف حينئذ على خلاف مقتضى طبيعتها الأصيلة؛ من قبيل الأسير الذي يجبر على ما يقوم به.

غير أنّ هذه القوّة العاقلة ـ وفي الأعم الأغلب ـ حينما تجد نفسها لا تطاع في مملكة البدن تهاجر منه ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّـالِمِ أَهْلُهَـا**﴾[1]، فتصبح تلك المملكة بعد ذلك حاوية لكل الوسائل والإمكانات إلاّ العقل المدبّر الذي يخاف الله ويخشاه؛ ولذا فهي تحرق وتفسد وتدمّر كلّ شيء وتفعل ما تشاء بلا خوف أو حياء «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[2].

تتمّة في بحث الوصف الذي يلحق بقوى النفس الإنسانية المختلفة

توصف القوّة العاقلة عادة بالملكية، والشهوية بالبهيمية، والغضبية بالسبعية، والواهمة بالشيطانية، غير أنّ هذا لا يعني أنّ هذه الصفات هي صفات دائمية لها بحيث لا تنفك عنها.

بيان ذلك: أنّ الموجودات ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ـ على أقسام، اختص قسم منها بالقوّة البهيمية فلا همّ له إلاّ المأكل والمشرب «**من كانت همّته ما يدخل بطنه كانت قيمته ما يخرج منها**»[3]، وعلى هذا فوصف القوّة الشهوية لدى الإنسان بالبهيمية لا يعنون به أينما وجدت هذه القوّة وفي أي إنسان كان، بل يعنون بهذا الوصف من انقاد من البشر لشهوته وكانت عاقلته أسيرة لشهوته وتحت إمرتها،

---

(١) النساء: ٧٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق، انتشارات جهان، طهران: ٥٦ / ٢٠٧.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٤٣٩ / ٨٩٢٩.

فإنّه ينتهي في الوجود إلى مرتبة هذا القسم، وهي مرتبة البهائم التي تسود فيها قوّة الشهوة بل هو أضلّ سبيلاً ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1]. أمّا لو كانت قوّته الشهوية تحت إمرة القوّة العاقلة فإنّها سوف تقوده إلى مرتبة القرب الإلهي وسوف تتحوّل إلى قوّة إلهية وباب من الأبواب إلى الجنّة.

وهكذا في القوّة الغضبية، فإنّ السباع تسود فيها القوّة الغضبية، فلو انقادت سائر قوى الإنسان لقوّته الغضبية وكانت هي الأمير والحاكم فإنّها سوف توصف بالسبعية لأنّها سوف تحوّل الإنسان إلى حيوان ضار بل أضلّ سبيلا لأنّه يمتلك ما لا تملكه السباع من الوسائل والإمكانات كالعقل والقوّة والوهمية وغيرهما، والتي يجعلها في خدمة هذه القوّة.

وهناك قسم آخر من الموجودات تسود فيه الحيلة والتلبيس وإيجاد الوسائل والطرق لتحقيق الأغراض المنحرفة وهي ما عبّر عنها القرآن الكريم بالشياطين، سواء كانوا من الإنس أو الجنّ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[2].

فإذا سادت هذه القوّة الوهمية في إنسان ما وتحكّمت فيه، فإنّها سوف تنسب إلى الشياطين ويقال عنها بأنّها شيطانية تبعاً للموجودات التي تسود وتختص بها، ويتحوّل الإنسان حينذاك إلى شيطان إنسي والعياذ بالله.

وهناك قسم رابع من الموجودات وهي الملائكة التي تختص بقوّة العقل التي تدعو إلى عالم القدس والطهارة والملكوت وعالم القرب الإلهي، ولذا

---

(١) الفرقان: ٤٤.

(٢) الأنعام: ١١٢.

توصف بأنّها ملكية. ولكن ليس كلّ عقل فهو ملكي، فقد يكون العقل في خدمة الوهم أو خدمة القوّة الغضبية أو الشهوية، فما نعنيه بالقوّة العقلية الملكية هي القوّة الداعية إلى عالم القدس والملكوت فقط دون غيرها.

وقوع النزاع بين قوى النفس المختلفة وقيام الجهاد الأكبر

تتحرّك كلّ قوّة من قوى الإنسان المختلفة نحو كمالها فتطلبه، وتعمل ما في وسعها من أجل الوصول إليه. فكمال الشهوية[1] بكثرة الأكل والجنس وعبادة الفرج والبطن، وبكمالها وتحكمها يتحوّل وجود الإنسان إلى وجود بهيمي، وكمال الغضبية في مهاجمة وإيذاء وتدمير غيرها بأشدّ صورة وأقساها، وبسيطرتها وكمالها يتحوّل وجود الإنسان إلى وجود سبعيّ ضار. وكمال الوهمية في حبْك حيلها وإحكام طرق تلبيسها على الآخرين، وبكمالها وهيمنتها يتحوّل وجود الإنسان إلى وجود شيطاني. وكمال العاقلة في قيادة الجميع في طريق التكامل والقرب الإلهي وخدمة الدين والسلوك بالإنسان في طريق القدس والملكوت والطهارة، وبكمالها يتحوّل الإنسان إلى وجود ملكي.

ومن هنا كان لابدّ من وقوع التنازع والتناحر بين هذه القوى الأربع المختلفة داخل هذه المملكة الصغيرة «أتزعم أنّك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر». فإذا وقع التنازع والتناحر احتاج كل طرف إلى وسائل وأدوات وجنود لهذا النزاع، واحتيج إلى حَكَم يحكم بين المتنازعين ويفصل بينهم، وعلى هذا ورد في الرواية

---

(١) لابدّ من التنبيه هنا إلى أنّ مجرّد صدور العمل من الإنسان لا يجعل وجوده مصطبغاً بصبغة ذلك العمل بل لابدّ من تكرّر ذلك بحيث يثبت له ويتحوّل من «الحال» إلى «الملكة» ومن «الملكة» إلى «الاتحاد» ليصح وصف وجوده بعد ذلك بصفة ذلك العمل الملكي أو الشيطاني أو البهيمي أو السبعي.

أنّ الله تعالى أعطى للعقل جنوداً منه وترك القوى الأخرى تستنجد بجنود الجهل والشيطان؛ لتقع المعركة بعد ذلك بين جنود الرحمن وجنود الشيطان، وليوصف هذا الجهاد بالجهاد الأكبر قبال الجهاد ضد العدو الخارجي الذي يوصف بالجهاد الأصغر.

الجهاد الأكبر وحشر الإنسان يوم القيامة

إنّ أهم نتيجة لمعركة الإنسان مع نفسه وجهاده الأكبر هو تحديدها لموقع الإنسان يوم القيامة وتحديدها للكيفية التي يحشر عليها.

فإنّ الواقع الذي يصل إليه الإنسان يوم القيامة ما هو إلاّ نتاج عمله ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾[1].

وإنّ الواقع الذي ينتظرنا، أنا وأنت، في ذلك اليوم العصيب ليس مفروضاً علينا ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[2] بل نحن الذي نبنيه ونضع لبناته لبنة فوق أُخرى لنلاقي بعد ذلك ربّنا في الموقع الذي يعيّنه عملنا لنا[3] ﴿**يا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾[4] فإن حسن عملنا وطاب لقيناه في الجنّة وإلاّ ففي النار ـ والعياذ بالله ـ فكما أنّه خالق الجنّة فهو خالق النار، وكما هو غفور رحيم فهو شديد العقاب، وأينما نكون فإننا سائرون باتجاه ملاقاته عز وجل.

كما أنّ الصورة التي يحشر عليها الإنسان يوم القيامة تنسجم مع إحدى

---

(١) النجم: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) الإنسان: ٣.

(٣) فقد بيّنا في القوانين السابقة أنّ العمل هو الذي يعيّن الرابطة مع الواقع الخارجي.

(٤) الانشقاق: ٦.

القوى الأربع الموجودة فيه والتي خرجت منتصرة من خلال جهاده الأكبر، وبها يكون النوع الإنساني نوعاً متوسّطاً تحته أنواع أخرى في النشأة الأخرى.

توضيح ذلك: أننا نعرف أنّ الإنسان في الحياة الدنيا هو آخرالأنواع التي تذكر في تعريفه حسب التسلسل المنطقي وليس تحته إلاّ الافراد، أما في الحياة الأُخرى فإنّ الصورة التي يحشر عليها إنّما تنسجم مع القوّة الملكية أو الشهوية أو الغضبية أو الوهمية التي لها وجودات تمثّلها في الواقع الخارجي من ملائكة أو خنازير أو حيوانات ضارية أو شياطين.

فهناك ـ إذن ـ أنواع أخرى غير نوع الإنسان يتمثّل بها يوم القيامة حسب عمله فهو نوع تحته أنواع، وهذه الحقيقة هي ما أشارت إليها الآية الكريمة ﴿**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾[1] فهؤلاء المحشرون كانوا أناسي في الحياة الدنيا وتحوّلوا إلى وحوش في النشأة الأُخرى ،وإلاّ فإنّ الوحوش بما هي وحوش لا علاقة لها بيوم الدين والحساب والجزاء والثواب والعقاب لأنّها لم تكلّف حتّى تحاسب، ولعلّ للوحوش حشر ولكنّها لا تحشر للجزاء المتعارف وإن كان ثمة جزاء فهو من نوع آخر.

نفس الإنسان تحاسبه يوم القيامة

يتصوّر بعض من لا معرفة له بهذه المعارف الإلهية أنّ الموقف في يوم القيامة بحاجة إلى شرطة ومحاسبين يحاسبون الإنسان، والحقّ أنّ الإنسان نفسه هو الذي يحاسب نفسه في ذلك اليوم العظيم ﴿**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾[2].

---

(١) التكوير: ٥.

(٢) الإسراء: ١٣ ـ ١٤.

ثمّ إنّ الناس بعد ذلك على طائفتين هما:

طائفة لا يحاسبون أنفسهم إلاّ أن يؤتى بهم عند ميزان الحقّ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1]. وحينها يرون الحساب، وإذ يطّلع الخاسر على ما فرّط في جنب الله يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾[2].

وهناك طائفة عالمة عاقلة تحاسب نفسها قبل أن تحاسب في ذلك اليوم المهول وتزنها قبل أن يوزنوها بموازين القسط، فتتعرّف على البضاعة المفيدة الرابحة يوم القيامة فتكثر منها وتتجنّب ما فيه هلاكها وخسرانها، وتنال بذلك من الله تبارك وتعالى عطيّة الاستثناء من الحساب فتدخل الجنّة بغير حساب.

ولهذا ورد في الرواية «**موتوا قبل أن تموتوا**»[3] لأنّ الموت يظهر لنا حقائق الأشياء فنتعامل مع أنفسنا وكأننا متنا قبل أن يبعث بنا إلى ذلك الموت الجبري الذي لا رجعة منه فنقطع علائقنا عن هذه الدنيا وما فيها ونحاسب أنفسنا قبل يوم الحساب ونزنها قبل يوم الوزن والقسط، لنقارن بين أعمالنا الصالحة والطالحة، والحرام والحلال، لننجو بذلك من هول ذلك اليوم العظيم، ولنعمل هذا في الأسبوع مرّة واحدة إن صعب الأمر علينا كلّ يوم، ولتجدنّ ـ لعمري ـ كم فرّطنا وفرطتم في جنب الله، ولتذوقنّ طعم الرهبة والخوف، واليأس من النجاة لولا رحمة الله تبارك وتعالى، وما هذه الدعة والراحة التي نعيشها إلاّ لغفلتنا وعدم اهتمامنا بمحاسبة أنفسنا وتقييم أعمالنا.

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) البحار: ٧٢ / ٥٩.

شرح الرواية الشريفة

بعد ذكر النكات السابقة على نحو التمهيد، وبعد غضّ النظر عن ضعف سند الرواية وفق الموازين المشهورة لما لمضمونها من استفاضة في روايات أهل البيت عليهم السلام، نتعرّض لما ذكره الإمام الخميني قدس سره من شرح وبيان لها فقال: (**إنّ السرية قطعة من الجيش، ويقال خير السرايا أربعمائة رجل. وأمّا باقي مفردات الحديث فواضحة**) من حيث اللغة وإلاّ فإنّها وبحسب الواقع والمضمون تحتاج إلى أبحاث دقيقة ومهمّة.

ثم (**اعلم أنّ الإنسان أعجوبة**) ولهذا كثرت الأبحاث حول حقيقته وحول إمكانية معرفة هذه الحقيقة وعدمها، حتّى ذهب جملة من المحقّقين والأكابر إلى عدم إمكانية الوقوف على كنه وحقيقة النفس الإنسانية إلاّ لبارئها وخالقها تبارك وتعالى. غير أنّ ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه، ولهذا حاول جملة من علمائنا التطبيق بين هذه النسخة وهي «الإنسان» وبين كلّ عالم الإمكان بعوالمه المتعدّدة من عالم العقول إلى عالم المثال إلى عالم المادّة، فقالوا بوجود نموذج لكلّ عالم من تلك العوالم في هذا الإنسان، فهو محور عالم الإمكان وقطبه الذي يدور عليه «**خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي**»[1] فجميع الأشياء له وهو لله تبارك وتعالى.

وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾[2]، ثم قال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[3].

---

(١) الجواهر السنية، للحر العاملي، نشر «يس» : ٢٨٤ .

(٢) الجاثية : ١٣ .

(٣) الذاريات : ٥٦ .

(**وله نشأتان وعالمان**) إذ الموجودات ـ وكما يقول بعض المفسّرين ـ تنقسم إلى قسمين من حيث النشأة: فهي إمّا من قسم الموجودات المادية التي نراها والتي تكبر وتصغر وتأكل وتشرب وتحيا وتموت... وهذا القسم هو من عالم الخلق.

أو من القسم الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يكبر ولا يصغر ولا ينام ولا يستيقظ ولا يموت... وهو ما يعبّر عنه بالموجودات المجرّدة عن المادة، وهذا القسم هو من عالم «الأمر».

أمّا الإنسان فيجمع القسمين وله النشأتان (**نشأة ظاهرية ملكية**) أي في عالم الملك والشهادة والمادة (**وهي بدنه**).

وله أيضاً (**نشأة باطنية غيبية**) أي روحه التي تمثّل عالم الملكوت والباطن (**وهي من عالم آخر**) أي من عالم الأمر: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[1].

وهنا لابد من الإشارة إلى أنّ بحثنا وإن انصبّ على النشأة الإنسانية الغيبية ولكن ليس بإمكاننا إهمال النشأة الثانية المادية لأنّ البدن ـ وكما بيّنا سابقاً ـ هو مركب الوصول إلى القرب الإلهي و الكمالات المطلوبة.

والنفس والروح والقلب بمعنى واحد ، وإليه يرجع ضمير المتكلّم «أنا» لا إلى البدن بدلالة أنّ البدن يتغيّر وتتبدّل أجزاؤه كلّ فترة من الزمن ومع ذلك يبقى زيد زيداً، وعمرو عمراً، وأنا أنا، ولا نتبدّل بتبدّل خلايا بدننا، وبدلالة ما يراه الإنسان في نومه وما يقوم به من أفعال في نومه إذ ينسبه إليه مع أنّ بدنه لم يقم بأي عمل من تلك الأعمال وإنّما روحه ونفسه هي التي قامت بها، وبدلالة أنّ الموت لا

(١) الاسراء: ٨٥.

ينال إلاّ جسد الإنسان وبدنه، أمّا روحه فتنتقل من دار إلى دار فتحاسب هناك وتثاب أو تعاقب وهي التي ينالها الألم واللذّة لا الجسد وإن كنّا لا ننكر أنّ البدن يحشر أيضاً.

مقامات النفس ودرجاتها

وعلى كلّ حال ، فإنّ (**لنفس الإنسان ـ وهي من عالم الغيب والملكوت ـ مقامات ودرجات قسّموها بصورة عامّة إلى سبعة أقسام أحياناً**) وهي المعروفة والمشهورة بين العرفاء بالمقامات السبعة والتي تبدأ بالنفس والعقل والقلب والروح والسرّ والخفي والأخفى.

ويراد بـ«النفس» حبّ الدنيا وهي التي يكون جهاد الإنسان ضدّها هو «الجهاد الأكبر» على ما سنبيّنه لاحقاً ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد عبّر القرآن الكريم عنها بقوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**﴾[1].

ولسان حال النفس هذه هو قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا...** ﴾[2] إذ من يعيش مقام النفس وحبّ الدنيا لا يقول: ربّي آتني في الدنيا حسنة، بل يطلب منه تعالى أن يعطيه أيّاً ما كان نوع العطاء، حسنة أو سيئة، خيراً أو شرّاً، ولذا فإنّ مثل هذا الإنسان ﴿**مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾[3].

وأمّا مقام «العقل» فهو مقام ﴿**مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ**

(١) آل عمران: ١٤.
(٢) البقرة: ٢٠٠.
(٣) البقرة: ٢٠٠.

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

وأمّا مقام «القلب» فهو المقام الثالث ويعتبر أوّل مقام الإحسان ويعبّر عنه بمقام «كأنّ»، وقد سئل الرسول الأكرمﷺ ما الإحسان؟ فقالﷺ: «**أن تعبد الله كأنّك تراه**»[٢].

وفي رواية: أنّ الرسولﷺ صلّى بالناس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال رسول اللهﷺ: «**كيف أصبحت يا فلان؟**» قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول اللهﷺ من قوله، وقال: «**إنّ لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك**»؟ فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي خوّفني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب يوم الحشر وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون، على الأرائك متّكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون يصطرخون...

فقال رسول اللهﷺ: «**هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان**». ثمّ قال له: «**الزم ما أنت عليه**». فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك. فدعا رسول اللهﷺ فلم يلبث إلى أن خرج في بعض غزوات النبيﷺ فاستشهد بعد تسعة نفر فكان هو العاشر[٣].

وأمّا المقام الرابع فهو مقام «أنّ» وفيه أن تعبد الله لا «**كأنّك تراه**» تشبيهاً بل

---

(١) البقرة: ٢٠١.

(٢) صحيح البخاري، دار إحياء التراث، ١ / ٢٠.

(٣) أصول الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ٢: ٥٣ / ٢.

«إنّك تراه» تحقيقاً.

وإذا انتقل الإنسان إلى المقام الخامس فإنّه يصل إلى مقام «الفناء» عن الذات بحيث لا يرى «أناه» ولا يرى نفسه، ولسان حال هذه المرتبة: «**ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله ومعه وبعده**»[١].

ومن مواصفات الواصلين إلى هذه المرتبة أنّهم لا يختلفون فيما بينهم لأنّهم لا يرون إلاّ «هو» وهو «واحد» حيث انعدمت فيهم «الأنا» المتعدّدة التي تجرّ إلى النزاع والاختلاف ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾[٢] فما اختلف فيه فهو من عند غير الله تبارك وتعالى.

ثمّ ينتقل العبد الذي فنى ذاته إلى المرتبة «السادسة» التي لا تكون له فيها رؤية ولا سمع ولا يد ولا رجل بشرية وإنّما تكون كلّ هذه الوسائل والأدوات أدوات ووسائل إلهية، وهو ما يشير إليه الحديث «**وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وكنت بصره الذي يبصر به وكنت يده التي يبطش بها**»[٣]، وهكذا ورد: «**المؤمن ينظر بنور الله**»[٤] ونور الله لا يُخطى.

غير أنّ المقام السادس لا زال فيه شمة من «الأنا» وإن سما وعلا، وبانتقال العبد عنه ينتقل إلى مقام «الخاتمية» وهو مقام الولاية المطلقة، مقام «**وما يزال**

---

(١) شرح المنظومة ، قسم الحكمة، ج ١ / ٢، ص ٢٦٣ .

(٢) النساء: ٨٢.

(٣) رياض الصالحين للنووي، دار ابن زيدون، بيروت، ١٩٩٧ م ، ٦٣ / ٦٦ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ٢ : ٦١ / ٢٥٠ .

عبدي يتقرّب إليّ بالفرائض حتّى أحبّه فإذا أحببته صار سمعي و...».[١]

فالعبد في هذا المقام ارتقى وصعد وصار سمع الله ولسانه وعينه، وخرج من المحدودية إلى اللامحدودية لأنّه صعد من المتناهي إلى المطلق اللامتناهي، حتى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا عين الله ، و أنا جنب الله**»[٢].

وهناك تقسيمات أُخرى للنفس، أشار إليها الإمام قدس سره بقوله (**وإلى أربعة أقسام حيناً آخر**) وهي الحسّ والخيال والوهم والعقل، أو الإنسان المادي والمثالي والعقلي والإلهي، (**وحيناً إلى ثلاثة أقسام**) بإنكار الوهم باعتبار البحث فيه وهل هو قوّة مستقلّة أم هو العقل الساقط النازل عن مرتبته، (**وحيناً إلى قسمين**) قسم ظاهر وقسم باطن.

(**ولكلّ من المقامات والدرجات جنود رحمانية وعقلائية تجذب النفس نحو الملكوت الأعلى وتدعوها إلى السعادة وجنود شيطانية وجهلانية تجذب النفس نحو الملكوت السفلى وتدعوها للشقاء، ودائماً هناك جدال ونزاع بين هذين المعسكرين والإنسان هو ساحة حربهما**) وبإمكانه لامتلاكه الوسائل المطلوبة وحرية الإرادة والاختيار أن يصعد إلى الدرجات العليا، إلى درجات الجنّة أو يتسافل إلى دركات الجحيم (**فإذا تغلّبت جنود الرحمن كان الإنسان من أهل السعادة والرحمة وانخرط في سلك الملائكة وحشر في زمرة الأنبياء والأولياء والصالحين، وأمّا إذا تغلّبت جنود الشيطان ومعسكر الجهل كان الإنسان من أهل الشقاء والغضب وحشر في زمرة الشياطين والكفّار والمحرومين**).

---

(١) رياض الصالحين للنووي، ٦٣ / ٦٦ .

(٢) بحار الأنوار ٣٩: ٣٤٧.

وتفصيل هذا البحث سوف يأتي في فصل «صراع جنود الرحمن مع جنود الشياطين» لاحقاً.

ثمّ قال قدس سره: **(وحيث إنّ هذه الأوراق ليست محلاً للتفصيل؛ لذلك أشير هنا بصورة إجمالية إلى مقامات النفس وأوجه سعادتها وتعاستها وأوضّح كيفية مجاهدة النفس إن شاء الله)**.

ما هو المراد من العقل والنفس والروح والقلب؟

وقبل الدخول في بيان الفصول المرتبطة بالمقام الأوّل، نتعرّض إلى ألفاظ أربعة دائمة الذكر وهي: «العقل والنفس والروح والقلب» لنبيّن ما هو المراد منها:

أمّا العقل: فقد تعرّضنا لبيانه في مواطن عديدة سابقة، فراجع.

وأمّا النفس والقلب والروح: فهي كلمات ثلاث تشير إلى مراتب متعدّدة حسب اصطلاحات العرفاء:

فالنفس: تشير إلى عالم الخيال.

والقلب: يُشير إلى مقام التفصيل.

والروح: تشير إلى مقام الإجمال والبساطة.

وأمّا في علم «الأخلاق» فإنّ مرادهم بهذه الألفاظ والأسماء الثلاثة مسمّى واحد وحقيقة واحدة، وهي تلك الحقيقة التي وراء البدن والتي يعبّر عنها بـ«الأنا» وقد تعرّف بأنّها تلك اللطيفة الربّانية التي قال عنها القرآن الكريم ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن**

رُوحِي﴾[١] وأنّها ذلك الخلق الآخر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةَ مِّن طِين. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَار مَّكِين. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٢].

قال في الميزان:

«فهذا ـ على ما يظهر ـ هو السبب في إسنادهم الإدراك والشعور، وما لا يخلو عن شوب إدراك، مثل الحبّ والبغض والرجاء والخوف والقصد والحسد والعفّة والشجاعة والجرأة ونحو ذلك إلى القلب، ومرادهم به الروح المتعلّقة بالبدن أو السارية فيه بواسطته، فينسبونها إليه كما ينسبونها إلى الروح وكما ينسبونها إلى أنفسهم، يقال: أحببته وأحبّته روحي وأحبّه نفسي وأحبّه قلبي»[٣].

ولهذه الحقيقة المعبّر عنها بألفاظ ثلاثة مراتب متعدّدة هي العاقلة والوهمية والشهوية والغضبية.

أي نفس عدوّةٌ للإنسان؟

ولابد من التنبيه هنا إلى أنّ النفس التي قيل عنها بأنّها «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**»[٤] هي غير هذه النفس التي عرّفناها سابقاً؛ لاشتمال الأخيرة على القوّة العاقلة، إنّما المراد من النفس التي هي عدوّة للإنسان تلك التي تشتمل على

---

(١) سورة ص: ٧٢.

(٢) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٢٢٥.

(٤) عوالي اللآلي، لابن أبي الجمهور الإحسائي، تحقيق ونشر مجتبى العراقي ـ قم، ١٤٠٥ هـ.، ٤: ١١٨ / ١٨٧.

القوّة الشهوية والغضبية فقط والتي لسان حالها : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[1] ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاق﴾[2].

وعلى هذا فإننا نستعين بالقوّة العاقلة التي تتضمّنها النفس بالمعنى الأوّل في «جهادنا الأكبر» ضد النفس التي هي عدوّة للإنسان.

والخلاصة أنّ في النفس اصطلاحين:

الأوّل: بمعنى حقيقة الإنسان، ولا معنى لأن تكون هذه النفس عدوّة الإنسان لأنّها حقيقته.

الثاني: بمعنى قوّة الشهوة والغضب وهي النفس المذمومة التي تدعو إلى الاكتفاء بالدنيا فتصبح عدوّته ويكون جهاده الأكبر معها.

ثمّ ننتقل بعد هذا التنبيه إلى مقامات النفس فنقول:

---

(١) آل عمران : ١٤ .

(٢) البقرة: ٢٠٠.

المقام الأوّل

وفيه عدّة فصول؛ أولها

إشارة إلى المقام الأوّل للنفس

(اعلم أنّ مقام النفس الأوّل ومنزلها الأسفل هو منزل الملك والظاهر وعالمها) والنفس هنا هي بمعنى حبّ الشهوات التي يجب جهادها. ومقامها الأوّل هو هذا «البدن» الذي فيه الشهوة والغضب، ولسان حاله ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[1] **(وفي هذا المقام تتألّق الأشعة والأنوار الغيبية)** فنجدها **(في هذا الجسد المادّي والهيكل الظاهري وتمنحه الحياة العرضية)** فهي مدبرة له، وهو يحس ويحيا بها، فإذا خرجت منه فقدَ الحسّ والحياة، فحياته إذن عرضية لا ذاتية لأنّ الحياة الذاتية للنفس لا للبدن، فهي تمنحه الحياة **(وتجهز فيه الجيوش فكان ميدان المعركة هو نفس الجسد، وجنوده هي قواه الظاهرية التي وجدت في الأقاليم المُلكية السبعة)** لا المَلكية **(يعني: الأذن والعين واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وجميع هذه القوى المتوزّعة في تلك الأقاليم السبعة هي تحت تصرّف النفس)** ولكن النفس وفي مرحلتها العاقلة لا تدرك إلاّ الكلّيات ولابدّ لها من الاستعانة **(في مقام الوهم)** لإدراك الجزئيات **(فالوهم سلطان جميع القوى الظاهرية والباطنية للنفس فإذا تحكّم الوهم على تلك القوى ـ سواء بذاته مستقلاً أو بتدخّل الشيطان ـ جعلها ـ أي تلك القوى ـ جنوداً للشيطان)** فيكون هذا الإنسان حقيقة شيطاناً ومن وسائله وجنوده.

والروايات في هذا المعنى كثيرة جدّاً، قال أمير المؤمنين (عليه السلام):

---

(١) آل عمران: ١٤.

«**اتخذوا الشيطان لأمرهم مِلاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبَّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزيّن لهم الخطل، فعْل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه**»[1].

(**وبذلك يجعل هذه المملكة تحت سلطان الشيطان وتضمحل عندها جنود الرحمن والعقل**). غير أنّ جنود الرحمن لا يتركون المعركة مباشرة بل يقاومون ما دام هناك مجال للمقاومة، فتبدأ العاقلة بلوم الإنسان على ما يفعله من أمور تقوده إلى نار جهنّم وإلى الهلكة. وهذه هي «النفس اللوامة» فإذا تأمّرت العاقلة اطمأنت النفس ورجعت إلى ربّها راضية مرضية، وإذا خرجت العاقلة منهزمة من النفس صارت النفس «أمارة بالسوء» وحينها تنتهي مقاومة جنود الرحمن (**وتنهزم وتخرج من نشأة الملك وعالم الإنسان وتهاجر عنه وتصبح هذه المملكة خاصة بالشيطان**) فيرتع فيها ويلعب؛ وهو الذي أقسم منذ الأزل على أن يكون عدوّاً للإنسان وأن يجري منه مجرى الدم من العروق ليخرجه من رحمة ربّه إلى مواطن عقابه وعذابه (**وأمّا إذا خضع الوهم لحكم العقل والشرع وكانت حركاته وسكناته مقيّدة بالنظام والعقل والشرع**) فإنّ القوّة الواهمة سوف تكون مؤتمرة للعاقلة وتتحوّل هذه الجنود كلّها إلى جنود الرحمن (**فقد أصبحت هذه المملكة مملكة روحانية وعقلانية ولم يجد الشيطان وجنوده محطّ قدم لهم فيها**).

وهناك استفادة لطيفة يذكرها شيخنا وأستاذنا الشيخ حسن زاده آملي تتعلّق بهذه القوى، حيث يقول: إنّ أبواب الجنّة ثمانية وأبواب الجحيم سبعة، وإنّ حواس الإنسان الظاهرية خمسة، وبإضافة الخيال والوهم تصبح سبعة، فإذا ائتمرت هذه

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٧.

القوى السبعة بالقوّة العاقلة أصبحت أبواب الجنّة الثمانية، وإن لم تأتمر بقوّة العقل فهي أبواب الجحيم السبعة. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَاب لِّكُلِّ بَاب مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[1].

وهناك العديد من الروايات التي تبيّن هذا المعنى، فمما ورد في عدد أبواب الجنّة ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّ للجنّة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون وباب يدخل منه الشهداء والصالحون وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّي سلِّم شيعتي ومحبّي وأنصاري ومن تولاّني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش قد أُجيبت دعوتك وشفعت في شيعتك ويشفع كلّ رجل من شيعتي ومن تولاّني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألف من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلاّ الله ولم يكن في قلبه مثقال ذرّة من بغضنا أهل البيت**»[2]

ولا يذهب بك الظنّ إلى أنّ كلّ من ادّعى التشيّع فهو شيعيّ حقّاً، بل الشيعي هو من انطبقت عليه الصفات التي ذكرها أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم الحقّة.

أمّا الرواية التي أشارت إلى أنّ أبواب الجحيم سبعة، فعن أنس بن مالك، قال:

«**جاء جبرائيل إلى النبي صلى الله عليه وآله في ساعة ما كان يأتيه فيها متغيّر اللون، فقال النبي: مالي أراك متغيّر اللون؟ فقال: يا محمّد جئتك في الساعة التي أمر الله تعالى بمنافخ النار أن ينفخ فيها ولا ينبغي لمن يعلم أنّ جهنّم حقّ وأنّ عذاب الله أكبر**

(١) الحجر: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) علم اليقين، للفيض الكاشاني، ج٢، ص١٠١٦.

أن يقرّ عينه حتّى يأمنها، فقال النبيﷺ صف لي النار يا جبرائيل فقال: نعم يا محمّد ـ صلّى الله عليك ـ إنّ الله تعالى لمّا خلق جهنّم أوقد عليها ألف سنة فاحمرّت ثمّ أوقد عليها ألف سنة فابيضّت ثمّ أوقد عليها ألف سنة فاسودّت فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا حمرتها

ـ إلى أن قال ـ: لها سبعة أبواب لكلّ باب منها جزء مقسوم، فقال النبيﷺ لجبرائيل: أهي كأبوابنا هذه؟ فقال: لا ولكنّها مفتوحة بعضها أسفل من بعض، من باب إلى باب مسيرة سبعين سنة، كلّ باب منها أشدّ حرّاً من الذي يليه سبعين ضعفاً، يساق أعداء الله إليها، فإذا انتهوا إلى أبوابها استقبلتهم الزبانية بالأغلال والسلاسل فتسلك السلسلة في فيه وتخرج من دبره وتغلّ يده اليسرى إلى عنقه وتدخل يده اليمنى في فؤاده وتنزع من بين كتفيه ويُشد بالسلاسل ويقرن كلّ آدمي مع شيطان في سلسلة ويسحب على وجهه فتضربه الملائكة بمقامع من حديد ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾[1].

فقال النبيّ: من سكّان هذه الأبواب؟ قال: فأمّا الباب الأسفل ففيه المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون، واسمها الهاوية، والباب الثاني ففيه المشركون واسمه الجحيم، والباب الثالث ففيه الصابئون واسمه سقر، والباب الرابع ففيه إبليس ومن تبعه من المجوس واسمه لظى، والباب الخامس ففيه اليهود واسمه الحطمة، والباب السادس ففيه النصارى واسمه السعير.

ثمّ أمسك جبرائيلعليه السلام، فقال النبيﷺ: ألا تخبرني من سكّان الباب السابع؟

---

(١) الحج: ٢٢.

فقال: يا محمّدﷺ لا تسألني عنه، فقال: بلى يا جبرائيل أخبرني عن الباب السابع! فقال: فيه أهل الكبائر من أمّتك الذين ماتوا ولم يتوبوا، فخرّ النبيّﷺ مغشيّاً عليه، فوضع جبرائيلعليه السلام رأسهﷺ في حجره حتّى أفاق، فلمّا أفاق قال: يا جبرائيل عظمت مصيبتي واشتدّ حزني أوَيدخل من أمّتي النار؟ قال: نعم أهل الكبائر من أمّتك.. ثمّ بكى رسول اللهﷺ وبكى جبرائيل ودخل رسول اللهﷺ منزله واحتجب عن الناس. فكان لا يخرج إلاّ إلى الصلاة، يصلّي ويدخل ولا يكلّم أحداً ويأخذ في الصلاة ويبكي ويتضرّع إلى الله تعالى.

إلى أن تقول الرواية: وأقبل سلمان الفارسي فوقف بالباب فقال: السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة، هل إلى مولاي رسول اللهﷺ من سبيل؟ فلم يجبه أحد. فأقبل مرّة يبكي ويقع مرّة ويقوم أخرى حتّى أتى بيت فاطمة (سلام الله عليها) فوقف بالباب ثمّ قال: السلام عليكم يا أهل بيت المصطفى، وكان علي غائباً فقال سلمان: يا بنت رسول الله إنّ رسول الله احتجب عن الناس فليس يخرج إلاّ للصلاة ولا يكلّم أحداً ولا يأذن لأحد أن يدخل عليه. فاشتملت فاطمة بعباءة قطرانية وأقبلت حتّى وقفت على باب رسول اللهﷺ ثمّ سلّمت وقالت: يا رسول الله أنا فاطمة، ورسول الله ساجد يبكي، فرفع رأسه فقال: ما بال قرّة عينيّ فاطمة حُجبت عنّي، افتحوا لها الباب، ففتح الباب، فلما نظرت إلى النبي بكت بكاء شديداً لما رأت من حاله مصفرّاً متغيّراً لونه مذاب لحم وجهه من البكاء والحزن، فقالت: يا رسول الله ما الذي نزل عليك؟ فقال النبي: جاءني جبرائيل ووصف لي أبواب جهنّم وأخبرني بأنّ في أعلى بابها أهل الكبائر من أمّتي، فذلك الذي أبكاني وأحزنني. قالت: يا رسول الله أولم تسأله كيف يدخلونها؟ قال: تسوقهم الملائكة إلى النار لا تسودّ وجوههم ولا تزرقّ عيونهم

ولا يختم على أفواههم ولا يقرنون مع الشياطين ولا يوضع عليهم السلاسل والأغلال. قالت: يا رسول الله: كيف تقودهم الملائكة؟ قال صلى الله عليه وآله: أمّا الرجال فباللحى، وأمّا النساء فبالذوائب والنواصي، فكم من ذي شيبة من أمّتي قد قبض على شيبته يقاد إلى النار وهو ينادي واشيبتاه واضعفاه، وكم من شابّ من أمّتي يقبض على لحيته يقاد إلى النار وهو ينادي واشباباه واحسن صورتاه، وكم من امرأة من أمّتي تقبض على ناصيتها تقاد إلى النار وهي تنادي وافضيحتاه واهتك ستراه حتّى ينتهى بهم إلى مالك، فإذا نظر إليهم مالك قال للملائكة: ما هؤلاء؟ فما ورد عليَّ من الأشقياء أعجب من هؤلاء لم تسودّ وجوههم ولم توضع السلاسل والأغلال في أعناقهم، فيقول الملائكة: هكذا أمرنا أن نأتيك بهم على هذه الحالة، فيقول لهم: يا معشر الأشقياء من أنتم؟ فيقولون: نحن ممّن أُنزل علينا القرآن ونحن ممّن نصوم شهر رمضان، فيقول مالك: ما نزل القرآن إلاّ على محمّد صلى الله عليه وآله فإذا سمعوا اسم محمّد صاحوا فقالوا: نعم نحن من أمّة محمّد صلى الله عليه وآله ، فيقول لهم مالك: ما كان لكم في القرآن زاجر عن معاصي الله؟ فإذا وقف بهم على شفير جهنّم ونظروا إلى النار وإلى الزبانية، فقالوا: يا مالك ائذن لنا نبكي على أنفسنا، فيبكون الدموع حتّى لم يبق لهم الدموع فيبكون دماً، فيقول مالك: ما أحسن هذا لو كان في الدنيا فلو كان هذا البكاء في الدنيا، من خشية الله تعالى ما مسّكم النار اليوم. فيقول مالك للزبانية: القوهم في النار! فنادوا بأجمعهم: لا إله إلاّ الله فترجع عنهم النار! فيقول مالك: يا نار خذيهم! فتقول النار: وكيف آخذهم وهم يقولون لا إله إلاّ الله؟ فيقول مالك: نعم، بذلك أمر ربّ العرش، فتأخذهم، فمنهم من تأخذه إلى قدميه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ومنهم من تأخذه إلى حلقه، قال: فإذا أهوت النار إلى وجهه قال مالك: لا تحرقي وجوههم فطالما سجدوا للرحمن في الدنيا ولا تحرقي قلوبهم فطالما عطشوا في شهر رمضان فيبقون

ما شاء الله فيها فينادون يا أرحم الراحمين يا حنّان يا منّان، فإذا أنفذ الله ـ تعالى ـ حكمه قال: يا جبرائيل ما فعل العاصون من أمّة محمّد صلى الله عليه وآله ، فيقول: إلهي أنت أعلم بهم، فيقول: انطلق فانظر ما حالهم، فينطلق جبرائيل إلى مالك وهو على سرير من نار في وسط جهنّم، فإذا نظر مالك إلى جبرائيل قام تعظيماً له، فيقول: يا جبرائيل ما أدخلك هذا الموضع؟ فيقول: ما فعلت العصابة العاصية من أمّة محمّد صلى الله عليه وآله فيقول مالك: ما أسوأ حالهم وأضيق مكانهم قد أحرقت النار أجسامهم وأكلت لحومهم وبقيت وجوههم وقلوبهم يتلألأ فيها الإيمان. فيقول جبرائيل: ارفع الطبق عنهم حتّى أنظر إليهم. قال: فيأمر مالك الخزنة فيرفعون الطبق فإذا نظروا إلى جبرائيل وإلى حسن خلقه علموا أنّه ليس من ملائكة العذاب، فيقولون: من هذا العبد الذي لم نرَ شيئاً قط أحسن وجهاً منه؟ فيقول مالك: هذا جبرائيل الكريم على الله تعالى الذي كان يأتي محمّداً بالوحي، فإذا سمعوا بذكر محمّد صاحوا بأجمعهم وقالوا: يا جبرائيل اقرأ محمّداً منّا السلام وأخبره أنّ معاصينا فرّقت بيننا وبينك وأخبره بسوء حالنا، فينطلق جبرائيل حتّى يقوم بين يدي الله تعالى فيقول الله عز وجل: كيف رأيت أمّة محمّد صلى الله عليه وآله ؟ فيقول: يا ربّ ما أشدّ حالهم وأضيق مكانهم، فيقول: هل سألوك شيئاً؟ فيقول: نعم ياربّ، سألوني أن أقرأ على نبيّهم السلام وأخبره بسوء حالهم، فيقول الله جل جلاله: انطلق وأبلغه، فيدخل جبرائيل على النبي وهو في خيمة من درّة بيضاء لها أربعة آلاف باب ولها مصراعان من ذهب، فيقول: يا محمّد جئتك من عند العصابة العصاة من أمّتك يُعذّبون بالنار وهم يقرئونك السلام ويقولون: ما أسوأ حالنا وأضيق مكاننا. فيأتي النبي عند العرش فيخرّ ساجداً ويثني على الله ثناءً لم يثنه أحد مثله، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك واسأل تعط واشفع تشفع، فيقول: يا ربّ، الأشقياء من أمّتي قد أنفذت فيهم حكمك. فيقول الله عز وجل: قد شفعتك فيهم، فأتِ النار وأخرج منها

من قال «لا إله إلاّالله» فينطلق النبي فإذا نظر مالك إلى محمد قام تعظيماً له، فيقول: يا مالك ما حال أُمّتي من الأشقياء؟ فيقول مالك: ما أسوأ حالهم وأضيق مكانهم. فيقول النبي: افتح الباب وارفع الطبق، فإذا نظر أهل النار إلى محمد صاحوا بأجمعهم، فيقولون: قد أحرقت النار جلودنا وأحرقت أكبادنا ويخرجهم جميعاً وقد صاروا فحماً قد أكلتهم النار، فينطلق بهم إلى نهر في باب الجنّة يسمّى الحيوان فيغتسلون فيه فيخرجون منه شباباً جرداً مرداً مكحّلين وجوههم مثل القمر مكتوب على جباههم جهنّميون عتقاء الرحمن من النار. فيدخلون الجنّة فإذا رأى أهل النار أنّ المسلمين قد أُخرجوا منها قالوا: يا ليتنا كنّا مسلمين وكنّا نخرج من النار وهو قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[1]»[2].

إنّ الرواية، بالإضافة إلى ذكرها لأبواب جهنّم السبعة وسكّانها فإنّ فيها نكات مهمّة لابدّ من التنبيه إلى بعضها:

منها: أنّها وصفت حال رسول الله صلى الله عليه وآله حينما سمع بخبر ما يجري على أمّته حيث أُغشي عليه صلى الله عليه وآله من فرط حزنه وبكائه علينا، فواعجباه من غفلتنا التي لا نستفيق منها ومن جرأتنا على ارتكاب الكبائر ليل نهار وكأنّ الأمر لا يعنينا وكأنّها ليست السبب في هلاكنا ودخولنا نار جهنّم ـ والعياذ بالله ـ خصوصاً وإنّ كلّ ذنب نرتكبه على رأي بعض العلماء هو من الكبائر إذ لا صغيرة في الذنوب حين النظر إلى المعصي وهو جبّار السماوات والأرض، فكلّ ذنب يرتكب في ساحته كبير بالنسبة إليه عز وجل.

---

(١) الحجر: ٢.

(٢) علم اليقين، للفيض الكاشاني ٢: ١٢٦٧.

ومنها: أنّ كلّ أهل النار عندما يساقون إلى النار تسودّ وجوههم إلاّ أمّة محمّدﷺ الذين تشملهم شفاعة الرسولﷺ وأهل بيتهعليهم السلام.

وأنّ الذنوب تنسي صاحبها يوم القيامة اسم رسول اللهﷺوأنّ النار لا تأخذ إنساناً يقول: «لا إله إلاّ الله» ولا قدرة لها على حرق باطن التوحيد والولاية وإنّما تأخذ من نسي شهادة التوحيد ومن أمر الربّ بأن تأخذه النار وإن نطقها.

وأنّ أُمّة محمّدﷺ لا تخلد في النار بل يخرجون منها بعد أن يتطهّروا من الذنوب ومن الأعمال الخبيثة والملكات السيّئة وبعد أن ينفذ حكم الله تعالى فيهم لأنّ الجنّة دار طهر لا يدخلها نجس، غاية الأمر أنّ بعضهم يتطهّر في هذه الدنيا من خلال المصائب والأمراض والغربة والفقر وبعضهم يتطهّر من خلال عذاب البرزخ، وبعضهم يتطهّر في نار جهنّم هذه النار التي غُسلت سبعين مرّة ـ أو سبعين ألف مرّة ـ ثمّ أُنزلت إلى الأرض فكانت نارنا التي نعرفها في حياتنا الدنيا ولا نطيق حرارتها وآلام حريقها.

وعلى كلّ حال فإنّ بعضاً يبقى في تلك النار سنين متمادية من سنين الآخرة و﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1] لا من سني الدنيا إلى أن يطهر وحينها تشملهم رحمة الله (تعالى) وشفاعة الرسولﷺ وأهل بيتهعليهم السلام فيخرجون من جهنّم إلى الجنّة، وهم الجهنّميون عتقاء الرحمن.

ومنها: أنّ في الروايات قرائن كثيرة تدلّ على أنّها لأمثالنا الذين يصلّون ويصومون ويعبدون، وليست للفجرة والفسقة. ولا يظنّ أحد منّا أنّه بمنأى عنها وأنّها لا تشمله لأنّه يدّعي الولاية إذ الولاية بلا خوف من الله تعالى وبلا ورع وعمل

(١) الحج: ٤٧.

غير منجية، بل الإيمان مع العمل الصالح ومع الورع والتقوى يوصل الإنسان إلى ساحل النجاة.

ولا يتعارض هذا مع ما يستفاد من جملة من الروايات الأُخرى من أنّ الولاية والحبّ والارتباط بأهل البيت عليهم السلام أمر منج بنفسه، لأنّ الولاية المنجية في أحاديثهم عليهم السلام هي هذه الولاية الحقّة التي لا تنفك عن الورع والعمل، ولو انفكت عن الورع والعمل لما كانت الولاية المقصودة لهم عليهم السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**شيعتنا هم الشاحبون الذابلون الناحلون، الذين إذا جنّهم الليل استقبلوه بحزن**»[١].

وعن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه، عن جدّه، عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال لخيثمة: «**أبلغ شيعتنا أنّا لا نُغني عن الله شيئاً، وأبلغ شيعتنا أنّه لا ينال ما عند الله إلاّ بالعمل، وأبلغ شيعتنا أنّ أعظم الناس حسرة يوم القيامة، من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره، وأبلغ شيعتنا أنّهم إذا قاموا بما أُمروا أنّهم الفائزون يوم القيامة**»[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً قال: «**يا جابر! أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلاّ من اتّقى الله وأطاعه**».

إلى أن قال: «**فاتّقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله تعالى وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر: من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوٌّ، وما تنال ولايتنا إلاّ بالعمل والورع**»[٣].

---

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن وعلامته، الحديث ٧.
(٢) أمالي الطوسي ١ : ٣٨٠.
(٣) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى، الحديث ٦.

تعريف الجهاد الأكبر

(اذاً، فجهاد النفس «وهو الجهاد الاكبر الذي يعلو على القتل في سبيل الحق تعالى» هو في هذا المقام ـ أي مرتبة البدن ـ عبارة عن انتصار الإنسان على قواه الظاهرية وجعلها تأتمر بأمر الخالق، وتطهير المملكة من دنس وجود قوى الشيطان وجنوده).

سبب تسمية الجهاد مع العدو الخارجي بالأصغر ومع العدو الداخلي (أي النفس) بالأكبر

وللجواب عن هذا السؤال ذكرت وجوه عدة، نقتصر على ذكر وجهين منها فقط:

الوجه الأوّل: أنّ القوى الأربع الشهوية والغضبية والوهمية والعقلية تنوجد في الإنسان من خلال مراحل حياته لا دفعة واحدة فهو يمتلك الشهوية والغضبية ثمّ يحصل على الوهمية ثمّ بعد ذلك على العقلية، وفي الغالب أنّ الإنسان يصل إلى كمال القوّة العقلية عندما يبلغ الأربعين.

قال صدر المتألهين في الأسفار: «النفس الآدمية ما دام كون الجنين في الرحم درجتها درجة النفوس النباتية على مراتبها، وهي إنّما تحصل بعد تخطّي الطبيعة درجات للقوى الجمادية، فالجنين الإنساني نبات بالفعل، حيوان بالقوّة لا بالفعل، إذ لا حسّ له ولا حركة، وكونه حيواناً بالقوّة فصله المميّز عنه عن سائر النباتات الجاعل له نوعاً مبائناً للأنواع النباتية.

وإذا خرج الطفل من بطن أُمّه، صارت نفسه في درجة النفوس الحيوانية إلى

أوان البلوغ الصوري، والشخص حينئذ حيوان بشري بالفعل، إنسان نفساني بالقوّة، ثمّ تصير نفسه مدركة للأشياء بالفكر والروية مستعملة للعقل العملي. وهكذا إلى أوان البلوغ المعنوي والرشد الباطني باستحكام الملكات والأخلاق الباطنة، وذلك في حدود الأربعين غالباً، فهو في هذه المرتبة إنسان نفساني بالفعل، وإنسان ملكي أو شيطاني بالقوّة، يحشر في القيامة إمّا مع حزب الملائكة، وإمّا مع حزب الشياطين وجنودهم، فإن ساعده التوفيق وسلك مسلك الحق وصراط التوحيد، وكمل عقله بالعلم، وطهر عقله بالتجرّد عن الأجسام يصير ملكاً بالفعل من ملائكة الله الذين هم في صفة العالمين المقرّبين، وإن ضلّ عن سواء السبيل وسلك مسلك الضلال والجهّال يصير من جملة الشياطين، أو يحشر في زمرة البهائم والحشرات(١).

وهذا المعنى أشار إليه السبزواري في منظومته بقوله:

فالأربعون مـــدّة الأطوار   لخلقة الإنسان ذي الأسرار
كلّ من الأطوار فيه تجعل   والعقل أربعين عاماً يكملُ

وعلى هذا فإنّ القوّة العقلية حين تحصل في الإنسان تجد أنّ المناطق المهمّة من هذه المملكة قد احتلت من قبل القوى الثلاث السابقة عليها في الوجود ولذا تكون مهمّتها في الانتصار على باقي القوى صعبة وشاقّة وعسيرة، وهذا من قبيل الحرب الخارجية التي يسبق فيها أحد الأطراف إلى احتلال المناطق المهمّة والاستراتيجية ممّا يجعل مهمّة الطرف الآخر وعملية انتصاره عملية شاقّة وصعبة، ومن هنا وباعتبار هذه الحقيقة ـ وهي تأخّر وجود القوّة العقلية في الإنسان وصعوبة ومشقّة عملها ـ كان جهاد النفس هو الجهاد الأكبر.

---

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة ٨: ١٣٦.

الوجه الثاني: ويبتني على أنّ الجهاد الذي يخوضه الإنسان ـ غالباً ـ مع عدوّه الخارجي، هو جهاد مؤقت بوقت خاص وغير دائم من جهة، وأنّه يعرف فيه عدوّه وخصائصه ووسائله وجهة قدومه وهجومه من جهة أُخرى، أمّا في جهاد النفس فإنّه جهاد دائمي ما دام الإنسان حيّاً بل يشمل حتى حالة نومه فضلاً عن يقظته، فقد يرى الإنسان في منامه رؤى شيطانية ورحمانية فتعينه الشيطانية على الأعمال الطالحة والخبيثة، وتعينه الرحمانية على الأعمال الصالحة والطيبة، فهو في جهاد دائم مع نفسه.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فما أكثر الأُمور التي لا يعرفها الإنسان عن عدوه الداخلي هذا، وكم من الأسرار التي لا زالت خافية عنه، وعلى هذا يكون الجهاد مع النفس جهاداً أكبر ومع العدو الخارجي أصغر، ولذا نقرأ في المأثور: «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**».(١)

(١) عوالى اللآلي، ٤ : ١١٨ / ١٨٧ .

فصل

فـــي التفـكر

(اعلم أن أول شروط مجاهدة النفس والسير باتجاه الحق هو التفكر، وقد وضعه بعض علماء الأخلاق في بدايات الدرجة الخامسة، وهذا التصنيف صحيح أيضاً في محله). ويسبق «التفكر» الذي ابتدأ به الإمام الخميني (قدس سره) مراحل أربع في رتبة «البدايات» التي قلنا ـ فيما سبق ـ بأن لها عشرة مقامات أو منازل أو مراحل، وهذه الأربعة السابقة هي:

*اليقظة: وهي مرحلة الخلاص من الغفلة، وقد ورد: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[1] لأن الموت يوقظ الإنسان من الغفلة ﴿**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِن هَـذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[2] وعلى الإنسان أن يميت نفسه قبل أن يحلّ به الموت الذي لا مفرّ منه، «**موتوا قبل أن تموتوا**»[3] وذلك بأن يميت في نفسه الشهوات بأن يجعلها تحت إمرة الشرع والعقل، فإذا فعل ذلك واستيقظ من غفلته دخل في حصن ذكر اللّه المنيع واطمأن به ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[4] وأمن من شياطين الجن والإنس، بل ورد في الروايات أن الحيوانات لا تصطاد إلا إذا كانت في غفلة عن ذكر اللّه تبارك وتعالى ناهيك، عن الإنسان.

ولا يخطر على بال أحد بأن مرادنا من الذكر هنا هو الذكر اللساني فقط وإن

---

(١) عوالى اللآلي، ٤: ٧٣ / ٤٨.

(٢) ق: ٢٢.

(٣) البحار ٧٢: ٥٩.

(٤) الرعد: ٢٨.

كان هذا مرتبة من المراتب أيضاً بل لابد للقلب أيضاً أن يكون ذاكراً لله تبارك وتعالى حتى تتم اليقظة المطلوبة.

*التوبة: وهي المنزلة الثانية التي يصلها الإنسان بعد يقظته، ونعني بها الرجوع من المخالفة إلى الموافقة، من مخالفة اللّه عزّ وجلّ إلى موافقته سبحانه وتعالى.

*المحاسبة: وتلي منزلة التوبة، حيث يحاسب الإنسان نفسه على ما صدر منها، ليتهيأ بذلك إلى منزلة الإنابة.

* الإنابة: فبعد أن يحاسب الإنسان نفسه ينتقل إلى مرحلة الإنابة وفرقها عن التوبة أن الإنسان بتوبته يرجع من المخالفة إلى الموافقة، وفي الإنابة يرجع من الموافقة إلى الله سبحانه وتعالى ﴿**كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ**﴾[1].

*التفكر: وفي هذه المنزلة عدة بحوث:

البحث الأول: في أهمية التفكر

وهناك مجموعة من الروايات الشريفة تبين أهمية التفكر؛ منها:

الأُولى: عن عطاء قال: انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة وبيننا وبينها حجاب... إلى أن قال: فقال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول اللّهﷺ، قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلة...إلى أن تقول الرواية: قالﷺ: «**ذريني أتعبد لربي عزّ وجلّ**» فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام

(١) الصف: ١٤.

يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد حتى بلّ الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يارسول اللّه ما يبكيك وقد غفر اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**ويحك يابلال مايمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَات لأُولِي الأَلْبَابِ﴾**[1]»[2].

الثانية: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**الفكر يدعو إلى البر والعمل به**»[3].

الثالثة: وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: «**نبّه بالتفكر قلبك، وجافِ عن الليل جنبك، واتقِ الله ربك**»[4].

البحث الثاني: في حقيقة التفكر وكيفية حصوله

إذا أراد الإنسان أن يتفكر فلابد له من رأسمال علمي يستند عليه في تفكيره، لأنه يحتاج إليه كحاجة التاجر إلى الرأسمال التجاري لكي يزاول عمله في السوق.

وكما أن هناك كثيراً ممن يمتلك الرأسمال التجاري ولا يتاجر فيه، فإن هناك الكثير ممن يمتلك الرأسمال العلمي ولا يستفيد منه، ومن هنا جاء الحث على التفكر وبيان أهميته وحاجة الإنسان إليه، وكيف يمكن للإنسان أن يتفكر بالطريقة الصحيحة والمثمرة مستغلاً ما لديه من معارف وعلوم.

---

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني ٨: ١٩٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

كيف يفكر الإنسان؟

بعد حصول العلم لدى الإنسان، كعلمه بالمعاد والآخرة مثلاً، يبدأ عملية تفكيره من خلال ترتيب مقدمات:

المقدمة الأُولى: وهي أن يسأل نفسه هل الآخرة أدوم وجوداً أم الدنيا؟ وليس المرء بحاجة إلى أن يكون عالماً كبيراً حتى يعرف أن الآخرة هي الأدوم والأبقى، بشهادة مايراه من محدودية هذه الدنيا وانتهائها.

المقدمة الثانية: وهي أن يسأل نفسه إذا دار الأمر بين اختيار الأبقى وجوداً وغيره، أيهما يختار ويقدم، وأيهما يترك ويؤخر؟

النتيجة: ثم إن الإنسان وبعد علمه بالمقدمتين السابقتين أي (الآخرة أبقى) و(الأبقى أولى بالاختيار والإيثار) بإمكانه أن يطبق الشكل الأول من القياس المنطقي فيحذف الطرف المتكرر أي (الأبقى) ليتوصل إلى النتيجة المطلوبة، وهي (الآخرة أولى بالاختيار والإيثار). وهذه النتيجة هي ما يختاره عقلاء البشر.

ولا يوجد عاقل يختار ويقدم المحدود والمنقطع والمنتهي على الدائم الباقي، خصوصاً وإن هذا المحدود قد قرنت لذّاته وخلطت بالألم والتعب والمشقة، وإن ماهو غير محدود قد خلصت لذّاته وصفت ولم تخلط بأي نوع من الآلام والمنغصات.

قد يقال: إن بإمكان الإنسان أن يجمع بينهما فيختار الدنيا والآخرة معاً، إلاّ أننا سنبين فيما بعد، إن شاء اللّه تعالى، أن الدنيا والآخرة ـ في أغلب الأحيان ـ ضرتان كلما اقترب الإنسان من إحداهما ابتعد عن الأُخرى، بل يمكن القول باستحالة الجمع بينهما مطلقاً إذا كانت الدنيا هي التعلق بغير اللّه، و الآخرة هي

التعلق به عزّ وجلّ ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[١] فإن امتلأ القلب بحب الدنيا فرغ عن حب اللّه تعالى وإن امتلأ بحب اللّه تعالى فرغ عن حب غيره.

كمثال آخر نقول: إن الإنسان بطبعه طالما يبحث عن معبِّر للرؤيا التي يراها في منامه، فعندما يرى أنه يشرب اللبن أو الماء يقال له ـ مثلاً ـ بأن الماء هو الحكمة أو العلم، فاللبن ظاهر وهو هذا اللبن الذي نراه ونشربه وله باطن هو الحكمة والعلم، فالظاهر إذن ممر للوصول إلى الحقيقة، كالمجاز في اللغة الذي هو ممر للوصول إلى المعنى الحقيقي.

وهكذا تكون هذه الدنيا كلها ـ وليس النوم فقط ـ هي المعبر إلى الحقيقة لا هي الحقيقة ذاتها، فهي دار الممر ومن خلالها يستطيع الإنسان الوصول إلى غايته ومقصده وهي «الدار الآخرة» التي هي دار المقر

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[٢] وهي الحياة الحقيقية. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وبإمكان الإنسان أن يزاول عملية التفكير من خلال هذه المعلومات فيرتب المقدمات منها ليستخلص بعد ذلك النتيجة المطلوبة، فيقول:

كمقدمة أُولى: إن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية ودار المقرّ

وكمقدمة ثانية: إن الحياة الحقيقية هي الأَولى بالعمل من أجلها.

فينتج: إن الآخرة هي الأولى بالعمل من أجلها.

---

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) غافر: ٣٩.

(٣) العنكبوت: ٦٤.

وهكذا فإن العاقل هو من يلتزم بهذه النتيجة فيختار الآخرة ويقدمها على الدنيا لأن العمل للممر دون المقر ولما هو زائل وغير حقيقي دون الحقيقي الباقي عمل بلا فكر، وهو عمل الجاهلين.

إن عمليتي التفكير السابقتين مصداقان من مصاديق عملية التفكير الصحيحة والتي على الإنسان أن يداوم عليها من أجل حصوله على النتائج المطلوبة التي يحتاجها ويريد الوصول إليها في حياته.

التفكير مقدمة لحصول الإيمان

إن الإنسان وإن فكّر وحصل على النتيجة المطلوبة وهي أن الآخرة هي الأبقى والأدوم والأحسن إلاّ أنه لن يعمل من أجلها إلاّ بعد أن يحصل له الإيمان بهذه الأُمور.

وهذا الأمر من طبع الإنسان ذاته، فهو لا يضع يده في النار ـ مثلاً ـ لا لأنه يعلم فقط بأنها تحرق بل لأنه يعلم ويؤمن بذلك، وإلاّ فإن الطفل الذي لم تحترق يده بالنار بعدُ يُدخلها فيها وإن أُخبر وعلم بأنها حارة محرقة ولا يمتنع عنها إلاّ بعد أن تحرق يده ويؤمن بذلك.

إن كثيراً منا وإن بلغنا الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين، لازلنا نعيش بفكر الأطفال لا بفكر البالغين، فنحن لا نشك بالقرآن والروايات الشريفة ونعلم بالمعاد والآخرة ولكننا لا نؤمن ولا نعتقد بذلك كاعتقادنا بأن السم قاتل، والدليل على ذلك هو عدم إقدامنا على شرب السم القاتل وإقدامنا كل يوم على ارتكاب المعاصي والأعمال المحرّمة التي تفوق آثارها الآثار الزائلة للسم الدنيوي

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[١].

فالتفكير مقدمة لحصول إيمان القلب، فإذا حصل الإيمان في قلب الإنسان أثّر في جوارحه ولذا فإنه لا يبكي من خشية اللّه تعالى ولا لذكر مصيبة الحسين (عليه السلام) ولا يصرخ من الألم إلاّ عند حصول هذه الحالة القلبية لديه، وإلى هذا أشارت الرواية الشريفة «**نبّه بالفكر قلبك**» بجعله يعيش هذه الحالة، وإلاّ فقد يعبد الإنسان ربّه سنين طويلة وهو معتاد على عبادته لا عن وعي ولا عن حالة الخضوع والخشوع القلبية المطلوبة، ومثلها ما ورد عنه صلى الله عليه وآله حينما رأى شخصاً يلعب بلحيته في صلاته، فقال صلى الله عليه وآله «**لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**»[٢]. وعلى هذا الأمر أكثرنا، فما من مصيبة أو مسألة أو مشكلة إلاّ ونتذكرها في صلاتنا لأن هذه الصلاة فيها كل شيء إلاّ ذكر اللّه ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾[٣] ولهذا وغيره كان «**تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة**»[٤].

أقسام التفكير

والتفكير بعد هذا على قسمين بلحاظ حصوله:

القسم الأول: هو التفكير عن تقليد، وهذا قد يزول لأن من «أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال»[٥].

---

(١) النمل : ١٤ .

(٢) دعائم الإسلام، ١ : ١٧٤ .

(٣) طه: ١٤.

(٤) نور البراهين لنعمة الله الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٧ هـ . ، ١: ٧٩.

(٥) المحتضر، للحسن بن سليمان الحلي: ٣ .

القسم الثاني: وهو التفكير القائم على أساس المنطق القويم والاستدلال الصحيح، وقد أشار الفيض الكاشاني إلى ثمرات هذا القسم بقوله: «وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرتها الخاصة العلم لاغير، نعم إذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب وإذا تغيّر القلب تغيّرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع للحال والحال تابع للعلم، والعلم تابع للفكر، فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن في الفكر ذكراً وزيادة، وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر. فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، وقيل: هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وقيل: هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[1])[2].

تقسيم آخر للتفكير بلحاظ مواضيعه

بالإمكان تقسيم التفكير بلحاظ الأُمور و المواضيع التي يفكّر بها الإنسان إلى قسمين:

القسم الأول: وهو القسم الذي يفكر فيه الإنسان في صفات الله وأفعاله وقدرته، والروايات الدالة على هذا القسم كثيرة، فعن الرسول (صلى الله عليه وآله) «**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**»[3] وفي بعضها: «**خير من عبادة سبعين سنة**». وعن

---

(١) طه : ١١٣ .

(٢) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني ٨: ١٩٨.

(٣) المصدر نفسه: ١٩٣.

الصادق عليه السلام «**أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته**»[١]، وغيرها من الروايات، وسيأتي مزيد من التوضيح لهذا القسم فيما بعد إن شاء اللّه تعالى.

القسم الثاني: وهو القسم الذي يفكر فيه الإنسان في نفسه وأعماله وحركاته وسكناته وملكاته، وبعبارة أُخرى: التفكر في معاصيه وطاعاته، ماذا عمل؟ ولماذا عمل؟ وهل كان ما عمله حسناً أو سيئاً؟ وهل لهذه الأعمال الحسنة الصادرة منه مناشئ وملكات استحكمت في وجوده وصدرت عنها هذه الأعمال فيحافظ عليها ويحاول الاستزادة منها أم صدرت هذه الأعمال منه بنحو «الحال» فيعمل على تحويلها إلى «ملكات»؟ وهكذا في الأعمال السيئة ومصادرها ومناشئها، وحينها لا يتجه إلى الأثر والمعلول بل ينبغي عليه قلع جذور «المؤثر» والملكة التي كانت منشأها. وقد تعرض الفيض الكاشاني لهذا البحث في المحجة البيضاء وذكر أن الأُمور التي على الإنسان أن يفكر فيها على أربعة أنواع هي:

النوع الأول: المعاصي

وينبغي للعبد أن يفتش صبيحة كل يوم عن جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ثم عن بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها[٢].

ثم يذكر قدس سره مجموعة من الأمثلة على ذلك.

---

(١) المصدر نفسه: ١٩٤.

(٢) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني ٨: ٢٠١.

النوع الثاني: الطاعات

أما القسم الثاني، وهو الطاعات، فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان و التقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل، ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما كتبه اللّه عزّ وجلّ عليه...[١].

ثم يذكر قدس سره مجموعة من الأمثلة على هذا أيضاً.

وعلى كل حال إن على الإنسان أن يتفكر في طاعاته كيف يؤديها لأنه قد يؤدي المكتوبات ولكنه يؤديها كما قال الرسول (صلى الله عليه وآله): «**نقرٌ كنقرِ الغراب**»، وقد يؤديها بنحو تكون وبالاً عليه وتلعنه يوم القيامة حينما تقول الصلاة ـ مثلاً ـ للعبد: «**ضيعتني ضيعك الله**»، وقد يقرأ القرآنَ والقرآنُ يلعنه: ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾[٢] لأنه متلبس بالعمل الذي يكون فيه مصداقاً من المصاديق التي تقع عليهم تلك اللعنة... وهكذا.

النوع الثالث: الصفات المهلكة

وأما القسم الثالث: فهو الصفات المهلكة التي محلها القلب.. وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات، فإن ظنّ أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبداً تعده الخير من نفسها وتكذب...[٣].

(١المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني ٨: ٢٠١.

(٢) آل عمران: ٨٧.

(٣) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني ٨: ٢٠٣.

النوع الرابع: المنجيات

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات فهو التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص والصدق في الطاعات، ومحبة اللّه عزّ وجلّ وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له.. فليتفكر العبد كل يوم وليلة في قلبه وما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى اللّه عزّ وجلّ، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلاّعلوم وأن العلوم لا يثمرها إلاّ أفكار...[1].

ومن الواضح أن الفيض الكاشاني (قدس سره) قد تعرض في النوع الثالث والرابع إلى الملكات التي صارت منشأ للعمل الطالح وتلك التى صارت مبدأ للعمل الصالح، فيقول: على الإنسان أن يفكر في ملكاته ويدقق بها ويمتحنها من أجل أن يجتث جذور الأُولى ويقضي عليها ويقوي جذور الثانية ويستزيد منها وكل ذلك وفق شاكلته ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[2] فإذا كانت شاكلته وطينته وباطنه سيئاً فإنه لن يخرج إلاّ نباتاً خبيثاً نكداً، وإذا كانت شاكلته وباطنه طيباً وطاهراً فإن نباته يخرج طيباً وطاهراً مثله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[3]. فالشجرة الطيبة دائمة الثمر وثمرها طيب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. والشجرة الخبيثة خبيثة ملعونة الثمر ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ

(١)المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني: ٢٠٤.
(٢) الإسراء: ٨٤.
(٣) الأعراف: ٥٨.

خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[١].

فهناك شجرة «الزقوم» التي يوجد في كل إنسان غصن منها، وهناك شجرة «طوبى» التي أصلها في بيت علي وفاطمة لأن أهل هذا البيت أصل كل خير ومعدنه، وبهم بدأ اللّه وبهم يختم، ولهذه الشجرة في كل بيت مؤمن غصن، ولعل المراد من هذا البيت ـ والله العالم ـ هو القلب لا بيت المادة والآجر والطين، ومثل هذا قولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[٢]، حيث قالوا: إن هذا البيت الذي يهاجر منه الإنسان هو بيت القلب وبيت الدنيا والشهوات لا بيت المادة والآجر، وإلاّ فإن الهجرة من بيت الطين والحجارة لا قيمة لها إذا كان قلب الإنسان معلقاً بهذه الدنيا وشهواتها، بل الهجرة التي تجعل أجر من يموت فيها على اللّه هي الهجرة والسفر إليه لا السفر إلى الأحجار في مكة المكرمة، وإن كانت الأخيرة مظهراً للتوحيد أيضاً، لكنها ليست المقصودة فقط بل المقصود أن يطوف الإنسان حول معاني التوحيد الحقيقية.

وعلى كل حال، فإن لطوبى فروعاً وأغصاناً ولزقوم فروعاً وأغصاناً، وعلى الإنسان أن يدقق في نفسه وملكاته من أجل أن يتعلق بهذه الغصون أو تلك كما يختار هو ويريد.

ثم أضاف الإمام الخميني قدس سره في بيان التفكر، فقال: (**والتفكر في المقام هو أن يفكر الإنسان بعض الوقت في أن مولاه الذي خلقه في هذه الدنيا وهيّأ له كل أسباب الدعة والراحة...**) إذ خلق كل شيء لأجله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

(١) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦.
(٢) النساء: ١٠٠.

الأَرْضِ جَمِيعًا... ﴾[١] وجعل كل هذا العالم في خدمته (**ووهبه جسماً سليماً وقوى سالمة لكل واحدة منها منافع تحيّر ألباب الجميع ورعاه وهيّأ له كل هذه السعة وأسباب النعمة والراحة...**) فهو الخالق والواهب والمربي والمدبر، وإذا كان الرب هو اللّه سبحانه فليس بإمكان الإنسان أن يغش أو أن يلقي بتبعة عمله على غيره، فإذا وجدت من نفسك خطأ أو معصية فاعلم أنها من نفسك ﴿**وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾[٢] لأنه تعالى هيّأ لك كل شيء وأعطاك العقل ليهديك إلى الطريق القويم ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[٣].

وهذا هو قائد الإنسان الداخلي (**ومن جهة أُخرى أرسل جميع هؤلاء الأنبياء وأنزل كل هذه الكتب ـ الرسالات ـ وأرشد ودعا إلى الهدى...**) وهذا هو القائد الخارجي الذي يعلّم الكتاب والحكمة ويزكي الإنسان ويتمم مكارم الأخلاق، (**فما هو واجبنا تجاه هذا المولى مالك الملوك؟!**). وكيف لا يوجب العقل شكره وشكر المنعم واجب؟!

ثم إن مرد هذا الشكر وفائدته للشاكر لا للمشكور، وإلاّ فإن اللّه غني عن العالمين، ولو أن العالم بأجمعه اتفق على أن يعصيه لما ضرّوه بمقدار جناح بعوضة، ولو اجتمعوا على طاعته لما أغنوه بمقدار جناح بعوضة لأنه غني لا نقص في غناه عزّ وجلّ ﴿**إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾[٤].

ثم بعد هذا (**هل وجود جميع هذه النعم هو فقط لأجل الحياة الحيوانية وإشباع**

---

(١) الجاثية : ١٣.
(٢) النساء: ١٣.
(٣) طه: ٥٠.
(٤) إبراهيم: ٨.

الشهوات التي نشترك فيها مع الحيوانات)؟ أمن أجل أن يلتذ الإنسان بهذه اللذائذ الدنيوية والشهوات الحيوانية بعث الله الأنبياء وأنزل الرسالات وجرى ما جرى من المصائب على أنبيائه وأوليائه والصالحين من عباده ونزل ما نزل بهم حتى قال الرسول (صلى الله عليه وآله): «**ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت**»، **(أم أن هناك هدفاً وغاية أُخرى)** بها يتميز الإنسان عن الحيوانات التي تشترك معه بالشهوة والتي لا تمتلك غيرها؛ ولذلك لم يشرفها اللّه بإرسال الرسل إليها وإنزال الكتب عليها لأن ذلك مبلغها من العلم وتلك هي حاجاتها، وإلى هذا أشار الشيخ الرئيس بأن إنسانية الإنسان ليست بالأكل والشرب وإلاّ فباقي الحيوانات تأكل وتشرب، وليست إنسانيته بالوفاء وإلاّ فالكلب إذا ربّي على ذلك كان وفياً وإنما يخرج الإنسان من دائرة الحيوانية عندما يذهب إلى لقاء اللّه ويعمل من أجل ذلك.

ثم: **(هل للأنبياء الكرام والأولياء العظام والحكماء الكبار وعلماء كل أُمة الذين يدعون الناس إلى حكم العقل والشرع ويحذرونهم من الشهوات الحيوانية ومن هذه الدنيا البالية، عداء ضد الناس أم كانوا مثلنا لا يعلمون طريق صلاحنا نحن المساكين المنغمسين في الشهوات؟!)** وهل اتفقوا على أن يكذبوا ـ والعياذ بالله ـ على الناس فيما دعوهم إليه، وهل هناك مجال لأن يتقبل العقل مثل هذا الاتهام فيصدق بأن خيرة البشر وبضمنهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي كما في الروايات، بالإضافة إلى غيرهم من الأوصياء والعلماء والحكماء الكبار الموصوفين بالصدق والحكمة والعلم والرحمة قد أجمعوا على أن يكذبوا على البشرية كلها، أو كان لهم عداء ضد الناس جميعاً أو كانوا بأجمعهم مشتبهين لا يعلمون طريق صلاح البشرية ونجاتها.

(إن الإنسان إذا فكر للحظة واحدة عرف أن الهدف من هذه النعم هو شيء آخر، وأن الغاية من هذا الخلق أسمى وأعظم وأن هذه الحياة الحيوانية ليست هي

الغاية بحدّ ذاتها)، فالهدف من هذه النعم غير هذه الشهوات الحيوانية، وغير الرضا بالحياة الدنيا، الخاص بمن ﴿**رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا**﴾[١] وهم الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾[٢] و﴿**ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ الْعِلْمِ**﴾[٣] فهم لذلك ﴿**كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[٤]، بحيث كانت ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾[٥] فلهم كل ما يتاجرون به ولكنهم لا يستفيدون منه فلا يربحون شيئاً.

فليست الحياة الدنيا ـ إذن ـ هي الهدف (**وأن على الإنسان العاقل أن يفكر بنفسه وأن يترحم على حاله ونفسه المسكينة**) لأنه إن رأى مسكيناً رثّ الثياب أو مريضاً صعب العلاج ترحم عليه، أفلا ينبغي لكل منّا أن يترحم على نفسه، بل يبكي دماً عليها، لأنه مريض من حيث القلب وهو لا يعلم لأنه جاهل مركب وإلاّ فإن القرآن يصرح بأنه شفاء للقلوب: ﴿**قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ**﴾[٦] فلو لم يكن هناك مرض لما كان القرآن شفاءً لما في الصدور.

والحق أننا لا يوجد بيننا من ليس عنده ملكة رديئة إلاّ المعصوم عليه السلام، فكيف لا نترحم على أنفسنا في جوف الليل وكيف لا نبكي عليها؟! وكيف لا يكلم العاصي نفسه (**ويخاطبها: أيتها النفس الشقية التي قضيت سني عمرك الطويلة في**

---

(١) يونس: ٧.
(٢) الروم: ٧.
(٣) النجم: ٣٠.
(٤) الفرقان: ٤٤.
(٥) الأعراف: ١٧٩.
(٦) يونس : ٥٧.

الشهوات ولم يكن نصيبك سوى الحسرة والندامة، ابحثي عن الرحمة، واستحيي من مالك الملوك، وسيري قليلاً في طريق الهدف الأساسي المؤدي إلى حياة الخلد والسعادة السرمدية) وقد يسهل المسير على الإنسان لو كان عنده ربّ يقول له: تقدم إليّ خطوة أتقدم إليك خطوة، فكيف وربنا عزّ وجلّ يقول: تقدم إليّ خطوة أتقدم إليك سبعين خطوة بل ألف خطوة، واعمل حسنة أُجازيك بعشرة والعشرة بسبعين والسبعين بسبعمائة.. وهكذا، فأي عذر بعد هذا يبقى لنا.

فعلى الإنسان أن يحذّر نفسه قائلاً: **(ولا تبيعي تلك السعادة بشهوات أيام قليلة فانية، التي لا تتحصل حتى مع الصعوبات المضنية الشاقة)** فهي شهوات لا تتأتى للإنسان إلاّ بالعسر والمشقة والتعب ولا تكون إلاّ مخلوطة بالألم والحسرة، فيا أيتها النفس **(فكري قليلاً في أحوال أهل الدنيا والسابقين وتأملي متاعبهم وآلامهم كم هي أكبر وأكثر بالنسبة إلى هنائهم، في نفس الوقت الذي لا يوجد فيه هناء وراحة لأي شخص)**، وحين سُئل الصادق عليه السلام: يابن رسول الله، أين نجد الراحة؟ قال: «في أول يوم من الجنة»، فلا تبحث عنها في مكان آخر.

ثم عليك أن تحذر من **(ذلك الذي يكون في صورة الإنسان ولكنه من جنود الشيطان وأعوانه والذي يدعوك إلى الشهوات، ويقول: يجب ضمان الحياة المادية، تأمل قليلاً في حال نفس ذلك الإنسان واستنطقه، وانظر هل هو راض عن ظروفه أم أنه مبتل ويريد أن يبلي مسكيناً آخر؟!**

وعلى أي حال، فادع ربك بعجز وتضرع أن يعينك على أداء واجباتك التي ينبغي أن تكون أساس العلاقة فيما بينك وبينه تعالى، والأمل أن يهديك هذا التفكير ـ المقترن بنية مجاهدة الشيطان والنفس الأمّارة ـ إلى طريق آخر، وتُوفق للترقي إلى منزلة أُخرى من منازل المجاهدة) وهي مقام العزم، الآتي بيانه إن شاء الله تعالى.

فصل

في العزم

(وهناك مقام آخر يواجه الإنسان المجاهد) الذي يجاهد الجهاد الأكبر **(بعد التفكر وهو مقام العزم، وهذا هو غير الإرادة التي عدها الشيخ الرئيس في الإشارات أُولى درجات العارفين)** فيما ذكره من بحث في مقامات العارفين في النمط التاسع من الإشارات في جزئه الثالث.

(يقول أحد مشايخنا ـ أطال اللهّ عمره ـ : إن العزم هو جوهر الإنسانية، ومعيار ميزة الإنسان، وإن اختلاف درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه)، ولعل القائل هو أُستاذ الإمام الخميني قدس سره وهو الشيخ الشاه آبادي رحمه الله.

وعلى كل حال، فإننا وقبل أن نفهم ما هو العزم نحتاج إلى مقدمة ممهدة، فنقول:

ما هي العلاقة بين الإنسان وبين اللّه تبارك وتعالى؟ فهل اللّه قريب من الإنسان أم بعيد عنه؟ وهل الإنسان قريب من اللّه تعالى أم بعيد عنه؟

لقد أجاب القرآن الكريم عن السؤال الخاص بقرب اللّه تعالى من الإنسان بقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[1] بل أكثر من ذلك: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[2] بل أعلى من ذلك:

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) ق: ١٦.

﴿أَنَّ اللهَّ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[١] مع كون المرء وقلبه شيئاً واحداً لا شيئين، فهو عزّ وجلّ أقرب إلى الإنسان من نفسه، ولا يوجد بعد هذا من هو أقرب إليه منه تبارك وتعالى.

أما الجواب عن السؤال الثاني، فإن الإنسان قريب أيضاً من اللّه عزّ وجلّ، إذ لا يعقل بُعده عنه مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٢]غاية ما في الأمر أن الإنسان يغفل عن اللّه تبارك وتعالى لا أنه يبتعد عنه، وهذا من قبيل غفلة الإنسان عن جليسه فلا يراه ولا يحس به مع قربه منه، فمشكلة الإنسان ـ إذن ـ في غفلته. ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِن هَذَا... ﴾، وإلاّ فإن الآخرة هي باطن الدنيا، وإن الجزاء هو باطن العمل، ولكننا لا نرى ذلك إلا بعد رجوعنا من غفلتنا إلى أنفسنا، ولذلك قالوا في محله: «الموت هو رجوع الإنسان إلى نفسه» وهو «انقطاع الإنسان عن غير الله» وبه يستيقظ الإنسان من غفلته ﴿ . .فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾[٣].وعلى هذا تكون «درجات الغفلة والذكر» أساساً لتفاوت الناس من حيث القرب والبعد عن اللّه تبارك وتعالى.

فكلما كان الإنسان أكثر غفلة كان أبعد عن الله تبارك وتعالى، لا أن الله تعالى ابتعد منه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٤]. ولأن اللّه تبارك وتعالى هو الكمال المطلق، فإن ابتعاد الإنسان عنه ابتعاد عن الكمال المطلق.

وكلما كان الإنسان أكثر ذكراً كان أقرب إلى اللّه تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي

(١) الأنفال: ٢٤.
(٢) الحديد : ٤ .
(٣) ق: ٢٢.
(٤) الحديد: ٤.

﴿أَذْكُرْكُمْ﴾[١]، حتى ورد الحث على الذكر بالصورة التي لم يرد فيها في العبادات الأُخرى التي حددت وقيدت بشروط وقيود زمانية ومكانية وما شابه ذلك، بحيث وجبت في بعضها و استحبت في الأُخرى وحرمت أو كرهت في أحيان أُخرى، أما الذكر فقد قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[٢] بلا حد ولا قيد. فالذكر خير على كل حال، لأن الذاكر لله تعالى لا مجال لإبليس إليه، وما ورد في الروايات من أن الطير لا يصطاد إلاّ إذا كان غافلاً عن ذكر اللّه تعالى يشير إلى أن الإنسان لا يُصطاد ولا يقع في شباك إبليس اللعين إلاّ إذا كان غافلاً عن اللّه سبحانه وتعالى، فلا يمنع عن الذكر في أي زمان أو مكان خوف الوقوع في الغفلة.

ولهذا نحن نعتقد أن النبيﷺ يذكر اللّه تعالى في حال يقظته ونومه لأنه وجود ذاكر لله تعالى.

وخلاصة الجواب ـ إذن ـ أن الإنسان كلما كان غافلاً عن اللّه تعالى فهو بعيد عنه، وكلما كان ذاكراً له عزّ وجلّ فهو قريب منه، وما يحدد درجة قربه وبعده هو مقدار ذكره وغفلته.

موقع العزم في المسير إلى الله

ثم إننا جميعاً ـ إلاّ المعصوم عليه السلام ـ غافلون ولابد لنا من اليقظة من نوم الغفلة لنبدأ المسير إلى اللّه تعالى، وإن لهذا المسير طريقاً وسفراً، فهل الطريق والسفر إليه سبحانه وتعالى بعيد أم قريب؟

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) الأحزاب : ٤١.

والجواب: أن السفر من الغفلة إلى الذكر قريب جداً، ولذلك قال السجاد عليه السلام: «**وأن الراحل إليك قريب المسافة**»[١] وهو كذلك لأنه ﴿**مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾[٢] غير أننا غافلون عنه تبارك وتعالى، وما علينا إلاّ الالتفات إليه عزّ وجلّ لنكون قريبين منه وهو القائل: «**أنا جليس من ذكرني**»[٣] وأن نمزق الحجب التي جعلناها بيننا وبينه تعالى بأعمالنا؛ ولذا ورد في المأثور: «**وإنك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك**»[٤] فيذهبون بعد ذلك إلى هذا السبب أو ذاك ويتوسلون بهذه الواسطة أو تلك دون اللّه تبارك وتعالى. وهناك سفر من نوع آخر، يئنُّ منه حتى أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: «**آه من قلّة الزاد وبعد السفر**»[٥]، وهذا السفر هو السفر من الحق إلى الحق وهو مختص بمقام الولاية العظمى، وهو غير السفر الذي تحدثنا عنه سابقاً وقلنا بأنه قريب المسافة إذ هو سفر من الخلق إلى الحق، ولهذا السفر البعيد بحث آخر قد نُوفق إليه في بحث الأسفار الأربعة إن شاء اللّه تعالى.

ثم إننا لابد لنا من مطية نمتطيها ومن مركوب نركبه في سفرنا هذا، وما هذه المطية والمركوب إلاّ «الليل»، فعن الإمام العسكري عليه السلام: «**إن الوصول إلى الله عزّوجل سفر لايدرَك إلا بامتطاء الليل**»[٦] فصلاة الليل خير راحلة للسفر، لأن

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) الحديد: ٤.

(٣) أصول الكافي ٣: ٤٩٦ / ٤.

(٤) مفاتيح الجنان المعرَّب، للقمي، أعمال يوم ٢٧ رجب، ص ١٥٣.

(٥) نهج البلاغة، الحكمة ٧٧.

(٦) بحار الانوار، ٧٨: ٨٣.

«**لربكم عز وجل في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها**»[١] وهذه النفحات مستمرة بالنزول غير منقطعة ﴿**وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[٢] فكل ليلة يقومها الإنسان لله تعالى فهي ليلة قدر بالنسبة إليه لأن عطاء اللّه لا يختص بليلة القدر فقط، ولو تعرض الإنسان لنفحات اللّه وعطائه في مظانها وفي أوقاتها وبأعمالها المخصوصة لحصل عليها.

خير الزاد التقوى وأفضل الزاد العزم

بعد أن يتهيّأ المركوب والراحلة للمسافر لابد له من زاد في سفره هذا، فما هو زاده في سفره إلى اللّه تبارك وتعالى؟

لقد بين القرآن الكريم هذا الزاد بقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾[٣]، وبهذا تتم مقدمات السفر، ولا يحتاج بعدها إلاّ إلى «التصميم» و «العزم» على السفر.

إن بيان حقيقة التصميم والعزم على السفر إلى اللّه وردت في كلمات أهل البيت عليهم السلام، إذ ورد عنهم: «**وإن أفضل زاد الراحل إليك عزم إرادة يختارك بها...**»[٤]، فالعزم ـ إذن ـ هو أفضل الزاد في هذا المسير بعد أن كانت التقوى خير زاد له، وبهذا العزم يختار الإنسان اللّه تبارك وتعالى فيكون له كما يكون هو لله تبارك وتعالى.

وإن هذا العزم هو جوهر الإنسانية، فعلى مقدار عزمك ونسبته يكون عملك،

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني، دار الحديث، القاهرة ٣: ٢٥٧ / ٢٨٧٧.

(٢) الإسراء: ٢٠.

(٣) البقرة: ١٩٧.

(٤) مفاتيح الجنان المعرّب، للشيخ عباس القمي، أعمال اليوم السابع والعشرين من شهر رجب: ١٥٣.

وليس العزم إلاّ مقدمة لأعمالك وعباداتك وبه تتحقق إنسانيتك.

(والعزم الذي يتناسب وهذا المقام هو أن يوطن الإنسان نفسه ويتخذ قراراً بترك المعاصي وبأداء الواجبات، وتدارك مافاته في أيام حياته، وبالتالي على أن يجعل من ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً، بحيث يحكم الشرع والعقل ـ بحسب الظاهر ـ بأن هذا الشخص إنسان)، وهذا العزم هو الذي قال عنه الإمام عليه السلام ـ واللّه أعلم ـ: «**وإن أفضل زاد الراحل إليك عزم إرادة يختارك بها**»، كما أن جعل الإنسان ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً هو بأن يكون سلوكه الظاهري وقواه الظاهرية السبع ـ التي هي: الرجل واليد و... والتي تشكل المملكة الظاهرية ـ مؤتمرة بأمر الشرع وممتنعة عن نواهيه، وبذلك تكون أبواباً للجنة، وإلاّ فإنها أبواب للنيران.

وقد صبّ السيد الإمام قدس سره حديثه على الظاهر لأن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى إصلاح باطنه إلاّ بإصلاح ظاهره، وأن أعماله الظاهرية هي التي تؤثر في باطنه، فكلما زاد من أعماله الظاهرية، وجدت عنده ملكات باطنية أكثر، وهكذا يتدرج في سيره.

ولعل في تقديم العقل على الشرع في بعض الموارد كقوله (قدس سره): **(على أن يجعل من ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً)** وتقديم الشرع على العقل في موارد أُخرى، كقوله (قدس سره): (**بحيث يحكم الشرع والعقل...**) إشارة إلى أن الشرع الصحيح لا يتنافى مع العقل السليم، وأن العقل السليم لا يمكن أن يتعارض مع الشرع الصحيح، وسنشير في بحوث لاحقة ـ إن شاء اللّه ـ إلى هذه الحقيقة وأن الشرع والعقل متطابقان ولا يمكن أن يفترق أحدهما عن الآخر، وإن افترقا فإن أحدهما خارج عن حقيقته لا محالة. وعلى كل حال فإن (**الإنسان الشرعي هو**

الذي ينظم سلوكه وفق ما يتطلبه الشرع..) وللشرع هنا مراتب متعددة:

فمرة لا يعمل الإنسان بواجب ولا ينتهي عن محرم، وهذا هو الإنسان غير الشرعي. ومرة يعمل بالواجبات ولا ينتهي عن المحرمات، حيث تناصف الشرعي واللاشرعي سلوكه. وأُخرى يعمل بالواجبات ويترك بعض المحرمات دون الآخر. ومرة يعمل بالواجبات ويترك المحرمات ولكنه يترك المستحبات ويرتكب المكروهات، ولمثل هذا الإنسان ظاهر منطبق على الشرع، وأكثرُنا عليه. ثم قد يعمل الإنسان الواجبات ويترك المحرمات ويعمل المهم من المستحبات، وحينئذ يكون سلوكه أكثر انطباقاً من سابقه على الشرع.

وهناك درجة أعلى من سابقتها وهي أن يعمل بالواجبات ويترك المحرمات ويفعل المستحبات ويترك المكروهات.

ثم يترقى الإنسان ليصل إلى الدرجة التي يعمل بها الواجبات وينتهي عن المحرمات ولا يترك مستحباً ولا يفعل مكروهاً، بل لا يفعل مباحاً أيضاً، وذلك بأن يجعل كل عمل مباح عملاً مستحباً من خلال الإتيان به بنية القربة إلى اللّه تعالى.

هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى فإن الشرع على قسمين: شرع صامت: وهو القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام التي صحّ صدورها عنهم. وشرع ناطق: وهو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. ولذا جعل فعلهم وتقريرهم حجة، ومن هنا نقرأ في زيارة الحجة (عليه أفضل الصلاة والسلام): «**السلام على آل ياسين، السلام عليك حين تقوم، السلام عليك حين تقعد، السلام عليك حين تركع، السلام عليك حين تسجد، السلام عليك حين تنام...**» فالسلام عليه في كل فعل يفعله لأن كله لله تعالى ولا يكون شيء لنفسه أبداً، فهو إنسان إلهي تسامى إلى هذه الدرجة

فكان هو الرسالة لا أنه إنسان عامل بها.

وعلى الإنسان المتشرع أن يرتبط بكلا قسمي الشرع (**وأن يكون ظاهره كظاهر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأن يقتدي بالنبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم ويتأسى به في جميع حركاته وسكناته وفي جميع ما يفعل وما يترك، وهذا أمر ممكن لأن جعل الظاهر مثل هذا القائد أمر مقدور لأي فرد من عباد الله**)، فبإمكاننا أن نطبق ظاهرنا على ظاهره (صلى الله عليه وآله) وهو قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[1]، وليس بإمكاننا أن نطبق باطننا على باطنه(صلى الله عليه وآله) فنكون كالرسول(صلى الله عليه وآله) لأنه لا يوجد من يستطيع أن يصل إلى مقام الخاتمية ومقام ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾[2] هُو مقام البرزخية العظمى المختص بحضرته (صلى الله عليه وآله).

الحاجة إلى ظاهر الشريعة في هذه النشأة حاجة مستمرة

بيّنا فيما سبق أن تكامل الإنسان يتم من خلال التزامه بظاهر الشريعة ومن خلال التأسي بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. أن هذا السير لا حدّ له لأن الكمالات التي يتطلع إليها الإنسان لاحدّ لها، وأن مراتبه تبدأ من هذه النشأة وهي نشأة النقص إلى أن تصل إلى مرتبة ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾، وهذا ما عبرت عنه رواية الثقلين، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[3] إذ إن أحد

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) النجم : ٩.

(٣) سنن الترمذي، ١٣، ٢٠١ وأُسد الغابة ٢، ١٢ في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام والدر المنثور في تفسير آية المودة.

طرفي الحبل بيد العبد فهو في صعود دائم، وكلما صعد طلب المزيد، وفي طرفه الآخر أكرم الكرماء الذي لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً، وهكذا تستمر المسيرة باتجاه الكمال المطلق اللامتناهي.

فلا توقّف في هذه المسيرة ولا حدّ لها، ومن هنا أخطأ من لا فهم له في هذه المعارف في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾[1] فقال بأن الإنسان إذا أتاه اليقين ووصل إلى هذه المرتبة من مراتب المعرفة بالواقع والباطن فإنه يستغني بذلك عن العبادات من ذكر وصلاة وصوم و... ولا حاجة له بعد ذلك إليها، ومن هنا نبّه السيد الإمام قدس سره إلى هذه المسألة المهمة والأساسية وهي: أن الإنسان في هذه النشأة سواء كان في بداية الطريق أو في وسطه أو نهايته بل حتى لو وصل إلى مرتبة ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾، فهو بحاجة إلى ظاهر الشريعة وإلى الالتزام بأوامرها ونواهيها، ولذا قال قدس سره: (**واعلم... أن طي أي طريق في المعارف الإلهية لا يمكن إلاّ بالبدء بظاهر الشريعة ومالم يتأدب الإنسان بآداب الشريعة الحقة**) وأن يعمل بها، لا أن يتعلم مصطلحاتها فقط، وإلاّ (**لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة**) التي هي ملكات لا تحصل إلاّ من خلال العمل بالظاهر، ولو كان هناك طريق آخر لحصول هذه الملكات لأصبح حصر الأمر بها لغواً (**كما لا يمكن**) بدون التأدب بهذه الظواهر (**أن يتجلى في قلبه نور المعرفة وتتكشف العلوم الباطنية وأسرار الشريعة**) لأن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء، ولكنه تبارك وتعالى لا يقذفه جزافاً بل وفق الضوابط والقوانين التي جعلها عزّ و جلّ لمثل هذا الأمر.

ثم (**وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في قلبه، سيستمر أيضاً في**

---

(١) الحجر: ٩٩.

تأدبه بالآداب الشرعية الظاهرية) لأنها أصبحت بذلك ملكات له ولو تركها لما كانت ملكات ولعاد من حيث بدأ، ومن هنا قال شيخنا وأُستاذنا جوادي آملي حفظه اللّه: إن الإنسان مادام في عالم الطبيعة فهو على الدرج وحينما ينتقل إلى عالم الآخرة يصبح على السطح، فنحن نعيش في بئر عالم الطبيعة آخذين بالصعود، درجة درجة، وسُلَّمنا هو عبادتنا وهذه الآداب الشرعية الظاهرية فإن تركناها نكون قد تركنا الدرج، وسنهوي إلى قعر البئر من جديد.

(ومن هنا نعرف بطلان دعوى من يقول: إن الوصول إلى العلم الباطن يكون بترك العلم الظاهر أو أنه وبعد الوصول إلى العلم الباطن تنتفي الحاجة إلى الآداب الظاهرية، وهذه الدعوى ترجع إلى جهل من يقول بها وجهله بمقامات العبادة ودرجات الإنسانية) لأن حقيقة العبادة هي العبودية لله تبارك وتعالى، ولا يوجد شيء في هذا العالم ليس عبداً له عزّ و جلّ، فما دام الموجود عبداً فلابد أن يعبد وإذا نفى عن نفسه الحاجة إلى العبادة فقد نفى فقره وعبوديته وادعى غناه وأُلوهيته، فكيف يجتمع هذا مع ادعاء الحاجة والعبودية لله تبارك وتعالى.

ثم قال قُدِّسَ سِرُّهُ: **(ولعلي أكون ـ إن شاء اللّه ـ موفقاً لبيان بعض هذا الأمر في هذه الأوراق)**.

وللفيض الكاشاني قُدِّسَ سِرُّهُ كلام في هذا المجال يحسن التوقف عنده، قال: «فإن قلت: ما الطريق إلى معرفة أسرار الدين وتحصيل اليقين؟ فاعلم أن اللّه سبحانه جعلنا أزواجاً وجعل لكل منّا شرعة ومنهاجاً...ثم لابد لمن أراد الشروع في تحصيل العلم المكنون عند أهله المضنون به غير أهله أن يكون... مقبلاً على الوظائف الشرعية فرائضها ونوافلها بعد أن تعلّم أحكامها وعرف حلالها وحرامها وكان قد أخذها عن أهلها وإمامها، قال الصادق (عليه السلام): «**إن آية الكذّاب أن يخبرك بخبر**

السماء والأرض فإذا سُئل عن شيء من مسائل الحلال والحرام لم يكن عنده شيء»[1]. إذ ليس لكل أحد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، وعلى الإنسان أن يعرف أنه لابد أن يكون المأخوذ عنه أهلاً لذلك غير كاذب فيدعي أنه يعرف بواطن الأُمور وأنه قد ترك ظواهر الأحكام للعوام، وهذه هي علامة الكذّاب الذي لا يعرف أن الظاهر هو الطريق الموصل إلى الباطن فإن كان جاهلاً بالظاهر كيف وصل إلى العلم بالباطن؟

وقد شاعت هذه المشكلة ـ الآن ـ في عموم الأوساط الإسلامية خصوصاً في إيران والمناطق المجاورة لها، وبالذات بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران!!

(١) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني، ج ٥، ص ١٣٩.

فصل

في السعي للحصول على العزم

(أبها العزيز.. اجتهد لتصبح ذا عزم وإرادة، فإنك إذا رحلت من هذه الدنيا دون أن يتحقق فيك العزم ـ على ترك المحرمات ـ فأنت إنسان صوري، بلا لبّ ولن تحشر في ذلك العالم «عالم الآخرة» على هيئة إنسان) إذ إنت إنسان بحسب الظاهر، و أما حسب الباطن فلست إنساناً ولن تكون حقيقة إلا بهيمة أو سبعاً أو شيطاناً أو مركباً من هذه الصور (لأن ذلك العالم هو محل كشف الباطن وظهور السريرة) وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[1] فتظهر الحقائق للناس بعدما كانوا ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَياةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[2].

واعلم **(أن التجرؤ على المعاصي يفقد الإنسان تدريجياً العزم)**، وهناك كثير من الروايات التي تثبت هذه الحقيقة. فحينما يسأل السائل الإمام عليه السلام عن سر عدم توفيقه لقيام صلاة الليل يجيبه الإمام عليه السلام بأن ذنوب النهار تمنع

---

(١) الطارق: ٩.

(٢) الروم: ٧.

الإنسان من قيام الليل![1]

والعجب من قول الإنسان: إن اللّه لم يوفقني لكذا ولكذا...فهل اللّه تبارك وتعالى لا يوفق العبد، بعد قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ** ... ﴾، أم الإنسان يريد التوفيق أو لا يريد ﴿... **إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[2].

إن الإنسان إذا انشغل باله وفكره طوال يومه بتوافه دنياه الدنية وشؤونها ولم يمرّن نفسه على التفكر في الأُمور المعنوية التي ترفعه فإنه لا يستطيع أن يمنع ذهنه عن التفكير في المعاصي كما يفعل ذلك الإنسان الذي يقضي يومه في التفكير في الأُمور المعنوية التي تصلح له أمر دينه ودنياه، وهو دائم المران على هذا. وقد ورد في الروايات أن القلب بيت أبيض والتفكير في المعصية ـ لا ارتكابها ـ دخان أسود يلوثه قليلاً قليلاً حتى يعتاد الإنسان على ذلك و«من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه» فللمكروهات حد وللحرام حد وعلى الإنسان أن يمشي محتاطاً خارج حد الكراهة لئلا يهوى لو انزلقت رجله ـ لا سمح الله ـ في الحرام بل يقع في المكروهات.

وعلى كل حال ، فإن التجرؤ على المعصية يفقد الإنسان قابلية العزم (**ويختطف منه هذا الجوهر الشريف**) الذي هو عزم الإرادة التي يختار اللّه به وأفضل الزاد للراحل إليه عزّ وجلّ.

وحين يفقد الإنسان عزمه فلن تنفعه بعد ذلك ألف نية ينويها يومياً من أجل

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٢٧٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، ح١٦.
(٢) الإنسان: ٣.

العمل لأنه فقد بجرأته تلك قابليته على فعل العمل الصالح.

وعندما يرى الإنسان نفسه عاجزاً عن القيام بالعمل الصالح ييأس ويفقد الأمل وينتهي الأمر به إلى هلاكه ـ والعياذ بالله ـ

ثم نقل السيد الإمام قدس سره أحد الأسباب المهمة لفقدان العزم والإراة عن أُستاذه الشاه آبادي قدس سره فقال: (**يقول الأُستاذ المعظم ـ دام ظله ـ : إن أكثر ما يسبب على فقد الإنسان العزم و الإرادة هو الاستماع للغناء**) الذي يستسهله بعض الناس ويعدّه من الصغائر.

تجنب المعاصي والتعبد في الخلوات قرين الاستشفاع بالنبي وأهل بيته عليهم السلام في تحصيل العزم

(**إذاً تجنب يا أخي المعاصي، واعزم على الهجرة إلى الحق تعالى، واجعل ظاهرك ظاهراً إنسانياً، وادخل في سلك أرباب الشرائع، واطلب من اللّه تعالى في الخلوات أن يكون معك في الطريق لهذا الهدف**)، لأن حالة طلب الرياء والجاه والسمعة لا تكون مع الخلوة وفى بطن الليل، ولأن الذين يطلبون من اللّه في بطون الليالي قلائل يباهي بهم اللّه تعالى ملائكته ويقول لهم: انظروا إلى عبدي الذي يطرق بابي والناس نيام. ولهذا ورد في الروايات ما قد يفهم منه أن إحياء ليلة النصف من شعبان أفضل من إحياء ليلة القدر باعتبار قلة السائلين والطالبين في هذه الليلة وكثرتهم في ليلة القدر.

ثم مع الطلب من اللّه تعالى في الخلوات (**استشفع برسول اللّه صلى الله عليه**

وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام حتى يفيض ربك عليك التوفيق) لأنهم الواسطة والوسيلة ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1]. (ويمسك بيدك في المزالق التي تعترضك، لإن هناك مزالق كثيرة تعترض الإنسان أيام حياته، ومن الممكن أنه في لحظة واحدة يسقط في مزلق مهلك) فيحبط وبعمل واحد يقدم على ارتكابه كل أعماله، وحينها **(يعجز من السعي لإنقاذ نفسه، بل قد لا يهتم بإنقاذ نفسه، بل ربما لا تشمله حتى شفاعة الشافعين، نعوذ بالله منها).**

(١) المائدة: ٣٥.

فصل

في المشارطة والمراقبة والمحاسبة

قلنا سابقاً: إن الوصول إلى اليقين بالله تعالى وإلى باطن الشريعة وأسرارها لا يتم إلا بالالتزام بأوامر اللّه تعالى والتأدب بآداب الشريعة والعمل بظواهرها، وإن لهذا العمل مراتب وإن الإنسان في ذلك على نفسه بصيرة وهو أعرف بمرتبته.

وعلى الإنسان إن أراد السير باتجاه المطلق أن يحدد موقعه ومرتبته وأن يعزم ويصمم على الارتقاء إلى المراتب الأعلى، ثم لابد له من طي عدة مراحل في هذا المسير، فكيف يبدأ عمله وما هي هذه المراحل؟

ولتقريب فكرة الجواب نقول: إذا أردت أن تشارك شريكاً في عمل من الأعمال وكان همك هو الربح، ولنفترض أن شريكك ولظرف ما كان عدوك، والعدو لا يحب الربح لعدوه، فكيف تعقد صفقة العمل المشتركة هذه معه؟

الظاهر أن هذه الصفقة لابد أن تتم متضمنة لعدة مراحل:

المرحلة الأُولى: أن تشترط عليه شروطاً معينة تضمن فيها نجاح الصفقة

وتحدد له نسبة ربحه، وما شابه ذلك.

المرحلة الثانية: لابد أن تراقب عملية تنفيذ الشروط آناً بآن، خصوصاً وإن الشريك هو عدوك، وإلاّ فقد يتخلف عن شروطه أو يسرقك أو يخونك ويوقعك في خسارة لاتعوّض، فتذهب كل أتعابك وأموالك ورأسمالك هباءً.

المرحلة الثالثة: ثم تأتي مرحلة المحاسبة لتحاسب شريكك بعد مدة معينة لترى هل وصلتما إلى غرضكما المطلوب وحصلتما على الربح المنشود أم لا؟

المرحلة الرابعة: لو تبين لك أن الصفقة قد خسرت وكنت في موقع تستطيع به معاتبة شريكك فإنك سوف تعاتبه لا محالة.

المرحلة الخامسة: ولو كانت لك قوة أكبر بحيث كان بإمكانك معاقبته فسوف تعاقبه إذا تبين لك أنه السبب في الخسارة

وهكذا الأمر في محل كلامنا، فإن الإنسان في حياته الدنيا يتاجر مع الله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[1].

والطرف الأول في هذه التجارة هو «العقل» الذي يريد الوصول إلى ربح الدار الآخرة والنعيم الدائم فيها والنجاة من نار جهنم وعذابها الأليم.

وإن هذا الطرف أي العقل، يريد أن يتاجر بقوى النفس الموجودة عنده مع طرف آخر وهي «النفس» التي بين جنبي الإنسان والتي تعتبر أعدى أعدائه.

فعلى الإنسان، تبعاً لمثالنا العرفي السابق، أن:

أولاً: يشارط نفسه على ما تفعله وما تتركه.

ثانياً: يراقبها دائماً وأبداً وفي كل الحالات ليرى مدى التزامها بما اشترطه عليها.

---

(١) الصف: ١٠.

ثالثاً: ثم إذا انتهت مدة المشارطة فعليه أن يحاسب نفسه ليرى ما عملته وما تخلفت عنه.

رابعاً وخامساً: فإذا تبين له عدم التزامها بما اشترطه عليها يعاتبها بل يعاقبها أيضاً على ذلك بأن يمنعها من شهواتها ولذاتها، لا سيما في موارد تقصيرها.

إن العمل وفق هذا المثال أمر مقدور لكل أحد ولا يحتاج إلى قوة عظيمة لأدائه إن أحسن الإنسان التدرج فيه مراعياً طاقته وقدرته.

وقد تعرض السيد الإمام قدس سره إلى هذا البحث العملي حيث حدد ثلاثاً من هذه المراحل بقوله: (**ومن الأُمور الضرورية للمجاهد المشارطة والمراقبة والمحاسبة**).

المشارطة

ثم بيّن (قدس سره) هذه المراحل الثلاث بإيجاز مبتدئاً بالمشارطة حيث قال: (**فالمشارط هو الذي يشارط نفسه في أول يومه على أن لا يرتكب اليوم أي عمل يخالف أوامر اللّه ويتخذ قراراً بذلك ويعزم عليه**) وأمر العزم هذا يعود لكلٍّ بحسبه. فمن كان تاركاً لبعض الواجبات أو فاعلاً لبعض المحرمات، عليه أن يعزم على فعل كل الواجبات وترك كل المحرمات، ومن وصل إلى الحد الذي لايترك واجباً ولا يفعل محرماً لابد أن يعزم على الانتقال إلى المرحلة التي لا يترك فيها مستحباً ولا يفعل مكروهاً، ومن وصل إلى هذه المرحلة عليه أن يصمم على عدم فعل المباح بل يفعل كل أعماله بنية القربة، حتى إذا وصل إلى هذه الدرجة من التقوى عزم على الانتقال إلى باطنه من أجل أن يمرّن نفسه على أن لا تفكر بمعصية أبداً لا أن تفعلها، وهكذا كلما صعد مرتبة من مراتب العبادة التي سبقت الإشارة إليها تطلّع

إلى المرتبة والدرجة الأعلى وعزم عليها.

فلابد للمشارط ـ إذن ـ من تحديد موقعه أولاً فإذا حدده انتقل إلى الخطوة التالية فيشترط على نفسه ـ مثلاً ـ ترك ما يخالف أمر اللّه ليوم واحد (**وواضح أن ترك ما يخالف أوامر اللهّ ليوم واحد أمر يسير للغاية ويمكن للإنسان بيسر أن يلتزم به**) وإن اختلفت درجة يسره من بعض إلى بعض (**فاعزم وشارط وجرّب، وانظر كيف أن الأمر سهل يسير**) فإن اللّه تعالى ييسر العبد لليسرى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[1] إذا عزم على ذلك.

فلو أخلص الإنسان يوماً استطاع أن يخلص يومين ثم ثلاثة وهكذا حتى يتحقق فيه مصداق: «**من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**».[2]

ومن التزم بالطهارة يوماً ثم يومين ثم ثلاثة إلى أن أصبح الالتزام بالطهارة حالة دائمية له فسوف يتحقق بحقه قول الرسول صلى الله عليه وآله: «**أدم الطهارة يدم عليك رزقك**»[3] فإن كانت طهارته طهارة ظاهرية فرزقه رزق ظاهري، وإن كانت باطنية قلبية فرزقه باطني وهي معارف أهل البيت عليهم السلام.

ولو تتبع الإنسان هذا الأمر فسوف يجد الكثير الكثير من الموارد المشابهة القابلة لأن يجربها الإنسان، ويحصل من خلال التزامه بالأعمال الحسنة وبصورة تدريجية على كثير من الخيرات والبركات المادية والمعنوية.

---

(١) الليل: ٧.

(٢) مسند الشهاب، للقاضي القضاعي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٤٠٥، ١ : ٢٨٥ / ٤٦٦.

(٣) عوالي اللآلي، ١ : ٢٦٨ / ٧٢ .

ومع كل هذا لا ينبغي للإنسان أن يحمّل نفسه فوق طاقتها بل عليه أن يبدأ بالأعمال البسيطة والسهلة والمحدودة لا الأعمال الشاقة والصعبة التي يعجز عن القيام بها فييأس ويترك العمل، كما لا ينبغي له تجاوز مراحل ودرجات السير دفعة واحدة بل عليه الارتقاء درجة درجة ومرحلة مرحلة، والروايات الدالة على هذا المعنى كثيرة، منها:

* عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**إن الله عزّ وجلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم: على البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثم قسّم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل، وقسّم لبعض الناس السهم ولبعض السهمين ولبعض الثلاثة حتى انتهوا الى السبعة**».

ثم قال: «**لا تحملوا على صاحب السهم سهمين ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم**».

ثم قال: «**كذلك حتى انتهوا الى السبعة**»[1].

* وعن عبد العزيز القراطيسي، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**يا عبد العزيز، إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السُلّم يصعد منه مرقاة بعد أُخرى فلا يقولن صاحب الاثنين لصاحب الواحد: لست على شيء حتى ينتهي الى العاشر، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملن عليه ما لايطيق فتكسره، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره**»[2].

* عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إن رجلاً كان له جار وكان نصرانياً فدعاه إلى**

(١) أُصول الكافي، الكليني، ج ٢، باب درجات الإيمان ـ ص ٣٥ ـ ح ١.
(٢) أُصول الكافي، للكليني، ج ٢، باب آخر من درجات الإيمان ـ ص ٣٧ ـ ح ٢.

الإسلام وزيّنه له، فأجابه، فأتاه سُحيراً فقرع عليه الباب، فقال له: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ فقال: توضأ والبس ثوبيك ومرّ بنا إلى الصلاة، قال: فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه، قال: فصلّيا ما شاء الله ثم صلّيا الفجر ثم مكثا حتى أصبحا، فقام الذي كان نصرانياً يريد منزله، فقال له الرجل: أين تذهب؟ النهار قصير، والذي بينك وبين الظهر قليل.

قال: فجلس معه الى أن صلى الظهر، ثم قال: وما بين الظهر والعصر قليل، فاحتبسه حتى صلى العصر.

قال: ثم قام وأراد أن ينصرف إلى منزله، فقال له: إن هذا آخر النهار وأقل من أوله، فاحتبسه حتى صلى المغرب، ثم أراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنما بقيت صلاة واحدة.

قال: فمكث حتى صلَّى العشاء الآخرة ثم تفرقا، فلما كان سُحيراً غدا عليه فضرب عليه الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ قال: توضأ والبس ثوبيك واخرج بنا نصلي، قال: اطلب لهذا الدين من هو أفرغ منّي وأنا إنسان مسكين وعليّ عيال.

فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: أدخَلَهُ في شيء أخرجه منه.

أو قال: أدخله من مثل ذه وأخرجه من مثل هذا»[1].

(ومن الممكن أن يصوّر لك إبليس اللعين وجنده أن الأمر صعب وعسير، فادرك أن هذه هي من تلبيسات هذا اللعين، فالعنه قلباً وواقعاً، وأخرج الأوهام الباطلة من قلبك، وجرّب ليوم واحد، فعند ذلك ستصدّق هذا الأمر).

---

(١) أُصول الكافي، الكليني، ج ٢، باب درجات الإيمان، ص ٣٥، ح ٢.

وقد أشار الفيض الكاشاني قدس سره إلى بعض المطالب المفيدة المرتبطة ببحث المشارطة والتي هي عنده المقام الأول من مقامات المرابطة؛ إذ إن الإنسان في جهاد ولابد للجهاد من رباط وإن كان جهاداً أصغر، فكيف به إذا كان جهاداً أكبر. قال قدس سره في هذا المقام: «فتحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد»[١].

فبهذا النفس الذي صعد كان بإمكان الإنسان أن يقول كلمة قبيحة فيعاقب عليها، أوكلمة خيرة فيثاب عليها، أو يسكت فلا يثاب ولا يعاقب، ولكنه يخسر لأن «انقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا يسمح به عاقل فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته. فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح»[٢].

وهذا كالثلج في اليوم الحار الذي يذوب ويتحول إلى ماء وينتهي وتخسره في كل آن آن شئت أم أبيت، إلاّ أن تبيعه وتأخذ ثمنه، وهكذا العمر الذي ينصرم آناً بعد آن، فلو تاجرت به مع اللّه تبارك وتعالى فلن تخسر وإن انتهى؛ لأن أجرك محفوظ عند اللّه وأن ثواب ما قمت به من أعمال صالحة خلال عمرك ستجده

(١) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني، ج ٨، كتاب المراقبة والمحاسبة، المقام الأول: ١٥١.
(٢) المصدر نفسه.

مضاعفاً عند أكرم الأكرمين.

ثم على الإنسان أن يخاطب نفسه بعد ذلك قائلاً لها: «وهذا اليوم الجديد قد أمهلني اللّه عزّ وجلّ فيه وأنسأ في أجلي وأنعم به عليّ ولو توفّاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك توفيت ثم رددت فإياك أن تضيّعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر: (**إنه ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي في تلك الساعة فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلة عند الملك الجبار ما لو وزّع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار، ثم يفتح له خزانة أُخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أُخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوؤه**) وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوّها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبناً، وهكذا يعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره»[1].

ولهذا تجدون في حواشي مفاتيح الجنان ـ للشيخ القمي قدس سره ـ أن أهل البيت عليهم السلام قد ذكروا لكل ساعة من ساعات اليوم الأربع والعشرين عملاً معيناً، هو تلك الخزانة من النور التي تكون نعيماً دائماً للإنسان يوم القيامة.

---

(١) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني، ج ٨، كتاب المراقبة والمحاسبة، المقام الأول: ١٥١.

المراقبة

(وبعد هذه المشارطة عليك أن تنتقل إلى المراقبة، وكيفيتها هي أن تنتبه طوال مدة المشارطة إلى عملك وفقها، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شرطت) وقد كان علماؤنا الكبار يشارطون ويعاهدون اللّه على فعل ما أو ترك ما وينذرون الصيام لمدة سنتين ـ مثلاً ـ لو خالفوا شرطهم، وبذلك يكون مثل هذا النذر مانعاً لهم عن مخالفة الشرط، لأن ثقل الجريمة والعقاب يشكل رادعاً للإنسان عن ارتكاب المخالفات. وما ترك الكثير منّا للأعمال التي يترتب عليها حدّ شرعي وارتكابنا للمحرمات الأُخرى كالغيبة مثلاً مع كونها أعظم من سابقتها إلاّ بسبب الحدود الشرعية المترتبة على تلك وعدم ترتب حد أو جزاء عاجل على الغيبة.

وعلى هذا، فلو خلا عمل محرم من جزاء عاجل فضع أنت لنفسك جزاءً عاجلاً لترتدع عن ذلك العمل المحرم.

(وإذا حصل ـ لا سمح اللهّ ـ حديث لنفسك بأن ترتكب مخالفاً لأمر الله، فاعلم أن ذلك من عمل الشيطان وجنده، فهم يريدونك أن تتراجع عمّا اشترطته على نفسك، فالعنهم واستعذ بالله من شرهم، وأخرج تلك الوساوس الباطلة من قلبك، وقل للشيطان: إني اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم ـ وهو يوم واحد ـ بأي عمل يخالف أمر اللهّ تعالى، وهو ولي نعمتي طول عمري، فقد أنعم وتلطّف عليّ بالصحة والسلامة والأمن وألطاف أُخرى).

وسيأتي بيان هذا الأمر في فصل (التذكر) بالتفصيل.

ثم قل للشيطان: **(ولو أني بقيت في خدمته إلى الأبد لما أديت حق واحدة منها،**

وعليه فليس من اللائق أن لا أفي بشرط كهذا. وآمل ـ إن شاء الله ـ أن ينصرف الشيطان ويبتعد عنك وينتصر جنود الرحمن.

والمراقبة لا تتعارض مع أي من أعمالك كالكسب والسفر والدراسة، فكن على هذه الحال إلى الليل ريثما يحين وقت المحاسبة) لأن الإنسان إذا استطاع تحويل الخصال الحسنة والأعمال الصالحة فيه إلى ملكات فإنه سوف يزاولها بعد ذلك من دون أن تتعارض مع أي كسب أو سفر أو عمل له وإن عانى من الالتزام بها في بداية الأمر أي قبل أن تتحول إلى ملكات فيه.

المحاسبة

(وأما المحاسبة فهي أن تحاسب نفسك لترى هل أديت ما اشترطت على نفسك مع الله، ولم تخن ولي نعمتك في هذه المعاملة الجزئية؟ إذا كنت قد وفّيت حقاً، فاشكر اللهّ على هذا التوفيق، وإن شاء اللهّ ييسّر لك سبحانه التقدم في أُمور دنياك وآخرتك وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه) جزماً لأن النفس مطواعة كالشمع لا كالحديد، فعليك أن تطوّعها في أُمور الخير دون الشر، وإذا وجدتها مطواعة في أُمور الشر فاعلم أنك أنت السبب في ذلك.

كما أن النفس في مرحلة الطفولة أكثر طواعية منها في مرحلة الكبر، ولذا قالوا: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر»، أما حين يكبر الإنسان فإن حالة الانفعال والأخذ تضعف فيه وتشتد ملكاته الموجودة فيه فعلاً، فلو كانت ملكاته رديئة ـ لا سمح اللّه ـ فسيصعب قلعها، وهذا معنى قولهم: إذا بلغ الإنسان أواخر عمره وهو على معصيته فإنه لا يوفق للتوبة، إذ ليس معنى ذلك أن اللّه تعالى لن

يقبل توبته، بل معناه أنه غير قادر على التوبة، فعلى الإنسان أن يغتنم شبابه قبل هرمه.

وعلى كل حال، فإنك إن كنت تريد الحصول على غرضك وهدفك **(فواظب على هذا العمل)** الذي اشترطته على نفسك **(فترة والمأمول أن يتحول إلى ملكة فيك بحيث يصبح هذا العمل بالنسبة إليك سهلاً ويسيراً للغاية)** بنحو تنعكس فيه المعادلة فلا تستطيع بعد ذلك أن تعمل ولا حتى أن تفكر في الحرام الذي هو على خلاف الملكة التي حصلت في نفسك.

ومن هنا فإن الأئمة عليهم السلام يقومون بالواجبات ويتركون المحرمات بيسر لأن تلك الأعمال صارت جزءاً من وجودهم، وتجاوزت مرحلة الملكة إلى مرحلة الاتحاد.

إن المواظبة على الأعمال الحسنة تحوّلها إلى ملكات فيك **(وستحس عندها باللذة والأُنس في طاعة الله تعالى وترك معاصيه، وفي هذا العالم بالذات، في حين إن هذا العالم ليس هو عالم الجزاء لكن الجزاء الإلهي يؤثر ويجعلك مستمتعاً وملتذاً بطاعتك لله وابتعادك عن المعصية)** وستحصل على الجزاء في هذه الدنيا بالإضافة إلى الجزاء الأُخروي الذي سينكشف لك فيه حقيقة تلك اللذائذ التي لا تعادلها لذة.

(واعلم أن الله لم يكلّف ما يشق عليك به، ولم يفرض عليك مالا طاقة لك به ولا قدرة لك عليه)؛ إذ ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[1] فلم يفرض عليك الواجبات إلاّ وأنت قادر على الإتيان بها ولم يحرم عليك المحرمات إلاّ وأنت قادر على الانتهاء عنها **(ولكن الشيطان وجنده يصوّرون لك الأمر وكأنه شاق وصعب.**

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

وإذا حدث ـ لا سمح اللّه ـ في أثناء المحاسبة تهاون وفتور تجاه مااشترطت على نفسك، فاستغفر اللّه واطلب العفو منه، واعزم على الوفاء بكل شجاعة بالمشارطة غداً، وكن على هذا الحال كي يفتح اللّه تعالى أمامك أبواب التوفيق والسعادة، ويوصلك إلى الطريق المستقيم للإنسانية).

مرحلتا المعاتبة والمعاقبة

لم يتعرض السيد الإمام قدس سره في بحثه الشريف إلى مرحلتي المعاتبة والمعاقبة، غير أن جملة من العلماء الآخرين قد تعرضوا لها، من بينهم الفيض الكاشاني في محجته، إذ بيّن في المرابطة الرابعة أن الإنسان بعد أن يشرط على نفسه الشروط يراقبها فيما شرطه عليها ثم يحاسبها، فإن وجدها غير ملتزمة بما شرطه عليها فلابد أن يعاقبها على ذلك من أجل أن تتم صفقته ويجني ثمارها وإلا قد ينتبه في آخر المطاف فإذا به قد خسر حياته وأتلف رأس ماله في صفقة غير رابحة وتجارة لم يجنِ منها سوى الخسران، ومن هنا يتعجب قدس سره ممن يترك معاقبة نفسه على عدم التزامها فيقول: «والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خُلُق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم خرج أمرهم من يدك وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عداوة لك وضراوة، وأشد طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم ضرراً من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن نعيم الجنة هو النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي أولى بالمعاقبة من غيرها»[1].

---

(١) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني، ج ٨، باب المراقبة والمحاسبة، المرابطة الرابعة: ١٦٩.

عقوبة كل شيء بحسبه

ولابد أن تكون عقوبة كل شيء بحسبه، فإن كان عدم الالتزام بالشرط ـ والذي نصفه بالخيانة لأنه خيانة لذلك الشرط ـ هو من فعل اليد فلابد أن تكون المعاقبة مرتبطة بها، وإذا كانت الخيانة مرتبطة بالطعام والشراب فلابد أن يعاقب نفسه بعقوبة مرتبطة بهما فيمنعها من الطعام والشراب، وهكذا حتى لو كان الشرط مرتبطاً بمستحب من المستحبات كشرطه على نفسه أن يقوم لصلاة الليل، فإن لم يفِ بشرطه فعليه أن يعاقب نفسه على ذلك بأن يطيل سهرها في الليالي ويسلبها الراحة حتى تتعود على القيام بذلك العمل المستحب الذي شرطه عليها.

وإلى هذا أشار الفيض الكاشاني قدس سره بقوله: «مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق اللّه فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنس بها وعسر عليها فطامها وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها» وعقوبة كل شيء بحسبه «فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه من شهوته، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة»[1].

---

(١)المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني، ج ٨، باب المراقبة والمحاسبة، المرابطة الرابعة: ١٦٨.

العقوبة تتم وفق الموازين الشرعية

ولا يتبادر إلى ذهن الإنسان أن باستطاعته أن يعاقب نفسه بأي نوع من العقاب يختاره، بل لابد للعقاب أن يكون ضمن الموازين الشرعية التي أجازها الشرع المقدس، وقد أورد الفيض الكاشاني قصة حدثت في زمن الرسول صلى الله عليه وآله تضمنت هذا المعنى، قال: «وعن طلحة قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه: ذوقي وعذاب جهنم أشد حراً. أجيفة بالليل بطالة بالنهار؟ قال: فبينا هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وآله فى ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: **ألم يكن بد من الذي صنعته؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء وباهى الله عزّ وجلّ بك الملائكة**. ثم قال لأصحابه: **تزوّدوا من أخيكم، فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لي، يا فلان ادع لي**، فقال صلى الله عليه وآله: **عمّهم**، فقال: **اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم**، فجعل النبي صلى الله عليه وآله يقول: **اللهم سدِّده**، فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم»[1].

(١) المصدر نفسه.

فصل

في التذكر

(ومن الأُمور التي تعين الإنسان ـ وبصورة كاملة ـ في مجاهدته للنفس والشيطان) والنفس هنا المراد بها النفس الأمّارة بالسوء وهي القوى الشهوية والغضبية وليس مطلق النفس التي تشمل العاقلة أيضاً، ومن الأُمور المهمة في مجاهدتها **(والتي ينبغي للإنسان السالك المجاهد الانتباه إليها جيداً هو التذكر، وبذكره نختم الحديث عن هذا المقام)** وهو المقام الأول من البحث والمختص ببحث القوى الظاهرية السبعة في مملكة البدن، وأما المقام الثاني فهو في القوى الباطنية وهي القوى العاقلة والواهمة والمتخيلة ونحو ذلك، وعلى كل حال فسنختم الحديث **(على الرغم من أنه لازال هناك الكثير من المواضيع)**.

تعريف الذكرى

(والذكرى في هذا المقام هي عبارة عن ذكر اللهّ تعالى ونعمائه التي تلطف بها على الإنسان).

احترام المنعم والكبير والحاضر من الأُمور الفطرية

إن الهدف من التذكر هو شكر وتعظيم وطاعة اللّه تبارك وتعالى، وقد جبل الإنسان بفطرته على احترام وشكر وتبجيل المنعم والكبير والحاضر.

وقد تعرض السيد الإمام قدس سره لهذا البحث ونبّه إلى أنه يجب على الإنسان شكر اللّه تعالى وطاعته بلحاظ هذه الأُمور جميعها، وتوضيح ذلك كالآتي:

أولاً: احترام المنعم من الأُمور الفطرية

(واعلم أن احترام المنعم وتعظيمه هو من الأُمور الفطرية التي جُبِلَ الإنسان عليها والتي تحكم الفطرة بضرورتها) حيث فطر الإنسان على أن يشكر ويبجل ويحترم من ينعم عليه، ولا يختلف في هذا الأمر اثنان إلاّ من كان سقيم العقل، منحرف الفطرة **(وإذا تأمل أي شخص في كتاب ذاته)** أي في نفسه وفي قواه التي أنعم اللّه بها عليه **(لوجده مسطوراً فيه أنه يجب تعظيم من أنعم نعمة على الإنسان)**، وهذا هو الكتاب الذي سينشر للإنسان يوم القيامة، ويقال له: ﴿**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾[1].

(وواضح أنه كلما كانت النعمة أكبر وكان المنعم أقل غرضاً، كان تعظيمه أوجب وأكثر، حسب ماتحكم به الفطرة، فهناك ـ مثلاً ـ فرق واضح في الاحترام والتقدير بين شخص يعطيك «حصاناً» تلاحقه عيناه ويرمي من ورائه شيئاً، وبين الذي يهبك مزرعة كاملة ولا يمنّ عليك. أو ـ مثلاً ـ إذا أنقذك طبيب من العمى فستقدّره وتحترمه بصورة فطرية، وإذا أنقذك من الموت كان تقديرك واحترامك له أكثر) فكبر النعمة وعظمتها موجب وبصورة فطرية لعظمة وشدة التبجيل والاحترام والشكر لصاحبها والمنعم لها، ومن هنا لو تذكر الإنسان والتفت إلى النعم التي لاتعدّ ولاتحصى التي أنعم اللّه تبارك وتعالى عليه ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾[2] فسيدرك أن شكره

---

(١) الإسراء: ١٤.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

وتقديره وإجلاله وطاعته وانقياده لله تبارك وتعالى لابد وأن ينسجم مع هذه النعمة اللامتناهية التي أنعم اللّه تعالى بها عليه.

أمثلة من نعم الله تبارك وتعالى

(لاحظ الآن أن النعم الظاهرة والباطنة التي تفضل بها علينا ملك الملوك جلّ شانه لو اجتمع الجن والإنس لكي يعطونا واحدة منها لما استطاعوا، وهذه حقيقة نحن غافلون عنها.

فمثلاً هذا الهواء الذي ننتفع به ليلاً ونهاراً، وحياتنا وحياة جميع الموجودات مرهونة به، بحيث لوفقد مدة ربع ساعة لما بقي هناك حيوان على قيد الحياة، هذا الهواء كم هو نعمة عظيمة، يعجز الجن والإنس جميعاً عن منحنا مثيلاً لها لو أرادوا أن يمنحونا ذلك.

وعلى هذا فقس وتذكر قليلاً كافة النعم الإلهية مثل سلامة البدن والقوى الظاهرية من قبيل البصر والسمع والتذوق واللمس، والقوى الباطنية مثل التخيل والواهمة والعقل وغير ذلك حيث يكون لكل واحدة من هذه النعم منافع خاصة لا حدّ لها، وجميع هذه النعم وهبنا مالك الملوك إياها دون أن نطلب منه أو يمنّ علينا.

ولم يكتفِ بهذه النعم بل أرسل الأنبياء والرسل والكتب وأوضح لنا طريق السعادة والشقاء والجنة والنار).

نعمة الله علينا من غير حاجة إلينا

لقد أنعم الله تبارك وتعالى علينا بالنعم التي لاتعدّ ولاتحصى (ووهبنا كل ما نحتاجه في الدنيا والآخرة دون أن يكون فقيراً ومحتاجاً إلى طاعتنا وعبادتنا، فهو

سبحانه لاتنفعه الطاعة ولاتضره المعصية، وطاعتنا ومعصيتنا بالنسبة له على حدّ سواء) وبهذا امتاز إنعام اللّه تبارك وتعالى على إنعام غيره من البشر، إذ إن الإنسان ـ في الأعم الأغلب ـ لا ينعم على غيره إلاّ لغرض وغاية دنيوية أو أُخروية. ولكن اللّه سبحانه وتعالى ولعظيم حبّه لأهل مملكته أنعم عليهم بما أنعم من دون غاية يرتجيها عندهم أو حاجة فيه إليهم بل إن إيمانهم وكفرهم وطاعتهم ومعصيتهم على حدّ سواء لديه.

غير أن هذا لا يعني أن المعصية كالطاعة محبوبة ومرضية عنده سبحانه، بل أمر سبحانه وتعالى بالطاعة لأنه يريدها ويحب العامل بها ﴿**إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[1] ونهى عن المعصية لأنه لا يريدها ولا يحب العامل بها، بل معنى أن طاعتنا ومعصيتنا بالنسبة إليه عزّ وجلّ على حدّ سواء: أن طاعة المطيع لا تزيد في ملكه شيئاً ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَّ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[2] وأن معصية العاصي لا تنقص منه شيئاً ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَّ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[3].

ولا ينبغي أن يتبادر لذهنك أن حبّ اللّه تعالى لعباده الذي هو منشأ كل النعم التي أنعمها عليهم هو كحبك وعطفك وإنعامك على المسكين الذي يدفعك لمساعدته وللرأفة به لأن في مساعدتك هذه دفعاً للألم النفسي الذي تشعر به حيال هذا المسكين فهي فائدة لك أولاً وبالذات ومن ثم فهي مساعدة له في المرتبة الثانية، بينما حبّه تعالى لعباده وإنعامه العظيم عليهم لا يعود بأي فائدة عليه عزّ وجلّ أبداً، بل كل ذلك من أجل فائدة المنعَم عليهم وحدهم.

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) العنكبوت: ٦.

(٣) آل عمران: ٩٧.

العبودية لله توحيد وتكامل ولغيره شرك ونقصان

أشرنا سابقاً إلى أن اللّه تبارك وتعالى لم يأمرنا بالعبادة ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[1] ولم ينهانا عن المعصية لمنفعته وخيره عزّ وجلّ (**بل من أجل خيرنا ومنفعتنا نحن يأمر وينهى**) ومن هنا يتضح لنا أمر أساسي ومهم وهو: أن العبودية إذا كانت لغير اللّه فهي نقص بالنسبة إلى الإنسان وكفر وتؤدي به إلى النار لأن المولى هنا ـ وحسب مايقوله علماؤنا قدست أسرارهم ـ لا يستعبد غيره إلاّ من أجل أن ترجع الفائدة إليه أولاً وبالذات، وإن رجع بعضها إلى العبد ثانياً وبالعرض.

وأما العبودية لله عزّ وجلّ فهي توحيد وكمال بل أفضل مراتب كمال الإنسان لأن فائدة عبوديته ترجع إليه كلها ولا حاجة لله تعالى فيها، ففي عبوديته لله تعالى حريته وتساميه وعلوّه.

ومن هنا خاطب اللّه نبيّه في أول سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً**... ﴾[2] ولم يقل «أسرى بنبيّه أو برسوله أو بوليّه» لأن العبودية هي منشأ النبوّة والرسالة ومبدأ الولاية.

ومن هنا نقول: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» فنشهد بعبوديته صلى الله عليه وآله لله تبارك وتعالى أولاً ثم بالرسالة والولاية له صلى الله عليه وآله ثانياً.

وعلى كل حال، فإن الإنسان (**وبعد تذكر هذه النعم والكثير الكثير من النعم الأُخرى التي يعجز حقاً جميع البشر عن إحصاء الكليات منها، فكيف يعدها**

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) الإسراء: ١.

واحـداً واحـداً؟ بعـد ذلـك يطـرح الـسؤال التـالي: ألا تحكـم فطرتـك بوجـوب تعظيم منعم كهذا، وماهو حكم العقل تجاه خيانـة ولي نعمـة كهـذا؟!) وارتكـاب الـذنب ومعصيته؟

ثم إن المعصيّ هنا هو أكبر من كل كبير وهو جبـار الـسماوات والأرض، فـلا مجال لتقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، بل هي كلها- وبلحاظ المعصي عـزّ وجـلّ - ذنوب كبيرة.

ثانياً: احترام الكبير من الأُمور الفطرية أيضاً

(ومن الأُمور الأُخرى التي تقرها الفطرة احترام الشخص الكبير العظيم، ويرجـع كل هذا الاحترام والتقدير الذي يبديه الناس تجاه أهل الدنيا والجـاه والثـروة والـسلاطين والأعيان، يرجع إلى أنهم يرون أُولئك كباراً وعظماء).

فمن يتعرف علـى عظمـة اللّه سبحانه وتعـالى وكونـه لا كبيـر أكبـر منـه ولا عظيم أعظم منه **(فأي عظمة تصل إلى مستوى عظمة مالك الملوك الذي خلق هذه الـدنيا الحقيرة الوضيعة والتي تعتبر من أصغر العوالم وأضيق النشآت، رغم كل ذلك لم يتوصـل عقل أي موجود إلى إدراك كنهها وسرّها حتى الآن، بل ولم يطلع كبار المكتشفين في العـالم بعد على أسرار منظومتنا الشمسية هذه، وهي أصغر المنظومات ولا تعد شيئاً قياساً بباقي الـشموس)** فحـين يتعـرف ويطلـع الإنـسان علـى كـل هـذا **(أفـلا يجـب)** عليـه **(احـترام وتعظـيم هـذا العظـيم الـذي خلـق العـوالم وآلاف الآلاف مـن العـوالم الغيبيـة بإيماءة؟)**.

ثم إن من اطلع على هذا الأمر وعظّم الخـالق فـي قلبـه وعينـه، هـان عليـه كـل شـيء دونـه وصـغر فـي عينـه، وامتنـع عـن ارتكـاب أي معـصية فـي حقـه سـواء فـي

الخلأ أو الملأ.

أما من صغر الخالق في قلبه فإن كل شيء دونه يعظم في عينه، ثم يهون عليه بعد ذلك ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب.

ثالثاً: احترام الحاضر من الأُمور الفطرية كذلك

(ويجب أيضاً بالفطرة احترام من يكون حاضراً، ولهذا ترى بأن الإنسان إذا تحدث ـ لا سمح الله ـ عن شخص بسوء في غيبته، ثم حضر في أثناء الحديث ذلك الشخص، اختار المتحدث حسب فطرته الصمت وأبدى له الاحترام.

ومن المعلوم أن الله تبارك وتعالى حاضر في كل مكان وتحت إشرافه تعالى تُدار جميع ممالك الوجود بل إن كل نفس تكون في حضرته الربوبية وكل علم يوجد ضمن محضره سبحانه وتعالى) وهو (تعالى) ـ كما قلنا سابقاً ـ قريب دائم الحضور مع الإنسان أينما كان ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾[1].

فإذا كان أحد الأُمور الموجبة للاحترام والتبجيل بحكم الفطرة هو الحضور فأي حضور أتم وأكمل من حضوره عزّ وجلّ حتى نرتكب المعاصي ونقارف الآثام من دون احترام لحضرته المقدسة.

ولذا فعلى الإنسان أن يخاطب نفسه قائلاً: **(فتذكري يانفسي الخبيثة أي ظلم عظيم تقترفين إذا عصيت مثل هذا العظيم في حضرته المقدسة وبواسطة القوى التي هي نعمه الممنوحة لك؟ ألا ينبغي أن تذوبي من الخجل وتغوري في الأرض لو كان لديك ذرّة من الحياء؟).**

---

(١) الحديد: ٤.

تذكرة

(إذاً فيا أيها العزيز، كن ذاكراً لعظمة ربك، وتذكّر نعمه وألطافه، وتـذكّر أنـك في حضرته ـ وهو شاهد عليك ـ فدع التمرد عليه، وفي هذه المعركة الكبرى تغلب على جنـود الشيطان، واجعل من مملكته مملكة رحمانية وحقانية، وأحلل فيها عسكر الحـق تعـالى محـل جنود الشيطان، كي يوفقك اللهّ تبارك وتعالى في مقام مجاهـدة أُخـرى، وفي ميـدان معركـة أكبر تنتظرنا وهي الجهاد مـع الـنفس في العـالم البـاطن، وفي المقـام الثـاني للـنفس، وهـذا ماسنشير إليه لاحقاً إن شاء الله.

وأُكرر التذكير بأنه في جميع الأحوال لا تعلق على نفسك الآمال لأنه لا ينهض أحد بعمل غير اللهّ تعالى، فاطلب من الحق تعالى نفسه بتـضرّع وخـشوع كـي يعينـك في هـذه المجاهدة لعلك تنتصر، إنه ولي التوفيق).

المقام الثاني
وفيه عدة فصول أيضاً

فصل:
صراع جنود الرحمن مع جنود الشيطان
الباطنية والنفسية

(اعلم أن للنفس الإنسانية مملكة ـ عالماً ـ ومقاماً آخر وهو مملكتها الباطنية ونشأتها الملكوتية) لما تقدم من أن للإنسان ظاهراً وباطناً، وكما أن لظاهره قوى من يد ورجل وسمع وبصر و...فلباطنه قوى أيضاً وهي الشهوية والغضبية والوهمية.

وقد انصب البحث في المقام الأول للنفس على مقام ومنزل الملك والظاهر وعالمهما.

أما في هذا المقام فإن الحديث مختص بمقام وعالم النفس الآخر وهو مملكتها الباطنية ونشأتها الملكوتية، حيث تعرّض السيد الإمام قدس سره في الفصل الأول من فصول هذا المقام إلى بيان صراع جنود الرحمن مع جنود

الشيطان الباطنية والنفسية.

وقد سميت قوى الإنسان المختلفة بجنود الرحمن وجنود الشيطان لأن الحديث حديث عن الجهاد الأكبر، ومقتضى الجهاد هو حدوث معركة بين طرفين لكل منهما جنوده الخاصون به، وهذه التسمية هي من قبيل ما أشرنا إليه سابقاً من استخدام الفيض الكاشاني قدس سره في بحوث مراقبة النفس ومحاسبتها لكلمة «المرابطة» التي تستخدم في حالات الحرب والجهاد ومرابطة الجيش قبال العدو.

كما سبقت الإشارة إلى أن جنود الرحمن هم جنود العقل وأن جنود الشيطان هم جنود الجهل، فلابد من التعرف على حقيقة العقل والجهل وجنودهما، من أجل معرفة طبيعة الصراع الدائر بينهم، وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «..**اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا**»[1]، فبدون معرفة قائد المعركة لأطراف النزاع وللجند المشتركين فيها وتشخيصه لقابلياتهم ومهاراتهم وعددهم وقوتهم وضعفهم وأماكن وجودهم وماشابه ذلك، لا يتمكن من إدارة المعركة بصورة صحيحة والاستفادة من قوته في الوقت المناسب، مما يؤدي به إلى خسارة المعركة وهزيمته.

حقيقة العقل

تعرضت الكثير من الروايات الشريفة لبيان حقيقة العقل؛ منها:

ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل**

---

(١) الكافي، للكليني، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ١٤.

فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتُكَ إلاّ فيمن أُحبُّ، أما إني إياك آمر وإياك أنهى وإياك أُعاقب وإياك أُثيب»[1].

وفي الرواية دلالة على أن العقل هو مدار الأحكام الإلهية، ومن لا عقل له لا تكليف عليه لأن العقل هو الشرط الأول من شرائط التكليف العامة.

وعن علي عليه السلام، قال: «**هبط جبرائيل عليه السلام على آدم عليه السلام فقال: يا آدم، إني أُمرت أن أُخيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين، فقال له آدم: يا جبرائيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم عليه السلام: إني قد اخترت العقل. فقال جبرائيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه فقالا: ياجبرائيل إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما. وعرج**»[2].

فالحياء والدين ـ إذن ـ يوجدان حيثما يوجد «العقل» فإذا وجدتم من لا حياء ولا دين له فاعلموا أن مثل هذا الإنسان لا عقل له.

أما إذا امتلك الإنسان عقلاً فإنه سيكون صاحب دين ـ حينئذ ـ وسيفوز بالجنة لا محالة، حتى ورد عن أبي عبد اللّه عليه السلام: «**من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة**»[3].

وعن محمد بن عبد الجبار عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد اللّه عليه السلام،

---

(١) الكافي، للكليني، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ١.
(٢) الكافي، للكليني، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ٢.
(٣) الكافي، للكليني، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ٦.

قال: قلت له: ما العقل؟ قال: «**ما عبد به الرحمن واكتسبت به الجنان**»[١].

فالعقل لا يكون عقلاً إلاّ إذا أدى إلى عبادة الرحمن في الجانب العلمي والنظري من حياة الإنسان وإلى اكتساب الجنان في البعد العملي منها.

حقيقة الجهل

ورد ذكر الجهل ـ أيضاً ـ والتعريف به في روايات عديدة، منها:

ما ورد عن سماعة بن مهران، قال: كنت عند أبي عبد اللّه عليه السلام وعنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل والجهل فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا**».

قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرفتنا.

فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**إن الله عزّ وجلّ خلق العقل وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي، ثم خلق الجهل من البحر الأُجاج ظلمانياً، فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فلم يقبل، فقال له: استكبرت، فلعنه.**

ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً. فلما رأى الجهل ما كرّم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة، فقال الجهل: يا رب، هذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقوّيته وأنا ضدّه ولا قوّة لي به فاعطني من الجند مثل ما أعطيته فقال: نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت فأعطاه خمسة وسبعين جنداً.

---

(١) الكافي، للكليني، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ٣.

فكان ممّا أعطي العقل من الخمسة والسبعين جنداً: الخير وهو وزير العقل وجعل ضدّه الشرّ وهو وزير الجهل، والإيمان وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الجحود، والرجاء وضده القنوط، والعدل وضده الجور، والرضا وضده السخط، والشكر وضده الكفران، والطمع وضده اليأس، والتوكل وضده الحرص، والرأفة وضدها القسوة، والرحمة وضدها الغضب، والعلم وضده الجهل، والفهم وضده الحمق، والعفة وضدها التهتك، والزهد وضده الرغبة، والرفق وضده الخرق، والرهبة وضدها الجرأة، والتواضع وضده الكبر، والتؤدة وضدها التسرع، والحلم وضده السفه، والصمت وضده الهذر، والاستسلام وضده الاستكبار، والتسليم وضده الشك، والصبر وضده الجزع، والصفح وضده الانتقام، والغنى وضده الفقر، والتذكر وضده السهو، والحفظ وضده النسيان، والتعطف وضده القطيعة، والقنوع وضده الحرص، والمؤاساة وضدها المنع، والمودة وضدها العداوة، والوفاء وضده الغدر، والطاعة وضدها المعصية، والخضوع وضده التطاول، والسلامة وضدها البلاء، والحب وضده البغض، والصدق وضده الكذب، والحق وضده الباطل، والأمانة وضده الخيانة، والإخلاص وضده الشوب، والشهامة وضدها البلادة، [والفهم وضده الغباوة، والمعرفة وضدها الإنكار] والمداراة وضدها المكاشفة، وسلامة الغيب وضدها المماكرة، والكتمان وضده الإفشاء، والصلاة وضدها الإضاعة، والصوم وضدها الإفطار، والجهاد وضده النكول، والحج وضده نبذ الميثاق، وصون الحديث وضده النميمة، وبر الوالدين وضده العقوق، والحقيقة وضدها الرياء، والمعروف وضده المنكر، والستر وضده التبرج، والتقية وضدها الإذاعة، والإنصاف وضده الحمية، والتهيئة وضدها البغي، والنظافة وضدها القذر، والحياء وضدها الجلع، والقصد

وضده العدوان، والراحة وضدها التعب، والسهولة وضدها الصعوبة، والبركة وضدها المحق، [والعافية وضدها البلاء]، والقوام وضده المكاثرة، والحكمة وضدها الهواء، والوقار وضده الخفة، والسعادة وضدها الشقاوة، والتوبة وضدها الإصرار، والاستغفار وضده الاغترار، والمحافظة وضدها التهاون، والدعاء وضده الاستنكاف، والنشاط وضده الكسل، والفرح وضده الحزن، والأُلفة وضدها الفرقة، والسخاوة وضده البخل.

فلا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل إلا في نبي أو وصي نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، وأما سائر ذلك من موالينا فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتى يستكمل وينقى من جنود الجهل فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء وإنما يدرك ذلك بمعرفة العقل وجنوده وبمجانبة الجهل وجنوده، وفقنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته»[١].

وقد بيّنت الرواية الشريفة أنّ الأمر الإلهي قد صدر إلى العقل بالإدبار والإقبال فاستجاب، وذلك قوله عليه السلام: «فقال له أدبر فأدبر ثمّ قال له أقبل فأقبل» أي أنزل من عندي إلى عالم الملك والمادة، وهو قوله تعالى ـ والله العالم ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[٢] أي أرجعناه إلى عالم المادّة والطبيعة، وحين يخرج الإنسان من بطن أُمّه فإنّه لا يعلم شيئاً (وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاتَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[٣] ثمّ بعد ذلك يأمره سبحانه بالإقبال والصعود والارتقاء إليه مرّة ثانية من

(١) الكافي، للكليني، ج١، كتاب العقل والجهل، ح١٤.
(٢) التين : ٥ .
(٣) النحل: ٧٨.

خلال تحصيل العلم والعمل الصالح ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[١].

أمّا الجهل فقد استجاب للإدبار والنزول إلى عالم الملك والمادّة والطبيعة ولكنّه ـ لاستكباره ـ رفض الإقبال والصعود والارتقاء مرّة ثانية، فلعنه الله تبارك وتعالى.

فالنزول وإن كان نزولاً بدون اختيار إلاّ أنّ الصعود صعود باختيار الإنسان وباستخدام عقله، وعليه يثاب، وبجهله يبقى في أسفل السافلين ويستحقّ العقاب.

ومن الواضح أنّ الجهل في هذه الرواية الشريفة أمر وجودي لا عدمي كما هو معروف في علم المنطق إذ عرّفوه بأنّه «عدم العلم» ولو كان أمراً عدمياً لما صحّ نسبة الجنود إليه في قوله عليه السلام: «**اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا**».

وإن في قوله عليه السلام حكاية عن الجهل «**وهذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقوّيته وأنا ضدّه**» دلالة على أنّ الجهل في قبال العقل، وأن النسبة بينهما نسبة «الضدّين» لا نسبة «الملكة وعدمها»، وفي هذا دلالة أخرى على أنّ «الجهل» أمر وجودي لأنّ الضدّين أمران وجوديان لا أنّ أحدهما وجوديّ والآخر عدمي.

ولوجود علاقة «الضدّ» بين العقل والجهل فإنّ بالإمكان التعرّف على الجهل وصفاته وخواصّه من خلال ما ذكرناه من معنى للعقل سابقاً، وهو ما تعرّض له العلاّمة المجلسي في (مرآة العقول) حيث ذكر للعقل عدّة معان، وما يهمّنا هو ما أورده في المعنى الثاني الذي يمكن التوصّل من خلاله إلى معنى الجهل أيضاً، حيث قال قدس سره: «العقل: ملكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار الخيرات والمنافع

(١) فاطر: ١٠.

واجتناب الشرور والمضارّ وبهما تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية»[١].

وهذا المعنى ينطبق مع ما أرادته الرواية الشريفة في قوله عليه السلام: «العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[٢]، فليس العقل هو مجرّد العلم بالخيرات وبالشرور فقد يكون الإنسان عالماً بهما ولكن ليس بعاقل، فلابدّ من العمل بالخيرات وترك الشرور ليكون الإنسان عاقلاً.

إنّ التركيز على هذا المطلب من الأهمّية بمكان، لأنّ بعضنا ـ ومع الأسف ـ يتصوّر أنّه وبمجرّد تعلّمه لأربعة مصطلحات في الفقه أو الأُصول أو التفسير أو الفلسفة أو العرفان أو الأخلاق أو أي علم من العلوم يتصوّر بأنّه قد أصبح عالماً وأنّه مشمول بالروايات التي ذكرت فضل العلم والعالم وأنّ الملائكة تفرش أجنحتها لطالب العلم... مع أنّ الروايات الواردة في هذا الباب تريد ذلك العلم المخصوص الذي يعني «العقل» لا مجرّد معرفة الاصطلاح.

فمن لم يتغيّر سلوكه بعد تعلّم العلم، بحيث كان قبل تعلّمه يغتاب الآخرين ـ مثلاً ـ أو يأتي إلى الصلاة وهو كسل غير مستحضر قلبه للخشوع أو غير ذلك من الأُمور التي لا يرغب الشارع فيها ولا يقرّها، ثمّ بقى على حاله بعد أن تعلّم ما تعلّم، لا يمكن أن يكون مصداقاً للعالم الذي أرادته الشريعة الإسلامية والذي ذكرت صفاته في كثير من الآيات والروايات، كالتي وردت عن أبي عبدالله عليه السلام حين سُئل عن تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾[٣] قال عليه السلام: «**يعني بالعلماء**

(١) مرآة العقول، للمجلسي ١: ٢٥.
(٢) الكافي، للكليني، ج١، باب العقل والجهل، ح٣.
(٣) فاطر: ٢٨.

من صدّق فعله قوله ومن لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم»[١].

فقد مدحت تلك الآيات والروايات العلم المقرون بالعمل، والعالم الذي يخشى الله تعالى ويتعلّم ما يتعلّم من أجل العمل فيطلب العلم الذي يهتف بالعمل، وهذا هو العقل في منطق أهل البيت عليهم السلام. وأمّا العلم بلا عمل فهو جهل وإن أسميناه علماً، وصاحبه جاهل وإن أسميناه عالماً.

ومن هنا عَنون الكليني قُدِّسَ سِرُّهُ أوّل كتاب من كتب أُصول الكافي بكتاب «العقل والجهل» والكتاب الثاني بكتاب «العلم» فجعل الجهل قبال العقل تبعاً لروايات أهل البيت عليهم السلام لا قبال «العلم» كما هو مشهور بيننا.

إن تعريف الجهل بأنّه «العلم بلا عمل» يؤيّد ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ الجهل أمر وجودي لا عدمي، ومن هنا كان له جنود ولكنّهم في خدمة الشيطان، وقد جاء في ذيل الرواية السابقة التي ورد فيها أنّ العقل «**ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان**» قال الراوي: «قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: **تلك النكراء، تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل**»[٢].

وكما أنّ العلم بلا عمل جهل فإنّ العمل بلا علم لا يزيد العامل به إلاّ ضلالاً، وكلّما أسرع في سيره، ابتعد عن طريق الحقّ.

وهذه العلاقة هي من قبيل العلاقة الموجودة بين كتاب الله وأهل البيت عليهم السلام في حديث الثقلين المتواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله وهي قوله: «**إنّي تارك فيكم الثقلين ما**

---

(١) الكافي، للكليني، ج١، كتاب فضل العلم، باب صفة العلماء، ح٢.
(٢) الكافي، للكليني، ج١، كتاب العقل والجهل، ح٣.

إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً»[١] فإذا وجدتم في مورد ما تأكيداً بشأن الولاية والتمسّك بأهل البيت عليهم السلام وغفلة عن القرآن الكريم فاعلموا أنّ هذه الولاية ليست هي الولاية المطلوبة وأنّ أهل البيت هؤلاء ليسوا هم مَن أمر الرسول صلى الله عليه وآله بالتمسّك بهم، واعلموا أنّ هذا المورد لا أمان له من الضلال والانحراف.

وهكذا لو وجدت طائفة تدعو إلى التمسّك بالقرآن وحده وتقول: كفانا كتاب الله، فإنّه لا أمان لمثل هذه الطائفة من الضلالة أيضاً. فلابدّ من التمسّك بالاثنين معاً (كتاب الله وهو الثقل الأكبر) و(أهل البيت عليهم السلام وهم الثقل الأصغر) لضمان النجاة من الضلالة والانحراف[٢].

العلم بلا عمل بالنسبة إلى الباطن كالقوى الظاهرة حين تكون في خدمة الهوى

إنّ العلم مع العمل هو من جنود الرحمن، وأمّا العلم بلا عمل ـ أيّ علم كان فقهاً أو أصولاً أو فلسفة أو أخلاقاً أو عرفاناً ـ فهو من جنود الشيطان وباب إلى النار، وهو بهذا يشبه القوى الظاهرية حين تكون في خدمة الهوى، حيث قلنا سابقاً إنّ هذه القوى إن كانت في خدمة العقل ومؤتمرة بأوامره فهي أبواب الجنان، وهي بذاتها أبواب النيران ودركات الجحيم إن كانت تحت إمرة الهوى والشهوة والغضب.

---

(١) بصائر الدرجات، للصفار: ٤٣٢، باب ١٧.

(٢) لعلّنا نوفّق في بحوث لاحقة ـ إن شاء الله ـ لبيان عدم تعارض ما ورد من أنّ القرآن الكريم هو الثقل الأكبر وأنّ أهل البيت عليهم السلام هم الثقل الأصغر وبين تصريح الإمام علي عليه السلام يوم صفّين حين رفعت المصاحف بأنّه عليه السلام هو القرآن الناطق وأنّه هو الصراط المستقيم، إذ ساوى بينه عليه السلام وبين القرآن الكريم.

ومن كلام للإمام علي عليه السلام يصف به هذه الحالة حيث يقول: «**وآخر قد تسمّى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهّال وأضاليل من ضلاّل ونصب للناس أشراكاً حبائل غرور وقول زور قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحقّ على هواه، يؤمّن الناس من العظائم ويهوّن كبير الجرائم، يقول: أقف عند الشبهات، وفيها وقع. ويقول: أعتزل البدع، وبينها اضطجع. فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان. لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، وذلك ميّت الأحياء**»[1]

فقد بيّن عليه السلام في كلامه الشريف هذا، أنّ العالم الذي لا يعرف إلاّ الاصطلاحات ليس بعالم بل هو مقتبس للجهل الذي لا يبتغي منه أمراً إلاّ أن يجعله من جند الشيطان ليصطاد به غيره من الناس، تماماً كما يفعل الصيّاد حين ينصب شراكه التي تختلف باختلاف الحيوانات من طير أو حيوان بحر أو برّ، وهكذا حينما يكون الصيد إنساناً، فإن كان يهوى روايات أهل البيت عليهم السلام وضع له المصيدة من خلال روايات أهل البيت عليهم السلام وإن كان يهوى العرفان فالشراك شراك عرفان، وعلى الصيّاد أن يصبح أستاذ عرفان وهكذا... فلا يترك وسيلة يمكن أن يتوسّل بها إلاّ استخدمها من أجل أن يصل إلى أغراضه الشيطانية، فيقوم بتفسير القرآن وفق هواه وشهواته ويغرر بالناس ليرتكبوا الآثام والذنوب ويتبع الشبهات ويسنّ البدع ويدعو إلى الضلال ويصدّ عن الهدى ويجانب عقله في كلّ تصرّفاته حتّى يكون إنساناً في صورته، وكالأنعام بل أضلّ سبيلاً في حقيقته، وحينئذ يصدق عليه أنّه ميّت الأحياء.

---

(١) نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام، ضبط الدكتور صبحي الصالح، الخطبة ٨٧، ص١١٩.

أقسام الجاهل

وينقسم الجاهل إلى قسمين تبعاً لمعرفته بالاصطلاحات العلمية وعدم معرفته بها، فهناك جاهل لا يعرف الاصطلاحات وهناك جاهل يعرفها.

والقسم الأخطر هو القسم الثاني لأنّ مثل هذا الجاهل يبرّر جهله ويتعذّر له بالأعذار والتبريرات العديدة مستعيناً في ذلك بما يعرفه وتعلّمه من الاصطلاحات، حتّى يقال إنّ أحد كبار العلماء كان يقول: لا أقبل أن يغتابني طلبة العلم وإن كنت أقبل أن يغتابني عوام الناس. وعندما سُئل عن السبب قال: لأنّ طالب العلم إذا قيل له لماذا تغتاب فلان؟ فإنّه سيفتّش عن عذر ليدافع به عن نفسه فيعمل على تفسيقي أوّلاً لكي يبرّر بذلك عمله من الناحية الشرعية لأنّه «لا غيبة لفاسق»، أمّا العامّي من الناس فلو قيل له إنّ ما تتكلّم به هو الغيبة، فإنّه سيستغفر الله تعالى ولا يدخل في مسألة التبرير والتوجيه وتفسيق الطرف الآخر.

وكلّنا نعيش هذه الحالة، ونسير بهذا الطريق الذي لا يعرفه إلاّ من يعرف الاصطلاحات التي بها تبرّر الأفعال.

انظروا إلى إبليس اللعين، حين قال له الله سبحانه وتعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾[1]، لم يقل: أستغفر الله، أنت أمرتني وأنا عصيت، بل ﴿**أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾[2] وبدأ يوجّه فعله فجاء بالعذر والدليل و﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ منْهُ خَلَقْتَنِي مِن نار وَخَلَقْتَهُ مِن طِين**﴾[3] وكلّ هذا منشؤه العلم

(١) سورة ص: ٧٥.
(٢) البقرة: ٣٤.
(٣) ص : ٧٦ .

ولكنّه العلم الذي لا عقل معه.

وعلى هذا فإنّ العلم بما هو علم والحوزة بما هي حوزة ليست مداراً للتفاضل بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] لا «أعلمكم».

ولو قيل: فلماذا نتعلّم؟ ولماذا نبحث عن الأعلم؟ فالجواب: إننا لانريد بكلامنا هذا أن ننفي الحاجة إلى العلم وإلى الأعلمية، بل الأعلمية مطلوبة جزماً ولكن مع التقوى، ولذا فإنّ الإنسان كلما ازداد عقلاً ازداد التزاماً. وإذا أردت أن تعرف مقدار عقل الإنسان فانظر إلى عمله؛ إذ بمقدار التزامه بالموازين الشرعية يكون عقله، ولا تنظر إلى مقدار معرفته بالاصطلاحات العلمية، لأنّ الاصطلاح غير ممنوع على أحد، فبإمكان حتّى الفاسق والكافر أن يتعلّمه من خلال الدرس في الحوزات العلمية بل بإمكانه أن يصبح فقيهاً وأُصوليّاً وفيلسوفاً ومفسِّراً وما إلى ذلك.

فالمحذور إذن هو أن يكون الإنسان أصولياً أو فليسوفاً أو مفسِّراً ولكنّه من حيث السلوك الواقعي والعملي جاهل وفاسق أو كافر ـ والعياذ بالله ـ.

الخلاصة

أنّ للعقل والعلم والجهل بحسب عرفنا وفي حوزاتنا العلمية معان تختلف في بعض الأحيان عن المعاني التي وردت لها في الآيات وفي المأثور عن المعصومين (عليهم السلام).

فمن لم يكن عابداً لله تعالى ولم يكن له حياء ولا دين فهو جاهل ولا عقل له.

---

(١) الحجرات: ١٣.

كما أنّ العلم الذي لا خشية من الله تبارك وتعالى معه ولا عمل بحيث يُدخل صاحبه الجنّة ليس بعلم، وكان صاحبه جاهلاً، عرف ما عرف من مصطلحات العلوم المختلفة وفنونها.

أهمّية جنود مملكة الباطن وصراعهم

بعد أن تبيّن لنا معنى العقل والجهل وأنّ لكلّ منهما جنوداً، نعود إلى حديث السيّد الإمام قدس سره حول مملكة الباطن حيث قال:

(وفيها) أي مملكة الباطن (**تكون جنود النفس أكثر وأهمّ في مملكة الظاهر والصراع والنزاع بين الجنود الرحمانية والشيطانية أعظم والغلبة والانتصار فيها أشدّ وأهمّ**) ولهذا صار جهاد النفس هو الجهاد الأكبر.

(**بل إنّ كلّ ما في مملكة الظاهر**) من صراع بين القوى منشؤه مملكة الباطن حيث (**قد تنزّل من هناك وظهر في عالم الملك، وإذا تغلّب أيّ من الجند الرحماني أو الشيطاني في تلك المملكة**) الباطنية (**يتغلّب أيضاً في هذه المملكة**) الظاهرية.

وعلى هذا فإنّ الإنسان إذا انتصر في باطنه انتصر في ظاهره، وإذا انهزم في باطنه فإنّه ينهزم في ظاهره أيضاً، ومن هنا نجد أن من كان واقعه وملكاته جيّدة كانت أعماله الظاهرية جيّدة أيضاً واتجه في أعماله نحو أعمال الخير، من الإنفاق في سبيل الله وصلة الرحم وإعطاء المحتاجين والسعي لقضاء حوائج المؤمنين ونحو ذلك، وكان بذلك كمن يحمل معه عطراً فلا تشمّ منه إلاّ رائحة العطر.

وهكذا كانت الطهارة الباطنية لأهل البيت عليهم السلام ـ والتي أثبتتها لهم الآية

الشريفة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١] ـ منشأً لعصمتهم حيث لا يمكن أن يصدر منهم عليهم السلام أي عمل غير طاهر بعد ثبوت تلك الطهارة لهم، كما أنّها كانت السبب في وجود حقيقة القرآن الكريم عندهم عليهم السلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[٢].

وأمّا من كانت ملكاته الواقعية والباطنية خبيثة وسيّئة فإنّ أعماله لابدّ وأن تكون خبيثة وسيّئة أيضاً، ولن يصدر منه إلاّ أعمال الشرّ والفساد في الأرض وقتل الأنفس وتدمير الحرث والنسل وما شابه ذلك، وكان كمن يحمل معه رائحة نتنة فلا تُشمَّ منه إلاّ تلك الرائحة، ولهذا ورد في الرواية «**تعطّروا بالاستغفار لا تفضحكم روائح الذنوب**»[٣].

ولو اتفق أن صدرت من مثل هذا الإنسان حسنة فإنّها لا تصدر منه إلاّ لغرض الرياء والسمعة والجاه، لا بقصد القربة والعمل الصالح، وهذا هو صريح القرآن الكريم ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[٤].

(و) من هنا فإنّ (**جهاد النفس في هذا المقام مهمّ للغاية عند المشايخ العظام من أهل السلوك والأخلاق، بل ويمكن اعتبار هذا المقام منبع جميع السعادات والتعاسات والدرجات**) في الجنة (**والدركات**) في النار.

ولا يتصوّر أحد أنّه يكفي في جهاد الإنسان أن يمتنع عن القيام بالأُمور

---

(١) الأحزاب: ٣٣.
(٢) الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩.
(٣) أمالي الطوسي: ٣٧٢ / ٨٠١.
(٤) الإسراء: ٨٤.

المحرّمة ـ مثلاً ـ وإن فكّر ما فكر فيها. فإنّ هذا التصوّر خاطئ وخطير لأنّ التفكير في الحرام يوقعه فيه (**وإن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه**) فعليه أن يتخلّص من الحرام في مقام الظاهر ومقام البدن كما أنّ عليه أن يتخلّص من التفكير في الحرام في مملكة الباطن أيضاً.

(**يجب على الإنسان الالتفات كثيراً إلى نفسه في هذا الجهاد، فمن الممكن ـ لا سمح الله ـ أن تسفر هزيمة الجنود الرحمانية في تلك المملكة وتركها خالية للغاصبين والمحتلين من جنود الشيطان عن الهلاك الدائم للإنسان بالصورة التي يستحيل معها تلافي الخسارة**)، وإنّما كان هؤلاء محتلين ومغتصبين لأنّ قلب المؤمن عرش الرحمن حيث فطر الله تعالى الإنسان على التوحيد وعلى المعرفة الإلهية ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1] وهو بيت الرحمن ولا حقّ للشيطان فيه، وإذا دخل الشيطان فيه كان محتلاً وغاصباً وأدّى دخوله هذا وانتصاره إلى خسارة الإنسان الفادحة وهلاكه المحتَّم (**ولا تشمله**) حينئذ (**شفاعة الشافعين وينظر إليه أرحم الراحمين أيضاً بعين الغضب والسخط ـ نعوذ بالله من ذلك ـ بل ويصبح شفعاؤه خصماءه، وويلٌ لمن كان شفيعه خصمه**).

هزيمة جنود الرحمن أشدّ من جميع نيران جهنّم وعذاباتها

إن كل عذاب وألم يناله الإنسان في مملكة الظاهر «لا شيء» في مقام العذاب والألم الذي يناله في مملكة الباطن (**ويعلم الله أيّ عذاب وظلمات وشدائد وتعاسات تلي هذا الغضب الإلهي وتعقب معاداة أولياء الله حيث تكون كلّ نيران جهنّم وكلّ الزقوم والأفاعي لا شيء أمام هزيمة جنود الرحمن من قبل جنود الشيطان التي**

(١) الروم: ٣٠.

تترتّب عليها عقوبات تفوق جميع نيران جهنّم والزقوم والأفاعي) فعلينا أن نتحمّل كلّ ما نتحمّله في مملكة الظاهر وإن أدّى ذلك إلى حرماننا من لذائذ الدنيا الفانية والزائلة وعدم حصولنا على منافعها المحدودة من أجل أن لا ننهزم في مملكة الباطن فنتعرّض إلى تلك العقوبات التي لا يمكن تصوّرها **(والعياذ بالله من أن يصبّ على رؤوسنا نحن الضعفاء والمساكين ذلك العذاب الذي يخبر عنه الحكماء والعرفاء وأهل الرياضة والسلوك، فإنّ جميع أشكال العذاب التي تتصوّرونها، يسيرة وسهلة في مقابله، وجميع النيران التي سمعتم بها، جنّة ورحمة في قباله وبالنسبة إلى ذلك العذاب)** الباطني.

أقسام الجنّة والنار في علم السير والسلوك

(إنّ وصف النار والجنّة الوارد في كتاب الله وأحاديث الأنبياء والأولياء يتعلّق غالباً بنار الأعمال وجنّتها اللتين أعدّتا للأعمال الصالحة والسيئة) وهما الجنّة والنار المتعلّقتان بمملكة الظاهر **(وهناك إشارة خفية أيضاً إلى جنّة الأخلاق ونارها وأهمّيتها أكبر، وأحياناً يشار أيضاً إلى جنّة اللقاء ونار الفراق)** وهذا ما يرتبط بمملكة الباطن إذ إنّ جنّتها أشدّ ابتهاجاً من الجنّة الحسّية، ونارها أشدّ ألماً من نار الحسّ، وفي قوله تعالى: ﴿**نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**﴾[1] إشارة إلى أنّ هذه النار تحرق الأفئدة أوّلاً ثمّ تحرق الظاهر ثانياً.

وعلى كلّ حال فإنّ الجنّة والنار في علم السير والسلوك على أقسام ثلاثة، هي:

---

(١) الهمزة: ٦ ـ ٧.

أوّلاً: جنّة الأعمال ونارها: وهما المرتبطتان بأعمال الإنسان.

ثانياً: جنّة الأخلاق ونارها: وهما المسمّيتان بجنّة الملكات ونارها حيث ترتبطان بملكات الإنسان.

ثالثاً: جنّة اللقاء ونار الفراق: وهما جنّة الذات ونارها وترتبطان بذات الإنسان نفسه.

ويعود هذا التقسيم إلى ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ عمل الإنسان يمرّ بمراحل ثلاث؛ هي مرحلة الحال ثمّ الملكة ثمّ الاتحاد، وتبعاً لهذه المراحل توجد هناك سعادة وبهجة ولذّة، أو شقاوة وحزن وألم.

فلا يكون حشرنا في النشأة الأخرى على حدّ سواء وإن كنّا نعيش سوية في هذا العالم، فقد يحشر أحدنا إلى جنّة الأعمال والثاني إلى جنّة الأعمال والملكات والثالث إلى جنّة الأعمال والملكات والذات، ومن هنا فسّر بعضٌ قوله تعالى ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾[1] بأنّ هاتين الجنتين هما جنّة الأعمال وجنّة الملكات.

وقد كتبت عبارة «المرتقي إلى جنّة الذات» على قبر السيّد الطباطبائي صاحب تفسير الميزان رحمه الله، إشارة من كاتبها إلى أنّ السيّد الطباطبائي رحمه الله قد صلحت ذاته وصارت عين الصلاح، بالإضافة إلى صلاح أعماله وملكاته ولذا استحقّ أن يرتقي إلى جنّة الذات.

ثمّ إنّ على الإنسان أن يلتفت إلى أنّ النار التي يدخلها الإنسان إذا كانت نار الأعمال فإنّ بإمكانه أن يتطهّر في عالم البرزخ ثمّ يدخل الجنّة يوم القيامة، وما ذلك إلاّ لأنّ ملكاته وذاته طاهرة غير أنّه خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً ﴿**وَآخَرُونَ**

(١) الرحمن : ٤٦ .

اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] فكان النقص في مقام الأعمال ولذا أمكن تطهيره بسرعة.

ولكن إذا كان النقص والنجاسة والخباثة في مرحلة الملكة فإن جبر النقص وتطهير النجاسة أصعب وأعسر.

وأمّا إذا انتقل النقص والنجاسة إلى مرحلة الذات فلعلّه لا يمكن جبران النقص وتطهير النجاسة، فيخلد الإنسان في نار جهنّم **(وهذا أهمّ الجميع)**.

ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام في دعاء كميل: «**فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك..**».

فلو افترضنا أنّ الإنسان تحمّل نار جهنّم فكيف يتحمّل نار فراق المحبوب، ونار فراق الله تعالى وأن يكون بعيداً عنه عز وجل ولا يكون **﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾**[2] ولا يخاطَب بقوله تعالى **﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾**[3].

وقد أشار الإمام الكاظم عليه السلام إلى جملة من هذه الحقائق التي تقدّم الكلام عنها، حيث قال في حديث طويل مع هشام بن الحكم، نقتبس منه بعض فقراته:

«**يا هشام: إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾**[4].

---

(١) التوبة : ١٠٢ .

(٢) القمر: ٥٥.

(٣) الفجر: ٢٩ ـ ٣٠.

(٤) الزمر: ٢٠.

ثمّ وعظ أهل العقل ورغّبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1].

يا هشام: إنّ العقل مع العلم فقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[2].

يا هشام: إنّ لقمان قال لابنه: تواضع للحقّ تكن أعقل الناس، وإنّ الكيّس لدى الحق يسير، يا بني إنّ الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر.

يا هشام: إنّ لكلّ شيء دليلاً، ودليل العقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت، ولكلّ شيء مطية، ومطية العقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نهيت عنه.

يا هشام: من سلّط ثلاثاً على ثلاث، فكأنّما أعان على هدم عقله. من أظلم نور تفكّره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنّما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله، أفسد عليه دينه ودنياه.

يا هشام: إنّ العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف بالذنوب، وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض.

يا هشام: من أراد الغنى بلا مال وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرّع إلى الله عز وجل في مسألته بأن يكمّل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً.

---

(١) الأنعام: ٣٣.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

يا هشام: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل»[١].

لا يصحّ إنكار ما حُجب عنّا من المعرفة

إنّ ما ورد بشأن جنّة الملكات والذات ونارها لا تصريح فيه، على الأعمّ الأغلب **(ولكنّها إشارات محجوبة عنّا ولها أهلها، وأنا وأنت لسنا من أهلها)** ولو كنّا من أهلها لما صدرت منّا هذه الأعمال القبيحة في كل يوم وليلة، ولا يصدر العمل الطالح إلاّ عن ملكة طالحة وذات غير طاهرة وغير خالصة لله تعالى.

وما يجب التنبيه عليه هنا، هو أنّ هذه الأُمور المتعلّقة بجنّة ونار الملكة والذات وإن كنّا غير مطّلعين عليها **(ولكن من الأجدر بنا أن لا نكون منكرين لها. وليكن لدينا إيمان بكل ما قاله الله تعالى وأولياؤه)** الذين أُمرنا بتصديقهم لا كلّ مدّع للولاية **(إذ يكون في هذا الإيمان الإجمالي نفع لنا)** لعدم فوات النفع المحتمل علينا **(ومن الممكن أن يكون الإنكار في غير محلّه والرفض في غير موقعه الصادرين عن غير علم وفهم أضرار كبيرة جدّاً علينا)** فنفوّت على أنفسنا بإنكارنا هذا فرصة وفائدة السؤال والبحث والتقصّي، بل قد نتعرّض بسبب هذا لأضرار لا ننتبه إليها الآن خصوصاً **(و)** إن **(هذه الدنيا ليست هي بعالم الالتفات لتلك الأضرار)** بل سيتّضح ذلك لنا يوم القيامة ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾[٢]. لذا نجد أنّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) أكّدوا هذه الحقيقة في كلماتهم. قال الإمام الصادق (عليه السلام):

---

(١) أصول الكافي، ج١،ص١٣، ح١٢، كتاب العقل والجهل.

(٢) الطارق: ٩.

«ما جاء منّا ممّا يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردّوه إلينا، وما جاءكم عنّا ممّا لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه ولاتردّوه إلينا»[١].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ أحبّ أصحابي إليّ أفقههم وأورعهم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي وأمقتهم إليّ الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنّا، فلم يحتمله قلبه واشمأز منه، جحده وأكفر من دان به، ولا يدري لعلّ الحديث من عندنا خرج وإلينا أُسند، فيكون بذلك خارجاً من ديننا»[٢].

من هنا نجد أنّهم أوصوا شيعتهم بأن يقولوا إذا أرادوا أن يستكملوا الإيمان: «القول منّي في جميع الأشياء، قول آل محمّد عليهم السلام، فيما أسروا وفيما أعلنوا وفيما بلغني وفيما لم يبلغني»[٣].

(فمثلاً عند سماعك الحكيم الفلاني أو العارف الفلاني أو المرتاض الفلاني، يقول شيئاً لا يتلاءم وذوقك الخاص فلا تحكم عليه فوراً بالبطلان والوهم، فقد يكون لذلك القول أصل في الكتاب والسنّة ولكن عقلك لم يطّلع عليه بعد.

فما الفرق بين أن يفتي فقيه بفتوى في باب الديات وأنتم لم تعرفوها، فمن دون مراجعة دليله تردونه).

حتّى ورد عن أبان بن تغلب عن الصادق عليه السلام، حين سأله عن دية قطع إصبع امرأة؟ فقال عليه السلام: «فيه عشر من الإبل» ثمّ سأله عن قطع إصبعين؟ فقال عليه السلام: «فيه عشرون من الإبل» ثمّ سأله عن قطع ثلاث أصابع؟ فقال عليه السلام: «فيه ثلاثون من الإبل»

---

(١) بحار الأنوار ٢٥: ٣٦٤، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٦٥ الحديث ٦.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٦٤، الحديث ٣.

ثمّ سأله عن قطع أربع أصابع؟ قال عليه السلام: «**فيه عشرون من الإبل**»[١]. ولما استغرب أبان من دية الأربع، قال عليه السلام: «**إن دين الله لا يصاب بالعقول**»[٢] في مسائل الفروع والتعبّديات لا في مسائل الأُصول والعقائد.

ومن هنا يتبيّن أنّ قول الفقيه لا ينبغي ردّه من دون معرفة دليله وحجّته، ولا فرق في ذلك بينه (**وبين أن يقول شخص سالك إلى الله أو عارف بالله، قولاً يتعلّق بالمعارف الإلهية أو بأحوال الجنّة والنار، وأنتم ودون مراجعة لدليله ـ لا تردّونه فحسب، بل وتهينونه أو تتجرّأون عليه؟ فمن الممكن لذلك الشخص وهو من أهل ذلك الوادي وصاحب ذلك الفن أن يكون له دليل من كتاب الله أو من أحاديث الأئمّة ولكنّك لم تطلع عليه بعد**) تماماً كما في فتوى الفقيه التي لم تطلع على دليله فيها (**ففي هذه الحالة تكون قد رددت على الله ورسوله دون مبرّر مقبول**) خصوصاً وقد ورد عنهم عليهم السلام: «**إن حديثنا صعب مستصعب لا يتحمّله إلاّ ملك مقرّب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**»[٣]. وقولهم عليهم السلام: «**إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلِّم الناس على قدر عقولهم**»[٤]. فليس كلّ حديث صادر منهم عليهم السلام يستطيع أن يفهمه جميع الناس.

(**ومعلوم أنّ الاحتجاج بأسلوب «إنّ ذلك لا يتلاءم مع ذوقي» أو «لم يصل إليه علمي» أو «سمعت خلاف ذلك من الخطباء»، فإنّ هذا كلّه لا يشكّل عذراً مقبولاً**.

---

(١) المحاسن، للبرقي، دار الكتب الإسلامية، قم : ٢١٤ / ٩٧ .

(٢) أمان الأمة من الضلال والاختلاف ، للشيخ لطف الله الصافي، قم، ١٣٩٧ هـ . ص ١١٦ .

(٣) بصائر الدرجات: ٤٢ / ٧ .

(٤) الكافي، ٨ : ٢٦٨ / ٣٩٤ .

وعلى أي حال لنرجع إلى صلب الموضوع، فما قالوه بشأن جنّة الأخلاق والملكات، وجهنّم الأخلاق والدركات، مصيبة لا يطيق العقل حتّى سماعها) فضلاً عن أن يبتلي بها الإنسان والعياذ بالله.

تنبيه ونصيحة

(إذن فيا أيّها العزيز، فكِّر، وابحث عن العلاج، واعثر على سبيل نجاتك ووسيلة خلاصك، واستعن بالله أرحم الراحمين، واطلب من الذات المقدّس، في الليالي المظلمة بتضرّع وخضوع أن يعينك في هذا الجهاد المقدّس مع النفس، لكي تتغلّب إن شاء الله، وتجعل مملكة وجودك رحمانية، وتطرد منها جنود الشيطان، وتسلم الدار إلى صاحبها) لأنّ قلب المؤمن عرش الرحمن (حتّى يفيض الله عليك السعادة والبهجة والرحمة التي يهون إلى جانبها كلّ ما سمعت عن وصف الجنّة والحور والقصور) لأنّ تلك الجنّة جنّة الأعمال وهذه الجنّة هي جنّة الملكات والذات وهما أعلى بمراتب من جنّة الأعمال (وتلك هي السلطة الإلهية العامّة التي أخبر عنها أولياء الله من هذه الأُمّة الحنيفة، ممّا لم يطرق سمع أحد ولم يخطر على قلب بشر).

فصل

إشارة إلى بعض القوى الباطنية

قوى الباطن هي منبع الملكات وأصل الصور الملكوتية

تحدّثنا في بحوث المقدّمة مفصّلاً عن قوى الإنسان الباطنية من حيث تعريفها وفوائدها ومدى ارتباطها بالصور والهيئات الملكوتية كما أشرنا هناك إلى الآيات الكريمة والروايات الشريفة التي تثبت هذه الحقيقة.

ولقد تعرّض السيّد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ إلى هذا المطلب على نحو الإشارة في هذا الفصل، حيث قال: (**اعلم أنّ الله تبارك وتعالى قد خلق بيد قدرته وحكمته في عالم الغيب وباطن النفس، قوى لها منافع لا تحصى، ومورد بحثنا هنا هو ما يتعلّق بهذه القوى الثلاث وهي: الوهمية والغضبية والشهوانية، ولكلّ واحدة من هذه القوى منافع كثيرة لأجل حفظ النوع والشخص وإعمار الدنيا والآخرة كما ذكر ذلك العلماء. والآن لا حاجة لنا بذلك**) حيث تعرّضنا لجانب مهمّ من هذا البحث في المقدّمات كما سبقت الإشارة لذلك (**والذي يلزم أن أُنبّه عليه في هذا المقام هو أنّ هذه القوى الثلاث هي منبع جميع الملكات الحسنة والسيّئة، وأصل جميع الصور الغيبية الملكوتية**). وهذه الصور هي أحوال الإنسان التي سينقلب إليها من خلال تجسّم أعماله، حيث تكرّر منّا القول بأنّ للأعمال والملكات ظاهراً وباطناً، فلملكة الإيمان أو لملكة الولاء لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ مثلاً ـ ظاهر ولها صورة باطنية ستظهر للإنسان في البرزخ بصورة هي من أبهى الصور وأجملها.

(وتفصيل هذا الإجمال هو أن الإنسان كما أنّ له في هذه الدنيا صورة ملكية دنيوية) وهي هذه الصورة الظاهرية (خلقها الله تبارك وتعالى على كمال الحسن والجمال والتركيب البديع، والمتحيّرة إزاءه عقول جميع الفلاسفة والعظماء، والذي لم يستطع علم معرفة الأعضاء والتشريح حتّى الآن أن يتعرّف على حاله بصورة صحيحة، وقد ميّزه الله تعالى عن جميع المخلوقات بحسن التقويم وجودة جمال المنظر) ولهذا نجد أنّ القرآن الكريم وحينما يأتي إلى ذكر وجود الإنسان يقول في آخرها ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1] إذ يتباهى الله تعالى بفعله وخلقه.

فكما أنّ للإنسان هذه الصورة الدنيوية (كذلك فإنّ له ـ أي للإنسان ـ صورة وهيئة وشكلاً ملكوتياً غيبياً، وهذه الصورة تابعة لملكات النفس والخلقة الباطنية) التي أوكل أمرها إلى الإنسان نفسه الذي خلقه الله تعالى وهو لا يعلم شيئاً في بداية أمره ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاتَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[2]، ثمّ يقوم الإنسان ببناء ملكاته كيفما يشاء بإرادته واختياره.

إنّ الصور والهيئات التي يحشر عليها الإنسان تختلف من مورد إلى آخر:

المورد الأوّل: كون الصورة واحدة وغير مركّبة

فقد يحشر الإنسان (وفي عالم ما بعد الموت ـ سواء) كان الحشر (في البرزخ) وهو عالم ما بين الموت والآخرة والذي لا شفاعة فيه ـ حسب ما ورد في الروايات ـ بل يترك الإنسان وعمله هناك مدّة لا يعلمها إلاّ الله، (أو) كان الحشر في (القيامة ـ) وهي القيامة الكبرى والحشر الأكبر حين تبدّل الأرض غير الأرض

(١) المؤمنون: ١٤.
(٢) النحل: ٧٨.

والسماوات ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[١]، فإنّه وفي كلا العالمين **(إذا كانت خلقة الإنسان في الباطن والملكة والسريرة إنسانية، تكون الصورة الملكوتية له صورة إنسانية أيضاً، وأمّا إذا لم تكن ملكاته ملكات إنسانية، فصورته ـ في عالم ما بعد الموت ـ تكون غير إنسانية أيضاً، وهي تابعة لتلك السريرة والملكة.**

فمثلاً، إذا غلبت على باطنه ملكة الشهوة والبهيمية، وأصبح حكم مملكة الباطن حكم البهيمة، كانت صورة الإنسان الملكوتية على صورة إحدى البهائم التي تتلاءم وذلك الخلق.

وإذا غلبت على باطنه وسريرته ملكة الغضب والسبعية وكان حكم مملكة الباطن والسريرة حكماً سبعياً، كانت صورته الغيبية الملكوتية صورة أحد السباع.

وإذا أصبح الوهم والشيطنة هما الملكة، وأصبحت للباطن والسريرة ملكات شيطانية كالخداع والتزوير والنميمة والغيبة تكون صورته الغيبية الملكوتية على صورة أحد الشياطين بما يتناسب وتلك الصورة).

المورد الثاني: تركّب الصورة من عدّة صور

قد تمثّل صورة الإنسان الملكوتية الإنسان أو البهيمة أو السبع أو الشيطان **(ومن الممكن أحياناً أن تتركّب الصورة الملكوتية من ملكتين أو عدّة ملكات، وفي هذه الحالة لا تكون على صورة أي من الحيوانات بل تتشكّل له صورة غريبة)** ناشئة من التركيب وهذا هو شأن التركيب أينما كان حتّى في النباتات والفواكه بغضّ النظر عن الحيوان، إذ إنّ الفرد الناتج من التركيب لا يشبه الأب مطلقاً

---

(١) الأنبياء: ١٠٤.

ولا يشبه الأُمّ مطلقاً.

فلو افترضنا أنّ إنساناً ما قد اشتدّت بهيميته فيه حتّى صار بهيمة واشتدّت سبعيته فيه حتّى صار سبعاً فإنّ مثل هذا الإنسان لن يحشر يوم القيامة على صورة أي من الحيوانين بل يحشر على صورة غريبة مركّبة من البهيمية والسبعية.

و(**هذه الصورة بهيئتها المرعبة المدهشة والسيّئة المخيفة لن يكون لها مثيل في هذا العالم**) الدنيوي، لأنّ الموجود فيه إمّا إنسان أو بهيمة أو سبع أو شيطان، وأمّا أن يوجد كائن هو سبع وبهيمة في آن واحد فهو أمر غير ممكن. نعم، قد يكون الإنسان وبحسب باطنه بهيمة وسبعاً ولكن هذا الأمر لا يظهر إلاّ يوم القيامة ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ وحينها تظهر تلك الأشكال الغريبة البشعة للناظرين وكما ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله **أنّ بعض الناس يحشرون يوم القيامة على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير**[1].

المورد الثالث: تعدّد الصور

لا يقتصر حشر الإنسان على صورة واحدة مركّبة أو غير مركّبة (**بل قد تكون لشخص واحد عدّة صور في ذلك العالم، لأنّ ذلك العالم ليس كهذا العالم، حيث لا يمكن لأي شيء أن يتقبّل أكثر من صورة واحدة له، وهذا الأمر يطابق البرهان وثابت في محلّه أيضاً**).

وفي هذا إشارة لمطلب إضافي لم نشر إليه في الأبحاث السابقة وهو أن في عالم الدنيا الذي يسبق عالم البرزخ والقيامة لا يمكن أن تكون لموجود واحد

---

(١) تفسير الصافي، ج٥، ص٢٧٥.

أكثر من هيئة واحدة، فهيئة الإنسان ـ مثلاً ـ هيئة ثابتة له ولا تتغيّر منذ ولادته وحتى موته، وهكذا البقر والغنم والطير والنبات، أي إنّ لكل موجود في عالمنا «صورة نوعية» واحدة، وإن طرأ عليها تغيّر فإنّه لا يطرأ على أصلها الذي لابدّ وأن يبقى ثابتاً ومحفوظاً.

أمّا في النشأة الأُخرى، فإنّ بالإمكان تعدّد الصور والهيئات للموجود الواحد هناك.

التناسخ الملكي والتناسخ الملكوتي

وقد يعبّر عن هذا الأمر بالتناسخ الملكوتي تمييزاً له عن التناسخ الملكي، ونعني بالتناسخ الملكي حلول روح موجود ما ـ كزيد مثلاً ـ عند خروجها من بدنه في بدن موجود آخر في هذه الدنيا، وهذا التناسخ باطل وغير ممكن كما هو محقّق في علم المعاد.

ونعني بالتناسخ الملكوتي أنّ الإنسان ينسخ يوم القيامة فيكون قرداً وخنزيراً و... تبعاً لأعماله، وهذا الأمر ممكن ومعقول وواقع ولا محذور فيه؛ وذلك لأنّ القوانين والموازين التي تحكم نشأتنا الدنيوية غير القوانين والموازين التي تحكم النشأة الأُخرى، كما بيّنا ذلك سابقاً.

ومن اللازم التنبيه إلى أنّ أصحاب هذه الصور انفردت أو تعدّدت أو تركّبت لابدّ وأن يكونوا معروفين لدى الخلائق يومذاك ليذوقوا بالإضافة إلى عذاب الحريق عذاب الخزي والذلّ والفضيحة. ولو كانت هوياتهم مجهولة يوم القيامة لرفع عنهم هذا العذاب الثابت لهم بالدليل.

وقت تشكّل الصور الأخروية

(واعلم أنّ المعيار لهذه الصور المختلفة ـ والتي تعدّ صورة الإنسان واحدة منها، والباقي صور أشياء أُخرى ـ هو وقت خروج الروح من هذا الجسد) وهو وقت انقطاع الإنسان عن العمل الاختياري وجلوسه على مائدة عمله في البرزخ والقيامة.

وقد يتساءل بعضٌ عن معنى ما ورد من أنّ المؤمن إذا مات انقطع عمله إلاّ من ثلاث، من سنّة حسنة، ومن ولد صالح، ومن علم ينتفع به الناس، وما ورد من أنّ الأئمّة عليهم السلام يشفعون للمؤمن المذنب؟

والجواب: أنّ المؤمن في هذه الموارد يستفيد وينتفع من أعماله التي عملها في الدنيا لا أنّه يعمل عملاً جديداً في يوم القيامة، وهناك فرق واضح بين الأمرين.

ولا يختصّ هذا الأمر بالمؤمن، بل إنّ الإنسان إذا سنّ سنّة طالحة أو قام بعمل طالح في الدنيا فإنّ أثر سنّته وعمله يلاحقه في الآخرة ولا ينفكّ عنه، ولذلك يُزاد في عذابه ويشتدّ ألمه عليه يوماً بعد يوم في نار جهنّم.

ثمّ إنّ النشأة الأُخرى ليست هي زمان حدوث نتائج الأعمال ، بل هي زمان ظهور تلك النتائج لأنّ الجزاء ـ كما بيّنا سابقاً ـ هو نفس باطن العمل، ومن هنا كان وقت خروج الروح من الجسد هو وقت **(ظهور مملكة البرزخ واستيلاء سلطان الآخرة والذي أوّله في البرزخ عند خروج الروح من الجسد)**.

والإنسان بعد هذا، إمّا معذّب وإمّا منعّم **(فبأيّة ملكة يخرج بها من الدنيا تتشكّل على ضوئها صورته الأخروية وتراه العين الملكوتية في البرزخ)** لا العين الظاهرية التي لا قيمة لها، وقد نقلنا سابقاً ما ورد عن الإمام السجّاد عليه السلام: «**ألا إنّ للعبد أربع أعين، عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين**

اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته»[١].

ثمّ (وهو نفسه أيضاً عندما يفتح عينه في برزخه، ينظر إلى نفسه بالصورة التي هو عليها ـ في ذلك العالم ـ إذا كان لديه بصر) لأنّ من كانت عينه الباطنية مبصرة في الدنيا فهي في البرزخ والآخرة مبصرة أيضاً، وإن كانت تلك العين عمياء في الدنيا، فإنّها سوف تظهر يوم القيامة عمياء أيضاً.

(وليس من المحتم أن تكون صورة الإنسان في ذلك العالم على نفس تلك الصورة التي كان عليها في هذه الدنيا. يقول سبحانه وتعالى على لسان البعض: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[٢]).

نصيحة

ثمّ يبدأ السيّد الإمامقدس سره بالنصيحة، فيقول: (فيا أيّها المسكين؛ قد كانت لديك عين ملكية ظاهرة البصر) وهي هذه العين الظاهرية (ولكنّك في باطنك وملكوتك كنت أعمى) وفاقداً لعين البصيرة (وقد أدركت الآن هذا الأمر) حين كُشف عنك غطاؤك (وإلاّ فانّك كنت أعمى منذ البداية) لأنّك (لم تكن لديك عين البصيرة الباطنية التي ترى بها آيات الله.

أيّها المسكين! أنت ذو قامة متناسقة وصورة جميلة في التركيب الملكي. ومعيار الملكوت والباطن غير هذا) إذ تجد من كان جميلاً وبصيراً في هذه الدنيا قد صار

---

(١) الخصال: ٢٤٠ / ٩٠.

(٢) طه: ١٢٥ ـ ١٢٦.

يـوم القيامـة قبيحـاً: ﴿وَأَتْبَعْنَـاهُمْ فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا لَعْنَـةً وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ هُـم مِـنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[١]، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، وقد كـان قبـل ذلـك كذلك أيضاً ولكنّه كان في غفلة منه ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَـةٍ مِـنْ هَـذَا فَكَـشَفْنَا عَنـكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢].

إذن، (**عليك أن تحرز الاستقامة الباطنية كـي تكـون مـستقيم القامـة في يـوم القيامة. يجب أن تكون روحك إنسانية كي تكون صورتك في عـالم الـبرزخ صـورة إنسانية... أنت تظنّ أنّ عالم الغيب والبـاطن ـ وهـو عـالم كـشف الـسرائر وظهـور الملكات ـ مثل عالم الظاهر والدنيا، حيث يمكن أن يقع الخلـط والاشـتباه...**) فمـن كان يظنّ هكذا فظنّه كاسد ومخالف للواقع، لأنّ قوانين النـشأة الدنيويـة غيـر قـوانين النشأة الأخرويـة بدلالـة قولـه تعـالى ﴿وَنُنـشِئَكُمْ فِي مَـا لاَتَعْلَمُـونَ﴾[٣] ولـو كانـت أحكام النشأتين واحدة، لقال تعالى «وننشئكم فيما تعلمون».

وعلى كلّ حال، فإنّ العالمَين مختلفـان و(**إن عينيك وأُذنيك ويـديك ورجليـك وسائر أعضاء جسدك جميعها ستشهد عليـك بـما فعلـت**) وذلـك قولـه تعـالى: ﴿الْيَـوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤] فبعـد أن كان اللسان وحده يتكلّم في هذه الدنيا وكانـت بقيّـة الأعـضاء سـاكتة، فإنّـه يـسكت يوم القيامة وتتكلّم الأعضاء الأخرى.

وقد يفـسّر قولـه تعـالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَـتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَـا* وَأَخْرَجَـتِ الأَرْضُ

(١) القصص: ٤٢.
(٢) سورة ق: ٢٢.
(٣) الواقعة: ٦١.
(٤) يس: ٦٥.

أَثْقَالَهَا﴾[1] بالإضافة إلى تفسيره بأنّ الأرض تلقي ما في بطونها من قبور، يفسّر بأنّ كلّ أرضية تخرج ما في بطنها، وحقيقة كلّ واحد تخرج أثقالها التي كانت أثقلت ظهرها بها يوم القيامة.

وحينها يتساءل الإنسان ﴿**وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا**﴾ فيأتيه الجواب: ﴿**يَوْمَئِذ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**﴾ لتشهد وتقول: بأنّ فلاناً صلّى عليّ، وفلاناً سجد عليّ، وفلاناً عصى عليّ، و﴿**يَوْمَئذ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾ التي تجسّدت لهم آنذاك.

وعلى كلّ حال ، فإنّ شهادة الأعضاء على الإنسان يوم القيامة لا تعرف الخطأ لأنّها (**بألسنة ملكوتية**) لا بمثل ألسنتنا التي قد تخطئ وتصيب وتصدق وتكذب (**بل وبعضها بصور ملكوتية**) من خلال تجسّد الأعمال.

(**أيّها العزيز؛ افتح سمع قلبك، وشدّ حزام الهمّة على وسطك، وارحم حال مسكنتك**) فأنت الذي ظلمت نفسك ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَام لِلْعَبِيدِ**﴾[2] فعليك أن ترحم حالك (**لعلّك تستطيع أن تجعل من نفسك إنساناً**) في باطنك وإن كنت في ظاهرك إنساناً (**وأن تخرج من هذا العالم بصورة آدمية لتكون عندها من أهل الفلاح والسعادة**) فلو كنت ـ والعياذ بالله ـ تفكّر كلّ وقتك بالحيلة والمكر لإسقاط الآخرين والقضاء عليهم وأخذ مواقعهم وللحصول على الشهوات والمال الحرام، ونحو ذلك، فإنّك ستكون في ظاهرك إنساناً ولكنّك في باطنك شيطان ولو خرجت روحك من جسدك وأنت على هذه الحالة فلن تخرج من هذه الدنيا إلاّ على صورة

---

(١) الزلزلة: ١ ـ ٦.

(٢) فصلت : ٤٦ .

شيطان وقد حلّت بك الندامة والشقاوة والخسران العظيم.

(وحذار من أن تتصوّر أنّ كلّ ما تقدّم هو موعظة وخطابة. فهذا كلّه هو نتيجة أدلّة فلسفية توصل إليه الحكماء العظام وكشف انكشف لأصحاب الرياضات) وقبل هذا هو أثر **وإخبار عن الصادقين المعصومين.**

وليس المقصود من هذه الأوراق أن تكون محلاً لإقامة الدليل ونقل الأخبار والآثار بصورة مفصّلة) وقد ذكرنا سابقاً وبنحو الإجمال الأدلّة العقليّة والنقلية لإثبات هذه الحقائق.

فصل

في بيان لجم الأنبياء لطبيعة الإنسان

عقد السيّد الإمام (قدس سره) هذا الفصل من أجل بيان الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء وإنزال الرسالات السماوية، فقال:

(اعلم أنّ الوهم والغضب والشهوة من الممكن أن تكون من الجنود الرحمانية، وتؤدّي إلى سعادة الإنسان وتوفيقه إذا سلمتها للعقل السليم وللأنبياء العظام) وستكون في هذه الحالة أبواباً إلى الجنّة وإلى رضا الله تعالى.

(ومن الممكن أن تكون من الجنود الشيطانية إذا تركتها وشأنها، وأطلقت العنان للوهم أن يتحكّم في القوّتين الأخريين: الغضب والشهوة) وهي في هذه الحالة أبواب النيران المشرعة المؤدّية إلى شقاوة الإنسان وهلاكه.

إنّ لكلّ قوّة من قوى الإنسان الثلاث السابقة أعمالاً وغايات تريد الوصول إليها، غير أنّ الشارع المقدّس لم يترك لها العنان في حركتها من جهة ولم يكبتها ويمنعها من الحركة مطلقاً من جهة أُخرى، ومن هنا قال السيّد الإمام قدس سره: **(وأيضاً لم يعد خافياً أنّ أيّاً من الأنبياء العظام عليهم السلام لم يكبتوا الشهوة والغضب والوهم بصورة مطلقة، ولم يقل أي داع إلى الله حتّى الآن بأنّ الشهوة يمكن أن تقتل بصورة عامّة، وأن يُخمد أوار**

الغضب بصورة كاملة، وأن يترك تدبير الوهم، بل قالوا: يجب السيطرة عليها حتّى تؤدّي واجبها في ظلّ ميزان العقل والدستور الإلهي) أي أن تلجم هذه القوى بلجام العقل بشرط أن تكون له هداية من الشرع المقدّس.

ويمكن تشبيه العلاقة والنسبة بين العقل والشرع هنا بالنسبة بين النور والطريق للمسافر في هذا الطريق، حيث يكون النور بمثابة العقل والطريق بمثابة الشرع، ولابدّ من اجتماعهما معاً من أجل ضمان وصول المسافر إلى هدفه وغايته، وإلاّ فبدون الطريق لا يعقل وصوله إلى مقصده، وبدون النور قد يضلّ الطريق وينحرف يميناً ويساراً، ولا يزيده بعد ذلك سرعة المشي فيه إلاّ بُعداً عن هدفه وغايته.

وقد مُثّل «الشرع» في الروايات بالبيت ومُثّل «العقل» بالمصباح، فإذا دخل الإنسان بيتاً ما فإنّه لا يستطيع الاستفادة من الأشياء الموجودة فيه إلاّبواسطة نور المصباح الذي يميّز به الأشياء فيعرف الثمين من غيره، والصالح والمفيد من الفاسد والضارّ، وهكذا العقل، إذ به يميّز الإنسان الحسن من القبيح، والحق من الباطل.

ويمكن تصوّر وجود الباطل في الشريعة وذلك من جهة التحريف الذي يحصل فيها، إذ هناك الكثير من الروايات المنسوبة إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام مثلاً ولكنّها محرّفة ومدسوسة وكاذبة، وبهذا يختلط الحقّ مع الباطل والصحيح مع السقيم، ولابدّ من تميّزه من أجل الوصول إلى الشريعة الحقّة.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ أوّل الأُمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلاّ به، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنّهم مخلوقون، وأنّه المدبّر لهم، وأنّهم المدبَّرون، وأنّه الباقي وهم الفانون، واستدلّوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه وشمسه وقمره وليله ونهاره، وبأن له ولهم خالقاً ومدبّراً لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن والقبيح، وأن**

الظلمة في الجهل، وأنّ النور في العلم، فهذا ما دلّهم عليه العقل». قيل لـه: فهـل يكتفـي العباد بالعقل دون غيره؟

قال: «**إنّ العاقل لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته، علـم أنّ الله هو الحق، وأنّه هو ربّه، وعلم أنّ لخالقه محبّة، وأنّ لـه كراهيـة، وأن لـه طاعـة، وأنّ لـه معصية، فلم يجد عقله يدلّه على ذلك، وعلم أنّه لا يوصل إليه إلاّ بالعلم وطلبه، وأنّـه لا ينتفع بعقله، إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الذي لا قوام له إلاّ به**»[1].

ثمّ بعد تميّز الصحيح من السقيم لابدّ من تميّـز مراتـب الـصحيح أيـضاً، لأنّهـا تختلف فيما بينها، وهذا من قبيل الجواهر التي كلّهـا ثمينـة ولكـن بعـضها أثمـن مـن بعض.

والخلاصـة أننـا وبـدون نـور العقـل لا يمكننـا أن نميّـز الحـقّ مـن الباطـل ولا الأثمن من الثمين.

إنّ القوى السابقة مع كونها ذات فوائد ومنافع إلاّ أنّ لجمها ضرورة لابـدّ منهـا (**لأنّ هذه القوى كلّ واحدة منها تريد أن تنجز عملها وتنال غايتها**) **وتتحرّك نحـو كمالهـا** (**ولو استلزم ذلك الفـساد والفـوضى**) ومـن دون أن تنظـر أيـضاً هـل قـضاء حاجاتهـا وإشباع رغباتها يتمّ من طريق الحلال أو الحـرام؟ (**فمثلاً الـنفس البهيميـة المنغمـسة في الشهوة الجامحة التي مزّقت عنانها، ـ هذه النفس ـ تريد أن تحقّـق هـدفها ومقـصودها ولـو كان ذلك يتمّ بواسطة الزنا بالمحصنات وفي الكعبة ـ والعياذ بالله ـ . والـنفس الغـضوب، تريد أن تنجز ما تريده حتّى ولو استلزم ذلك قتل الأنبياء والأولياء. والنفس ذات الـوهم**

(١) أصول الكافي، ج١، ص٢٩، كتاب العقل والجهل، الحديث ٣٤.

الشيطاني تريد أن تؤدّي عملها حتّى ولو استلزم ذلك الفساد في الأرض، وقلب العالم بعضه على بعض).

غير أنّ كلّ هذا لا يبرّر كبت هذه القوى بصورة مطلقة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، فـ **(لقد جاء الأنبياء عليهم السلام وأتوا بقوانين، وأُنزلت عليهم الكتب السماوية من أجل الحيلولة دون الإطلاق والإفراط في الطبائع، ومن أجل إخضاع النفس الإنسانية لقانون العقل والشرع وترويضها وتأديبها حتّى لا يخرج تعاملها عن حدود العقل والشرع.**

إذاً، فكلّ نفس كيّفت ملكاتها وفق القوانين الإلهية والمعايير العقلية فهي سعيدة ومن أهل النجاة، وإلاّ فليستعذ الإنسان بالله من ذلك الشقاء وسوء التوفيق وتلك الظلمات والشدائد المقبلة، ومنها تلك الصور المرعبة والمذهلة التي تصاحبه في البرزخ والقبر والقيامة وجهنّم، والتي نتجت عن الملكات والأخلاق الفاسدة التي لازمته) والتي أوجدها لنفسه من خلال أعماله في هذه النشأة الدنيوية الظاهرة.

فصل

في بيان السيطرة على الخيال

ما هو الخيال؟

لمصطلح الخيال إطلاقان:

الإطلاق الأوّل: بالمعنى الفلسفي، ولسنا بصدد دراسة هذا المعنى في هذا الفصل.

الإطلاق الثاني: بمعنى المتخيّلة، وهذا المعنى هو الذي يهمّنا في بحثنا هذا، ومن أجل توضيحه نضرب المثال الآتي فنقول: لو نظرت إلى كتاب موضوع أمامك فستحصل لهذا الكتاب صورة في ذهنك في حال كون عينيك مفتوحتين وتبصران به الآن.

ثمّ إذا أغمضت عينيك، فستجد أنّ الصورة لا زالت في ذهنك أيضاً.

وهكذا لو نظرت إلى إنسان قائم أمامك أو حديقة غناء أو قصر مشيّد وما شابه ذلك، ففي كلّ هذه الحالات وغيرها تستطيع أن تحصل على صورتين، الأُولى وأنت تنظر إلى الأشياء مفتوح العينين، والثانية باستحضار نفس الصورة بعد إغماض عينيك.

الصورة حسّية وخيالية

إنّ الصور الحاصلة لديك في الحالات السابقة لا تختلف بعضها عن بعض

من الناحية الواقعية.

إلاّ أنّ الصورة التي تحصل لديك مع بقاء الارتباط بالواقع الخارجي ـ من خلال العينين المفتوحتين ـ تسمّى بالصورة الحسّية.

وإنّ الصورة التي تحصل لديك مع انقطاع ذلك الارتباط بالواقع الخارجي ـ كما لو أغمضت عينيك مثلاً ـ تسمّى بالصورة الخيالية.

ولا يقتصر حصول الصورة الخيالية على وجود الشيء أمامك بحيث تنظر إليه ثمّ تغمض عينيك بعد ذلك، بل يشمل حتّى الأُمور غير الحاضرة عندك وقت تصوّرها، كما لو استحضرت واقعة كربلاء في ذهنك حين سماعك مصيبة الإمام الحسين (عليه السلام)، هذا الاستحضار الذي هو منشأ تألّمك وتفاعلك مع تلك الواقعة.

معنى آخر للخيال (المتخيّلة)

حينما نقول: يجب على المؤمن أن يجاهد من أجل السيطرة على خياله، لا نعني بالخيال ما سبق أن بيّناه من أنّه صورة الشيء مع انقطاع الارتباط بالواقع الخارجي الذي يوجد فيه ذلك الشيء.

بل للخيال معنى آخر يراد به إيجاد صور لا واقع لها في الخارج أصلاً، كما لو تصوّرت موجوداً مركّباً من رأس إنسان وجسد حصان، ويسمّى هذا النوع من التصوّر (بالمتخيّلة).

وللإنسان ـ بصورة عامّة ـ قدرة عجيبة على التخيّل، فهو يتخيّل كثيراً من الأُمور التي لا وجود لها في الواقع الخارجي، ثمّ يسعى بعد ذلك لتحقيقها وإيجادها

خارجاً، ومن هنا كانت المخيّلة من الأُمور المضرّة ما لم تحفظ وتخضع للحدود والقيود، لأنّه قد يفكّر في أُمور إلى الدرجة التي تكون فيها هذه الأُمور جزءاً من وجوده ممّا يدعوه لتحقيقها وبأي ثمن كان قبح أو حسن وحلّ أو حرم، خصوصاً مع ترغيب النفس له تحصيل تلك الأُمور وقولها له: لو فعلت كذا لحصلت على كذا ولنلت من اللذائذ والسعادات كذا وكذا... إلى أن توقعه في المهالك، والعياذ بالله.

من هنا، ولخطورة هذه (المتخيّلة) عدّها السيّد الإمام (قدس سره) أوّل شرط للمجاهد في كلّ المقامات، فقال: (**اعلم أنّ أوّل شرط للمجاهد في هذا المقام**) وهو مقام الباطن والملكات (**والمقامات الأُخرى والذي يمكن أن يكون أساس الغلبة على الشيطان وجنوده، هو حفظ طائر الخيال**) بالسيطرة عليه وعدم تركه يتخيّل ما يشاء.

مرتبتا الشريعة

لا تنحصر الشريعة المقدّسة بالأعمال فقط بل هي أعمال ورياضات، حيث إنّ الأعمال الظاهرية من صلاة وصوم وحج و... هي مرتبة من مراتب الشريعة بل هي المرتبة الدانية منها.

وهناك مرتبة أُخرى فوق هذه المرتبة هي مرتبة باطن الشريعة، وهي المرتبة التي لا يسمح الإنسان فيها لخياله أن يفكِّر في المحرّم بعد أن امتنع في مرحلة سابقة عن عمل المحرم أساساً.

وعلى الإنسان أن يروّض نفسه على ترك التفكير في المحرّم، وإن صعب هذا الأمر وعسر في بدايته ولكنّه ما يلبث أن يسهل وتزول صعوبته بالممارسة.

ومن الواضح أن ترك أمر ما يتناسب مع شدّته، فكلّما كان ذلك الشيء شديداً في النفس كان تركه أصعب وأشدّ ألماً، وما يفعله الإنسان بالتكرار والممارسة هو تخفيف شدّة ذلك المراد تركه درجة درجة حتّى يسهل عليه بعد ذلك تركه والتخلّي عنه.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الخيال، فلو صعب على الإنسان السيطرة عليه في بادئ الأمر، فليحاول إرجاع طائر خياله إذا حلق في الأُمور القبيحة والمحرّمة أو المكروهة إلى الأُمور الجميلة، الجائزة والمباحة.

وما الإصرار على كبح الخيال إلاّ (**لأنّ هذا الخيال طائر محلّق يحطّ في كلّ آن على غصن**) وما يفتأ متنقلاً من فكرة إلى أُخرى، دون كلل أو ملل في نوم الإنسان فضلاً عن يقظته و(**يجلب الكثير من الشقاء وأنّه من إحدى وسائل الشيطان التي جعل الإنسان بواسطتها مسكيناً عاجزاً ودفعت به نحو الشقاء**)، لأنّ الشيطان لا يأتيك مباشرة ويقول لك اعمل القبيح والحرام، بل يأتي أوّل ما يأتي فيلقي في روعك ذلك العمل الحرام، فتبدأ بالتفكير فيه ثمّ بوسوسته الشيطانية يزيّنه لك، ثمّ تشتدّ بعد ذلك رغبتك فيه فيدعوك هذا إلى العمل من أجل تحقيقه وإيجاده في الخارج.

(و) من هنا كان (**على الإنسان المجاهد الذي نهض لإصلاح نفسه، وأراد أن يصفي باطنه ويفرغه من جنود إبليس**) بعد أن استطاع أن يصفّي ظاهره بحيث لا يترك واجباً ولا يعمل حراماً (**عليه أن يمنع من اعتراضه للخيالات الفاسدة والباطلة**) بحسب الشرع (**كخيالات المعاصي والشيطنة وأن يوجّه خياله دائماً نحو الأُمور الشريفة، وهذا الأمر ولو أنّه قد يبدو في البداية صعباً بعض الشيء ويصوّره الشيطان وجنوده لنا وكأنّه أمر عظيم، ولكنّه يصبح يسيراً بعد شيء من المراقبة والحذر**) وبحاجة إلى ممارسة

ورياضة معنوية ـ كما بيّنا ذلك سابقاً ـ ولا تتصوّر أنّ بإمكانك من هذا اليوم ومن هذه الساعة أن تسيطر وبمرّة واحدة على خيالاتك كلّها، بل لابدّ لك في ذلك من التدرّج والصبر والتوكّل على الله تعالى.

(إنّ من الممكن لك ـ من باب التجربة ـ أن تسيطر على جزء من خيالك، وتنتبه له جيّداً، فمتى ما أراد أن يتوجّه إلى أمر وضيع، فاصرفه نحو أُمور أُخرى كالمباحات أو الأُمور الراجحة الشريفة، فإذا رأيت أنّك حصلت على نتيجة فاشكر الله تعالى على هذا التوفيق) لأنّ الشكر يهيئ لك مزيداً من التوفيق وقد قال تعالى ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[1].

(وتابع سعيك لعلّ ربّك يفتح لك برحمته الطريق أمامك للملكوت) الذي أخبر القرآن الكريم عن رؤية إبراهيم عليه السلام له وحصوله على اليقين به، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[2].

غير أنّ وصول إبراهيم عليه السلام إلى ملكوت السموات والأرض لا يعني اختصاص هذا الأمر بالأنبياء عليهم السلام، فقد حثّ القرآن الكريم الناس على النظر إلى هذا الملكوت في قوله تعالى ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[3] من أجل أن يهتدوا إلى صراط الإنسانية المستقيم وإلى مقام اليقين.

ثمّ يستمرّ السيّد الإمام قدس سره في تحذيره من الشيطان ولفت الانتباه إلى مكامن الخطر، فيقول **(وانتبه إلى أنّ الخيالات الفاسدة القبيحة والتصوّرات الباطلة هي من إلقاء**

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) الأنعام: ٧٥، ويمكن الاستدلال بوجود الواو العاطفة في قوله تعالى (وليكون من الموقنين) على تعدّد الفوائد الحاصلة بسبب رؤية الملكوت وعدم اقتصارها على الوصول إلى درجة اليقين.

(٣) الأعراف: ١٨٥.

الشيطان، الذي يريد أن يوطّن جنوده في مملكة باطنك) لأنّه وبواسطة هذه الخيالات التي يلقيها في روعك سوف يدفعك إلى تنفيذ مآربه في الواقع الخارجي.

(فعليك أيّها المجاهد ضد الشيطان وجنوده، وأنت تريد أن تجعل من صفحة نفسك مملكة إلهية رحمانية، عليك أن تحذر كيد هذا اللعين، وأن تبعد عنك هذه الأوهام المخالفة لرضا الله تعالى، حتّى تنتزع ـ إن شاء الله ـ هذا الخندق المهمّ جدّاً من يد الشيطان وجنوده في هذه المعركة الداخلية، فهذا الخندق بمنزلة الحدّ الفاصل، فإذا تغلّبت هنا فتأمّل خيراً.

أيّها العزيز... استعن بالله تبارك وتعالى في كل آن ولحظة، واستغث بحضرة معبودك واطلب منه بعجز وإلحاح) لأن من أدام دقّ باب الملكوت أوشك أن يفتح له، بشرط أن يدقّ باب الله تعالى لا باب غيره. وفي الرواية حينما يسأل السائل الإمام عليه السلام فيقول: يا ابن رسول الله إننا ندعو فلا يستجاب لنا مع قوله تعالى ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[1] فيجيبه الإمام عليه السلام: «**لأنّكم تدعون من لا تعرفونه**»[2].

كما أنّ من يدقّ باب الله تعالى، عليه بالإلحاح في ذلك، حيث ورد أنّ الله تعالى قد ينعم على العبد بنعمة ثمّ يسلبها منه بعد ذلك ليرى مدى توسّل هذا العبد به وإلحاحه عليه من أجل إرجاعها، فإن لم ير ذلك منه تركه ولم يعدها عليه.

(اللهمّ... إنّ الشيطان عدوّ عظيم، كان له ولا يزال طمع بأنبيائك وأوليائك العظام.

اللهمّ... فأعني وأنا عبدك الضعيف المبتلى بالأوهام الباطلة والخيالات

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) توحيد الصدوق: ٢٨٨ / ٧.

والخرافات العاطلة كي أستطيع أن أُجابه هذا العدوّ القوي.

اللهمّ... وساعدني في ساحة المعركة مع هذا العدوّ القوي الذي يهدّد سعادتي وإنسانيتي، لكي أستطيع أن أطرد جنوده من المملكة العائدة لك وأقطع يد الغاصب من البيت المختصّ بك) لأنّ قلب الإنسان عرش الرحمن، فإذا كانت هذه المملكة هي مملكة الله سبحانه وتعالى، فلا ينبغي لنا إعطاء المجال لعدوّ الله تعالى أن يسكن فيها، بل لابدّ من العمل بكلّ ما في وسعنا وبطلب المساعدة منه تبارك وتعالى من أجل قطع يد الشيطان وجنوده عن مملكة الله تعالى وطردهم من قلوبنا.

فصل

في الموازنة

(ومن الأُمور التي تعين الإنسان في هذا السلوك والتي يجب عليه الانتباه لها هي الموازنة) التي يقوم بها العقل.

وعملية الموازنة موجودة وبصورة عامة في كلّ مجالات حياة الإنسان، فالتاجر في عمله ـ مثلاً ـ يقارن بين البضائع التي تعرض عليه فيختار بعقله منها ما هو أكثر ربحاً وأقلّ مشقّة وتعباً، وهكذا كلّ من يقدم على عمل فإنّه يقارن بين الخيارات المطروحة عليه فيختار منها ما فيه مصلحته وفائدته.

ومثل هذا يحدث في الجوانب المعنوية والأخلاقية أيضاً **(فالموازنة)** فيها **(هي أن يقارن الإنسان العاقل بين منافع ومضارّ كلّ واحدة من الأخلاق الفاسدة والملكات الرذيلة التي تنشأ عن الشهوة والغضب والوهم ـ عندما تكون حرّة وتحت تصرّف الشيطان ـ وبين منافع ومضارّ كلّ واحدة من الأخلاق الحسنة والفضائل النفسية، والملكات الفاضلة والتي هي وليدة ـ تلك القوى الثلاث ـ عندما تكون تحت تصرّف العقل والشرع، ليرى على أي واحدة منها يصحّ الإقدام ويحسن العمل)؟!**

ثمّ إنّنا ـ أنا وأنت ـ نؤمن بوجود دين وقرآن وأنبياء وأئمّة وعلماء

وأدلّة عقلية وكلّها تقول: بأنّ هناك بضاعة إذا اشتراها الإنسان في هذه الدنيا وتاجَر بها فإنّ ربحه فيها ربح دنيوي قليل وغير دائم وغير خالص من الآلام والمنغصات ويعقبه عقاب أخروي شديد؛ كلّ ذلك مع عظم المشقّة وكثرة التعب في الحصول عليه.

وهناك تجارة لو تاجَر بها الإنسان فإنّ ربحها الأخروي كثير ودائم وخالص، وإن فقد ربحها الدنيوي مع كون مشقّتها وتعبها قليل قياساً لثوابها الأخروي.

وعلى حدّ تعبير الرواية «**حفّت الجنّة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات**»[1] لأنّ هناك مجموعة من المكاره الدنيوية التي لابدّ من اجتيازها من أجل الوصول إلى الجنّة، ولكنّها مكاره ومصاعب وآلام في هذه النشأة الدنيوية السريعة الزوال الفانية. كما أنّ النار قد حفّتها مجموعة من الفوائد واللذائذ الدنيوية المحدودة والمنقطعة والزائلة.

وعلى كلّ حال فإنّ الموازنة فيما نحن فيه هو أن نقارن بين التجارتين لنحدّد موقفنا تجاههما، فنقدّم إحداهما ونؤخّر الأُخرى على أساس ما لهما من فوائد ومضارّ.

وهكذا تعمّ عملية الموازنة كلّ مجالات حياة الإنسان وعلى ضوئها يتحرّك الإنسان العاقل ويمارس أعماله المختلفة.

تطلّع الإنسان إلى الكمال اللامتناهي

ثمّ تعرّض السيّد الإمام قدس سره بصورة مختصرة إلى مسألة مهمّة، وهي أنّ

(١) روضة الواعظين، للفتال النيسابوري، منشورات الرضي، قم: ٤٢١.

النفس لا تكتفي ولا تقنع بأي منفعة تحصل عليها قواها الثلاث، بل هي تطالب بالمزيد بصورة دائمة.

وذلك لأنّ الله تبارك وتعالى خلق الإنسان مفطوراً على حبّ الكمال اللامتناهي، ولذا فإنّه حين يتصوّر لذّته وكماله في شيء ما فإنّه لن يقف عند أيّ حدّ في طلبه من أجل إشباع حاجته الفطرية تلك.

غير أنّ طلبه هذا للأمر اللامتناهي طلب لا يمكن تحقيقه في هذه النشأة الدنيوية المحدودة ولا يمكنه الحصول عليه مهما سعى، ولن يجد في كلّ ما يملكه وما يحصل عليه من سلطة أو جاه أو شهوات وما شابه ذلك إلاّ المحدود والمتناهي، ولن يكون بمقدوره تحقيق ما يصبو إليه إلاّ في النشأة الآخرة. وحينما يرتبط بالله سبحانه وتعالى تلبى حاجته الفطرية تلك ويحصل وقتها على لذّته وبهجته وسعادته الخالصة والأبدية، ومن هنا قال السيّد الإمام قدس سره:

(فمثلاً، إنّ النفس ذات الشهوة المطلقة العنان التي ترسّخت فيها ـ أي في النفس ـ وأصبحت ملكة ثابتة لها، وتولّدت منها ملكات كثيرة في أزمنة متطاولة، هذه النفس لا تتورّع عن أي فجور تصل يدها إليه، ولا تعرض عن أي مال يأتيها، ومن أي طريق كان، وترتكب كلّ ما يوافق رغبتها وهواها ـ مهما كان ـ ولو استلزم ذلك أي أمر فاسد.

ومنافع الغضب الذي أصبح ملكة للنفس، وتولّدت منه ملكات ورذائل أُخرى، منافعه هي أنه يظلم بالقهر والغلبة كلّ من تصل إليه يده، ويفعل ما يقدر عليه ضدّ كلّ شخص يبدي أدنى مقاومة، ويثير الحرب بأقل معارضة له، ويبعد المضرّات وما لا يلائمه، بأيّة وسيلة مهما كانت، ولو أدّى ذلك إلى وقوع الفساد في العالم. وعلى هذا النحو تكون منافع النفس لصاحب الواهمة الشيطانية الذي ترسّخت فيه هذه الملكة. فهو ينفذ عمل الغضب والشهوة بأيّة شيطنة وخدعة كانت، ويسيطر على عباد الله بأية خطة باطلة كانت، سواء بتحطيم عائلة ما، أو بإبادة

مدينة أو بلاد ما.

هذه هي منافع تلك القوى عندما تكون تحت تصرّف الشيطان. ولكن عندما تفكّرون بصورة صحيحة، وتلاحظون أحوال هؤلاء الأشخاص، تجدون أن أيّ شخص ـ مهما كان قويّاً، ومهما حقّق من آماله وأمانيه ـ فإنّه رغم ذلك لا يحصل حتّى على واحد من الألف من آماله، بل إن تحقّق الآمال ووصول أي شخص إلى أمانيه، أمر مستحيل في هذا العالم، فإن هذا العالم هو «دار التزاحم» وإن مواده تتمرّد على الإرادة. كما أن ميولنا وأمنياتنا أيضاً لا يحدّها حدّ، فمثلاً إنّ القوة الشهوية في الإنسان، هي بالصورة التي لو كانت بيده نساء مدينة كاملة ـ بفرض المحال ـ لتوجّه إلى نساء مدينة أخرى أيضاً، وإذا أصبحت بلاد بأكملها من نصيبه لتوجّه إلى بلاد أخرى، وعلى الدوام تجده يطلب ما لا يملك، رغم أن ذلك من فرض المحال أنه مجرّد خيال، ومع هذا يبقى مرجل الشهوة مشتعلاً، وإن الإنسان لم يصل بعد إلى أمنيته. وهكذا بالنسبة إلى القوة الغضبية فإنّها قد خلقت في الإنسان بالصورة التي لو أنه أصبح يملك الرقاب بشكل مطلق في مملكة ما، لذهب إلى مملكة أخرى لم يسيطر عليها بعد، بل إن كلّ ما يحصل عليه يزيد من هذه القوّة فيه. وعلى كلّ منكر ـ لهذه الحقيقة ـ أن يراجع حاله وحال أهل هذا العالم، كالسلاطين، والمتموّلين، وأصحاب القوّة والجاه، وحينذاك سيصدق كلامنا هذا.

إذاً فالإنسان هو ـ على الدوام ـ عاشق لما لا يملك ولما ليس في يده) فينتابه الألم والحسرة لأنّه فاقد لذلك المزيد. (وهذه الفطرة) وهي عشق المزيد وطلب الكمال اللامتناهي (أثبتها المشايخ العظام وحكماء الإسلام الكبار خصوصاً أستاذنا وشيخنا في المعارف الإلهية سماحة العارف الكامل «ميرزا محمد علي شاه آبادي» روحي له الفداء، وأثبتوا بها الكثير من المعارف الإلهية وهي لا ترتبط بموضوعنا).

استفادة الإنسان من قواه محدودة

إنّ تمتّع الإنسان بلذّات الدنيا ومباهجها تتوقّف على المدّة التي يستطيع فيها الاستفادة من قواه، وهي محصورة على الأغلب في فترة شبابه وربيع عمره ولا تكون إلاّ فترة قصيرة قياساً إلى عمر الإنسان في حياته الدنيا ولا تتعدّى في أحسن الأحوال وعند أصحّ الناس جسداً وأطولهم عمراً الثلاثين أو الأربعين عاماً، فكيف إذا قيست إلى الحياة الآخرة وسنواتها؟

لقد تعرّض السيّد الإمام قدس سره إلى هذا الموضوع بصورة مفصّلة، حيث قال: **(وعلى أي حال؛ فلو وصل الإنسان إلى أهدافه، فكم يدوم تمتعه واستفادته منها؟ وإلى متى تبقى قوى شبابه؟**

عندما ينقضي ربيع العمر، ويحل خريفه، تذهب القوّة من الأعضاء، وتتعطّل الحاسّة الذائقة، وتتعطّل العين والأذن وحاسة اللمس وباقي الحواس، وتصبح اللذات ـ عموماً ـ ناقصة أو تفنى أصلاً، وتهجم الأمراض المختلفة، فلا تستطيع أجهزة الهضم والجذب والدفع والتنفّس أن تؤدّي عملها بشكل صحيح. ولا يبقى للإنسان شيء سوى أنّات التأوّه الباردة والقلب المملوء بالألم والحسرة والندم.

إذاً؛ فمدّة استفادة الإنسان من تلك القوى الجسمانية لا تتجاوز الثلاثين أو الأربعين عاماً بالنسبة إلى أقوياء البنية والأصحّاء السالمين ـ وهي فترة ما بعد فهم الإنسان وتمييزه الحسن من القبيح إلى زمن تعطيل القوى أو نقصانها ـ وهذا يصحّ إذا لم يصطدم بالأمراض والمشاكل الأخرى التي نراها يومياً ونحن غافلون عنها.

وأفترض لكم بصورة عاجلة، فرضية خيالية ـ وهذا أيضاً ليس له واقع ـ افترض لكم عمراً هو مائة وخمسون عاماً، مع توافر جميع أسباب الشهوة والغضب والشيطنة، وأفترض بأنّه لا يعترضكم أي شيء غير مرغوب فيه، ولا يحدث أي شيء يخالف هدفكم،

ومع هذه الفرضية، ماذا ستكون عاقبتكم بعد انقضاء هذه المدّة القصيرة، والتي تمرّ مرّ الرياح؟! فماذا ادّخرتم من تلك اللذات لأجل حياتكم الدائمية؟! لأجل يوم عجزكم ويوم فقركم ووحدتكم؟! لأجل برزخكم وقيامتكم، لأجل لقائكم بملائكة الله وأوليائه وأنبيائه؟! هل ادّخرتم سوى الأعمال القبيحة المنكرة، والتي ستقدم لكم صورها في البرزخ والقيامة، وهي الصور التي لايعلم حقيقتها إلاّ الله تبارك وتعالى؟

إنّ نيران جهنّم، وعذاب القبر والقيامة وغيرها ممّا سمعت هي جهنّم أعمالك التي تراها هناك كما يقول تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾[1].

لقد أكلت مال اليتيم وتلذّذت بذلك ولكن الله وحده يعلم ما هي صورة هذا العمل في ذلك العالم والتي ستراها في جهنّم، وما هي اللذّة التي ستكون نصيبك هناك؟ الله يعلم أي عذاب شديد ينتظرك بسبب تعاملك السيئ مع الناس وظلمك لهم في ذلك العالم؟ ستفهم أي عذاب قد أعددت لنفسك بنفسك، عندما اغتبت؟ فإنّ الصورة الملكوتية لهذا العمل قد أعدّت لك وسترد عليك وتحشر معها، وستذوق عذابها، وهذه هي جهنّم الأعمال وهي يسيرة وسهلة وباردة وملائمة للعاصين، وأمّا الذين زرعوا في نفوسهم الملكة الفاسدة والرذيلة السيئة الباطلة، كالطمع والحرص والجدال والشره وحبّ المال والجاه والدنيا وباقي الملكات، فلهم جهنّم لا يمكن تصوّرها، لأنّ تصوّرها لتلك الملكات لا يمكن أن تخطر على قلبي وقلبك، بل تظهر النار من باطن النفس ذاتها، وأهل جهنّم أنفسهم يفرّون رعباً من عذاب أولئك. وفي بعض الروايات الموثقة أن هناك في جهنّم وادياً للمتكبّرين يقال له «سقر»، وقد شكا الوادي إلى الله تعالى من شدّة الحرارة وطلب منه سبحانه أن يأذن له بالتنفّس، وبعد أن أذن له تنفّس، فأحرق سقر، جهنم) فعن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ في جهنّم لوادياً للمتكبّرين يقال له سقر، شكا إلى الله عز وجل شدّة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفّس

(١) الكهف: ٤٩.

فتنفّس فأحرق جهنّم»[١].

(وأحياناً تصبح هذه الملكات سبباً في أن يخلد الإنسان في جهنّم لأنّها تسلبه الإيمان، كالحسد الذي ورد في رواياتنا الصحيحة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب[٢]. وكحبّ الدنيا والجاه والمال الذي ورد في الروايات الصحيحة أنّها أكثر إهلاكاً لدين المؤمن من ذئبين أطلقا على قطيع بلا راع، فوقف أحدهما في أوّل القطيع والثاني في آخره... عن أبي عبدالله عليه السلام: ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاؤها أحدهما في أوّلها والآخر في آخرها فأفسد فيها، من حبّ المال والشرف في دين المسلم[٣].

نسأل الله أن لا تؤول عاقبة المعاصي إلى الملكات والأخلاق الظلمانية القبيحة، والتي تؤول إلى فقدان الإيمان وموت الإنسان كافراً، لأنّ جهنّم الكافر وجهنّم العقائد الباطنة أشدّ بدرجات وأكثر إحراقاً وظلمة من ذينيك الجهنّمين اللذين مرَّ ذكرهما (جهنّم الأعمال، وجهنّم الملكات الفاسدة).

درجات الشدّة في النعيم والجحيم غير محدودة

ثمّ يشير السيّد الإمام قدس سره إلى أمر قد ثبت في الأبحاث الفلسفية وهو أنّ درجات الشدّة غير محدودة، وأن هذه الحقيقة تعمّ درجات النعيم ودركات الجحيم على السواء، غير أنّه قدس سره قد ركّز على عذاب جهنّم وشدّته وحذّر الإنسان من هذا الأمر المهول والمخيف الذي لا يمكن تصوّره، ولهذا قال: (أيّها العزيز.. لقد ثبت في العلوم العالية) أي الفلسفية (أنّ درجات الشدّة غير محدودة) فهذه درجات

---

(١) أصول الكافي، الكليني، المجلّد الثاني، باب الكبر، ح ١٠.

(٢) أصول الكافي، الكليني، المجلّد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الحسد، ح ٢.

(٣) أصول الكافي، الكليني، المجلّد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب حبّ الدنيا والحرص عليها، ح ٢.

الجنّة غير متناهية وأي درجة يصلها الإنسان فإنّ بإمكانه أن يرتقي إلى درجة أعلى منها، قال تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْم عَلِيمٌ﴾[1].

(وهكذا بالنسبة إلى دركات الجحيم، فمهما تتصوّر أنت ومهما تتصوّر العقول بأسرها شدّة العذاب، فوجود عذاب أشدّ أمر ممكن أيضاً، وإذا لم تَرَ برهان الحكماء، ولم تصدق كشف أهل الرياضات، فأنت بحمد الله مؤمن تصدّق الأنبياء صلوات الله عليهم، وتقرّ بصحّة الأخبار الواردة في الكتب المعتبرة التي يقبلها جميع علماء الإمامية، وتقرّ صحّة الأدعية والمناجاة الواردة عن الأئمّة المعصومين سلام الله عليهم، أنت الذي رأيت مناجاة مولى المتّقين أمير المؤمنين سلام الله عليه، ورأيت مناجاة سيّد الساجدين عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي... فتأمّل قليلاً في مضمونها، وفكّر قليلاً في محتواها، وتمعّن قليلاً في فقراتها، فليس ضرورياً أن تقرأ دعاءً طويلاً دفعة واحدة وبسرعة دون تفكّر في معانيه) لأنّ الملاك في الأعمال ليس هو الكثرة بل التمعّن والتفكّر فيما نقوم به، مع الخشوع والتوجّه التام إليه، إذ (أنا وأنت ليس لدينا حال سيّد الساجدين عليه السلام كي نقرأ تلك الأدعية المفصّلة بشوق وإقبال، اقرأ في الليلة ربع ذلك أو ثلثه وفكّر في فقراته، لعلّك تصبح صاحب شوق وإقبال وتوجّه) واقرأ الباقي في الليالي الأُخر، لأنّ هذه الأدعية الواردة في الليالي المخصوصة لا مانع من قراءتها في وقت آخر أيضاً، ولا تقتصر قراءَتها على تلك الليالي المخصوصة بالذات.

(وفوق ذلك كلّه فكّر قليلاً في القرآن، وانظر أي عذاب وعَدَ به بحيث إنّ أهل جهنّم يطلبون من الملك الموكّل بجهنّم أن ينتزع منهم أرواحهم، ولكن هيهات فلا مجال للموت.. انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ

(١) يوسف: ٧٦.

السّاخِرِينَ﴾[١].

فأيّة حسرة هذه التي يذكرها الله تعالى بتلك العظمة وبهذا التعبير؟ تدبّر في هذه الآية القرآنية الشريفة ولا تمرّ عليها دون تأمّل. وتدبّر أيضاً آية ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[٢].

حقّاً فكّر يا عزيزي! القرآن ـ أستغفر الله ـ ليس بكتاب قصة، ولا بممازح لأحد، انظر ما يقول... أي عذاب هذا الذي يصفه الله تبارك وتعالى وهو العظيم الذي لا حدّ ولا حصر لعظمته ولا انتهاء لعزّته وسلطانه، يصفه بأنّه شديد وعظيم... فماذا وكيف سيكون؟! الله يعلم، لأنّ عقلي وعقلك وعقول جميع البشر عاجزة عن تصوّره. ولو راجعت أخبار أهل بيت العصمة والطهارة وآثارهم، وتأمّلت فيها، لفهمت أن قضيّة عذاب ذلك العالم، هي غير أنواع العذاب التي فكّرت فيها، وقياس عذاب ذلك العالم بعذاب هذا العالم، قياس باطل وخاطئ.

وهنا أنقل لك حديثاً شريفاً عن الشيخ الجليل صدوق الطائفة، لكي تعرف ماهية الأمر وعظمة المصيبة مع أنّ هذا الحديث يتعلّق بجهنّم الأعمال وهي أبرد من جميع النيران، وعليك أن تعلم أوّلاً أنّ الشيخ الصدوق الذي يُنقل عنه الحديث، هو الشخص الذي يتصاغر أمامه جميع العلماء الأعلام، إذ يعرفونه بجلالة القدر. وهذا الرجل العظيم هو المولود بدعاء إمام العصر عليه السلام، وهو الذي حظي بألطاف الإمام المهدي عليه السلام وعجّل الله تعالى فرجه الشريف، وإنّي أروي الحديث

---

(١) الزمر، ٥٦.

(٢) الحج: ٢.

بطرق متعدّدة عن كبار علماء الإمامية ـ رضوان الله عليهم ـ بأسناد متصلة بالشيخ الصدوق، والمشايخ ما بيننا وبين الصدوق رحمه الله، جميعهم من كبار الأصحاب وثقاتهم. إذاً فعليك الاهتمام بهذا الحديث إن كنت من أهل الإيمان.

روى الصدوق، بإسناده عن مولانا الصادق عليه السلام ، قال: **بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم قاعداً إذ أتاه جبرئيل وهو كئيبٌ حزين متغيّر اللون، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرائيل ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: يا محمّد فكيف لا أكون كذلك وإنّما وُضعت منافيخ جهنّم اليوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما منافيخ جهنّم يا جبرئيل؟ فقال: إنّ الله تعالى أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت، ثمّ أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتّى ابيضّت، ثمّ أمر بها فأوقد عليها ألف عالم حتّى اسودَّت وهي سوداء مظلمة. فلو أنّ حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا، لذابت الدنيا من حرّها، ولو أنّ قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لماتوا من نتنِها. قال: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرئيل فبعث الله إليهما ملكاً، فقال: إنّ ربّكما يقرئكما السلام ويقول: إنّي أمنتكما من أن تذنبا ذنباً أعذّبكما عليه**[1].

أيّها العزيز... إنّ أمثال هذا الحديث الشريف كثيرة، ووجود جهنّم والعذاب الأليم من ضروريات جميع الأديان ومن البراهين الواضحة، وقد رأى نماذج لها في هذا العالم أصحاب المكاشفة وأرباب القلوب. ففكّر وتدبّر بدقّة في مضمون هذا الحديث القاصم للظهر، فإذا احتملت صحّته، ألا ينبغي لك أن تهيم في الصحاري، كمن أصابه المسّ؟!. ماذا حدث لنا لكي نبقى إلى هذا الحدّ في نوم الغفلة والجهالة؟! أنزلت علينا ـ كرسول الله صلى الله عليه وآله ـ ملائكة أعطتنا الأمان من عذاب الله في حين إن رسول

---

(١) علم اليقين، للفيض الكاشاني، المقصد ٤، الباب ١٥، فصل ٦، ص١٠٣٢.

الله صلى الله عليه وآله وأولياء الله لم يقر لهم قرار إلى آخر أعمارهم من خوف الله، وما كان لهم نوم ولا طعام؟ علي بن الحسين وهو إمام معصوم، يقطع القلوب بنحيبه وتضرّعه ومناجاته وعجزه وبكائه، فإذا دهانا وصرنا لا نستحي أبداً، فنهتك في محضر الربوبية كلّ هذه المحرمات والنواميس الإلهية؟ فويلٌ لنا من غفلتنا، وويل لنا من شدّة سكرات الموت، وويل لحالنا في البرزخ وشدائده، وفي القيامة وظلماتها ويا ويل لحالنا في جهنّم وعذابها وعقابها).

فصل

في معالجة المفاسد الأخلاقية

عقد السيّد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ هذا الفصل من البحث لبيان كيفية معالجة الأخلاق الفاسدة من الناحية العملية حيث نبّه فيه إلى أمرين مهمّين:

أحدهما: هو اغتنام فرصة عمر الشباب في معالجة ما فسد من الأخلاق وعدم تأجيل هذا الأمر المهمّ، لأنّ تقدّم العمر عائق مهمّ أمام إصلاح الأخلاق الفاسدة حيث تضعف قوى الإنسان فلا تستطيع اجتثاث جذور الفساد تماماً كالشجرة التي كلّما تقدّمت في العمر اشتدّت جذورها وازدادت نفوذاً في باطن الأرض فلا يمكن قلعها بعد ذلك إلاّ بشقّ الأنفس، ومن هنا قال قُدِّسَ سِرُّهُ: (**أيّها العزيز؛ انهض من نومك، وتنبّه من غفلتك، واشدد حيازيم الهمّة، واغتنم الفرصة ما دام هناك مجال، وما دام في العمر بقية، وما دامت قواك تحت تصرّفك، وشبابك موجوداً ولم تتغلّب عليك بعد الأخلاق الفاسدة، ولم تتأصّل فيك الملكات الرذيلة، فابحث عن العلاج، واعثر على الدواء لإزالة تلك الأخلاق الفاسدة والقبيحة، وتلمّس سبيلاً لإطفاء نائرة الشهوة والغضب**).

أمّا الأمر الآخر، فقد بيّن فيه السيّد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ كيفيّة معالجة هذه الأخلاق الفاسدة والقبيحة بعد الاستعانة بالله تبارك وتعالى وطلب التوفيق منه عز وجل، حيث قال: (**وأفضل علاج لدفع هذه المفاسد الأخلاقية، هو ما ذكره علماء الأخلاق وأهل السلوك، وهو أن تأخذ كلّ واحدة من الملكات القبيحة التي تراها في نفسك،**

وتنهض بعزم على مخالفة النفس إلى أمد، وتعمل عكس ما ترجوه وتتطلّبه منك تلك الملكة الرذيلة.

وعلى أيّ حال؛ اطلب التوفيق من الله تعالى لإعانتك في هذا الجهاد، ولاشكّ في أنّ هذا الخلق القبيح، سيزول بعد فترة وجيزة، ويفرّ الشيطان وجنوده من هذا الخندق، وتحلّ محلّهم الجنود الرحمانية.

فمثلاً من الأخلاق الذميمة التي تسبّب هلاك الإنسان، وتوجب ضغطة القبر، وتعذّب الإنسان في كلا الدارين، سوء الخلق مع أهل الدار والجيران أو الزملاء في العمل أو أهل السوق والمحلّة، وهو وليد الغضب والشهوة. فإذا كان الإنسان المجاهد يفكِّر في السمو والترفّع، عليه ـ عندما يعترضه أمر غير مرغوب فيه حيث تتوهّج فيه نار الغضب لتحرق الباطن، وتدعوه إلى الفحش والسيئ من القول ـ عليه أن يعمل بخلاف النفس، وأن يتذكّر سوء عاقبة هذا الخلق ونتيجته القبيحة، ويبدي بالمقابل مرونة ويلعن الشيطان في الباطن، ويستعيذ بالله منه.

إنّي أتعهّد لك بأنّك لو قمت بذلك السلوك، وكرّرته عدّة مرّات، فإنّ الخلق السيئ سيتغيّر كلّياً، وسيحلّ الخلق الحسن في عالمك الباطن، ولكنّك إذا عملت وفق هوى النفس، فمن الممكن أن يبيدك في هذا العالم نفسه، وأعوذ بالله تعالى من الغضب الذي يهلك الإنسان في آن واحد في كلا الدارين، فقد يؤدّي ذلك الغضب ـ لا سمح الله ـ إلى قتل النفس، ومن الممكن أن يتجرّأ الإنسان في حالة الغضب على النواميس الإلهية، كما رأينا بعض الناس أصبحوا من جراء الغضب مرتدّين. وقد قال الحكماء: «إنّ السفينة التي تتعرّض لأمواج البحر العاتية وهي بدون قبطان، لهي أقرب إلى النجاة من الإنسان وهو في حالة الغضب».

أو إذا كنت ـ لا سمح الله ـ من أهل الجدل والمراء في المناقشات العلمية كبعضنا نحن الطلبة، المبتلين بهذه السريرة القبيحة، فاعمل فترة بخلاف النفس، فإذا دخلت في نقاش مع أحد الأشخاص في مجلس ما، ورأيت أنّه يقول الحقّ فاعترف بخطئك وصدّق قول المقابل، والمأمول أن تزول هذه الرذيلة في زمن قصير.

ولا سمح الله أن ينطبق علينا قول بعض أهل العلم ومدّعي المكاشفة، حيث يقول: «لقد كشف لي خلال إحدى المكاشفات أنّ تخاصم أهل النار الذي يخبر عنه الله تعالى، هو الجدل بين أهل العلم والحديث».

والإنسان إذا احتمل صحّة هذا الأمر فعليه أن يسعى كثيراً من أجل إزالة هذه الخصلة.

رُوي عن عدّة من الأصحاب أنّهم قالوا: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله، ثمّ قال: إنّما هلك من كان قبلكم بهذا. ذروا المراء، فإنّ المؤمن لا يماري، ذروا المراء فإنّ المماري قد تمّت خسارته، ذروا المراء فإنّ المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فإنّي زعيم بثلاث أبيات في الجنّة في رياضها وأوسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإنّ أوّل ما نهاني عنه ربّي بعد عبادة الأوثان المراء[1].

وعنه أيضاً: لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتّى يدع المراء وإن كان محقّاً[2].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة. فما أقبح أن يحرم الإنسان شفاعة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بواسطة مغالبة جزئية ليس فيها أي ثمر ولا أثر، وما أقبح أن تتحوّل

(١) بحار الأنوار، المجلّد الثاني، ص١٣٨.
(٢) المصدر السابق، ص١٣٩.

مذاكرة العلم ـ وهي أفضل العبادات والطاعات إذا كانت بنيّة صحيحة ـ إلى أعظم المعاصي بفعل المراء وتتلو مرتبة عبادة الأوثان.

وعلى أي حال، ينبغي للإنسان أن يأخذ بنظر الاعتبار الأخلاق القبيحة الفاسدة باعتبارها واحدة، ويخرجها من مملكة روحه بمخالفة النفس، وعندما يخرج الغاصب، يأتي صاحب الدار نفسه، فلا يحتاج حينذاك إلى مشقّة أخرى أو إلى وعود.

وعندما يكتمل جهاد النفس في هذا المقام، ويتوفّق الإنسان إلى إخراج جنود إبليس من هذه المملكة، وتصبح مملكته مسكناً لملائكة الله ومعبداً لعباده الصالحين، فحينذاك يصبح السلوك إلى الله يسيراً، ويتّضح طريق الإنسانية المستقيم، وتفتح أمام الإنسان أبواب البركات والجنّات، وتغلق أمامه أبواب جهنّم والدركات، وينظر الله تبارك وتعالى إليه بعين اللطف والرحمة، وينخرط في سلك أهل الإيمان، ويصبح من أهل السعادة وأصحاب اليمين، ويفتح له طريقاً إلى باب المعارف الإلهية ـ وهي غاية خلق الجنّ والإنس ـ ويأخذ الله تعالى بيده في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر.

وقد كنّا نريد أن نشير إلى المقام الثالث للنفس وكيفية المجاهدة فيه ونذكّر أيضاً بمكائد الشيطان في هذا المقام) لأننا ذكرنا فيما سبق أنّ هناك جنّة ونار الأعمال وجنّة ونار الملكات وجنّة ونار الذات (ولكنّنا لم نر المقام مناسباً لذلك، فصرفنا النظر، وأسأل الله تعالى التوفيق والتأييد لكتابة رسالة خاصّة في هذا الباب).

هذا تمام الكلام في الحديث الأوّل وهو حديث (جهاد النفس) من كتاب «الأربعون حديثاً» للسيّد الإمام الخميني قدس سره. والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

فهرس المصادر

١ ـ **آداب النفس**، العارف الحكيم الكامل السيد محمد العيناتي، حققّه وصحّحه السيد كاظم الموسوي الميماموي، منشورات المكتبة الرضوية.

٢ ـ **إحياء علوم الدين**، تصنيف الغمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

٣ ـ **الأُصول من الكافي**، لثقة الإسلام ابي جفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي.

٤ ـ **إقبال الأعمال**، رضي الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس المتوفى سنة ٦٦٤هـ ، الطبعة الحجرية، در الكتب الإسلامية طهران.

٥ ـ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**، عزّ الدين عليّ بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ابن الأثير الجزري) المتوفى سنة ٦٣٠ هـ، إسماعيليان، ط الأُولى، طهران.

٦ ـ **أمالي الصدوق**، أبو جعفر محمّد بن علىّ بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالشيخ الصدوق المتوفّى سنة ٣٨١هـ، تحقيق مؤسسة البعثة، قم.

٧ ـ **أمان الأُمّة من الضلال والاختلاف**، الشيخ لطف الله الصافي(معاصر).

٨ ـ **بحار الأنوار**، العلم العلامة الحجّة فخر الأُمّة المولى الشيخ محمد باقر المجلسي قدس سره المتوفّى سنة ١١١١ هـ.

٩ ـ **بصائر الدرجات**، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن فرّوخ الصفّار القمي المتوفى سنة ٢٩٠ هـ، مؤسسة الأعلمي، ط الأُولى، بيروت.

١٠ ـ **تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد**، عبدالله شبّر، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

١١ ـ **تفسير الصافي**، محسن الفيض الكاشاني المتوفى سنة ١٠٩١ هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

١٢ ـ **تفسير القمي**، أبو الحسن عليّ بن إبراهيم القمي المتوفى سنة ٣٢٩هـ، نشر مكتب الهادي.

١٣ ـ **تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم**، السيّد حيدر الأمين، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه السيّد محسن الموسوي التبريزي.

١٤ ـ **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، الفقيه المحدّث الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، المتوفّى سنة ١١٠٤ هـ تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

١٥ ـ **ثمان رسائل، عرفان، فلسفة، كلام، رجال، رياضيات**،تأليف حسن زادة آملي (معاصر).

١٦ ـ **جامع السعادات**، المولى محمّد مهدي النراقي المتوفى سنة١٢٤٥ هـ طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٧ ـ **الجواهر السنية**، محمّد بن الحسن الحر العاملين المتوفّى سنة ١١٠٤ هـ نشر «يس».

١٨ ـ **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**، الحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني صدر الدين محمّد الشيرازي مجدد الفلسفة الإسلامية، المتوفّى سنة ١٠٥٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٩ ـ **خاتمة المستدرك، للشيخ النبوري**، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.

٢٠ ـ **الخصال**، أبو جعفر محمّد بن عليّ الصدوق المتوفى المتوفّى سنة ٣٨١ هـ، طبع جامعة المدرسين، قم.

٢١ ـ **الدر المنثور في التفسير المأثور**، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفّى سنة ٩١١هـ، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأُولى، ١٤٠٣ هـ.

٢٢ ـ **دعائم الإسلام**، القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمّد التميمي المغربي المتوفّى سنة ٣٦٣هـ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

٢٣ ـ **رسالة الولاية**، العلاّمة الكبير السيّد محمد حسن الطباطبائي، قسم الدراسات الإسلامية، قم.

٢٤ ـ **روضة الواعظين**، محمّد بن الفتّال النيسابوري المتوفى سنة٥٠٨ هـ، منشورات شريف الرضي ط الثالثة، قم.

٢٥ ـ **رياض الصالحين**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الدمشقي الحواربي الشافعي المتوفّى سنة ٦٧٦هـ، دار ابن زيدون، بيروت، ١٩٩٧م

٢٦ ـ **شرح المنظومة، قسم الحكمة**، المتألّه السبزواري قدس سره، علّق عليه آية الله حسن زادة الآملي، تقديم وتحقيق مسعود طالبي.

٢٧ ـ **صحيح البخاري**، محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢٨ ـ **علل الشرائع**، محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي الشيخ الصدوق المتوفّى سنة ٣٨١هـ، نشر مكتبة الداوري، قم.

٢٩ ـ **علم اليقين في أُصول الدين**، المحقّق العظيم والمحدّث الكبير الحكيم المتألّهمحمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني، المتوفّى سنة١٠٩١ هـ.

٣٠ ـ **عوالي اللآلي**، محمّد بن علي بن إبراهيم الإحسائي المعروف بابن أبي جمهور المتوفّى سنة ٩٤٠ هـ، تحقيق ونشر مجتبى العراقي، قم ١٤٠٥ هـ.

٣١ ـ **عيون الحكم والمواعظ**، علي بن محمد الليثي الواسطي، تحقيق الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث ، قم، ط ١.

٣٢ ـ **عيون أخبار الرضا**عليه السلام، أبو جعفر محمّد بن عليّ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١هـ، انتشارات جهان، طهران.

٣٣ ـ **غرر الحكم ودرر الكلم**، دار القارئ، بيروت ، (١٤٠٧ هـ).

٣٤ ـ **الكافي**، أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكليني الرازي المتوفى سنة ٣٢٨ أو ٣٢٩هـ، المكتبة الإسلامية، طهران.

٣٥ ـ **كنز العمّال**، عليّ المتّقي بن حسان الدين الهندي المتوفى سنة٩٧٥ هـ، مؤسسة الرسالة سنة (١٤١٣ هـ)، بيروت.

٣٦ ـ **مجمع البحرين**، العالم المحدّث الفقيه الشيخ فخر الدين الطريحي، المتوفّى سنة ١٠٨٥ هـ.

٣٧ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، نور الدين عليّ بن أبي بكر الهيثمي المتوفى (٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربي.

٣٨ ـ **المحاسن للبرقي**، أحمد بن محمّد المتوفّى سنة ٢٧٤ أو ٢٨٠ هـ دار الكتب الإسلامية، قم.

٣٩ ـ **المحتضر**، حسن بن سليمان الحلّي المتوفّى (القرن الثامن الهجري).

٤٠ ـ **المحجّة البيضاء**، محمّد بن المترضى المدعو بالمولى محسن الفيض الكاشاني المتوفّى سنة ١٠٩٠ هـ.

٤١ ـ **مرآة العقول في شرح أخبار الرسول**، محمّد باقر المجلسي المتوفّى سنة ١١١١هـ، دار الكتب الإسلامية، طهران

٤٢ ـ **مستدرك الوسائل**، أبو محمّد حسين بن محمّد تقي بن علي محمّد بن تقي الطبرسي المعروف بالمحدّث النوري المتوفّى سنة ١٣٢٠ هـ، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم / نشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

٤٣ ـ **مسند الشهاب**، القاضي أبو عبدالله محمّد بن سلامة القضاعي المتوفّى سنة ٤٥٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤٠٥هـ)

٤٤ ـ **مشارق أنوار اليقين**، رجب البرسي.

٤٥ ـ **مصباح الشريعة**، منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، مؤسسة الأعلمي.

٤٦ ـ **المعجم الأوسط للطبراني**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيّوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني المتوفّى سنة ٣٦٠ هـ دار الحديث، القاهرة.

٤٧ ـ **المفردات في غريب القرآن**، تأليف: ابي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الإصفهاني المتوفّى سنة ٥٠٢هـ، دار المعرفة ـ بيروت، لبنان.

٤٨ ـ **الميزان في تفسير القرآن**، العلاّمة السيّد محمد حسين الطباطبائي المتوفّى سنة ١٤١٢ هـ.

٤٩ ـ **نوادر المعجزات**، محمّد بن جرير بن رستم الطبري ، المتوفّى (القرن الرابع الهجري). نشر وتحقيق مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، قم (١٤١٠ هـ).

٥٠ ـ **نور البراهين**، لنعمة الله الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم (١٤١٧هـ).

٥١ ـ **نهج البلاغة**، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام المستشهد سنة (٤٠ هـ)، تحقيق الدكتور، صبحي الصالح.

الفهرس

كلمة المجمع ٧
المقدّمة الأُولى: طرق إصلاح أخلاق الإنسان ١١
مسالك التهذيب ١٤
المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيوية ١٤
المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخروية ١٩
المسلك الثالث: الحبّ الإلهي ٢٦
المقدّمة الثانية: العلاقة بين عمل الإنسان والجزاء المترتّب عليه ٣٧
أنواع الجزاء الذي يترتّب على العمل ٣٧
العلاقة بين العمل والجزاء الأخروي علاقة من النحو الثالث ٣٩
الحاجة إلى المعصوم في معرفة باطن الأعمال ٤١
ماهي العلاقة بين الإنسان وبين ملكاته؟ ٤٢
كيفية الارتباط بين العامل وعمله ٥٣
المرحلة الأُولى: الحال ٥٣
المرحلة الثانية: المَلَكَة ٥٤
المرحلة الثالثة: الاتحاد ٥٤
الخلاصة ٥٩
بحوث الكتاب ٦٥
الحديث الأوّل: جهاد النفس ٧٠
ماهو الإنسان وماهي النفس الإنسانية؟ ٧٠
تفصيل بعد إجمال في قوى النفس المختلفة ٧١

القوّة الشهوية ٧٢
سؤال وجواب ٧٤
القوّة الغضبية ٧٥
القوّة الوهمية ٧٦
القوّة العاقلة ٧٨
البحث الأوّل: فضل العقل ٧٨
البحث الثاني: حقيقة العقل وأقسامه ٧٩
البحث الثالث: الثمرة الأساسية المترتّبة على العقل ٨٠
تتمّة في بحث الوصف الذي يحلق بقوى النفس الإنسانية المختلفة ٨٢
وقوع النزاع بين قوى النفس المختلفة وقيام الجهاد الأكبر ٨٤
الجهاد الأكبر وحشر الإنسان يوم القيامة ٨٥
نفس الإنسان تحاسبه يوم القيامة ٨٦
شرح الرواية الشريفة ٨٨
مقامات النفس ودرجاتها ٩٠
ماهو المراد من العقل والنفس والروح والقلب ٩٤
أي نفس عدوّةٌ للإنسان؟ ٩٥
المقام الأوّل للنفس ٩٧
تعريف الجهاد الأكبر ١٠٧
سبب تسمية الجهاد مع العدو الخارجي بالأصغر ١٠٧
فصل في التفكّر ١١١
البحث الأوّل: في أهمية التفكر ١١٢
البحث الثاني: في حقيقة التفكّر وكيفية حصوله ١١٣

كيف يفكّر الإنسان؟ ١١٤
التفكير مقدّمة لحصول الإيمان ١١٦
أقسام التفكير ١١٧
تقسيم آخر للتفكير بلحاظ مواضيعه ١١٨
النوع الأوّل: المعاصي ١١٩
النوع الثاني: الطاعات ١٢٠
النوع الثالث: الصفات المهلكة ١٢٠
النوع الرابع: المنجيات ١٢١
فصل في العزم ١٢٧
موقع العزم في المسير إلى الله ١٢٩
خير الزاد التقوى وأفضل الزاد العزم ١٣١
الحاجة إلى ظاهر الشريعة في هذه النشأة حاجة مستمرة ١٣٤
فصل في السعي للحصول على العزم ١٣٩
تجنب المعاصي والتعبد في الخلوات ١٤١
فصل في المشارطة والمراقبة والمحاسبة ١٤٣
المشارطة ١٤٥
المراقبة ١٥٠
المحاسبة ١٥٢
مرحلتا المعاتبة والمعاقبة ١٥٤
عقوبة كل شيء بحسبه ١٥٤
العقوبة تتم وفق الموازين الشرعية ١٥٥
فصل في التذكر ١٥٧

تعريف الذكرى ١٥٧
احترام المنعم والكبير والحاضر من الأمور الفطرية ١٥٧
أولاً: احترام المنعم من الأمور الفطرية ١٥٨
نعمة الله علينا من غير حاجة إلينا ١٥٩
العبودية لله توحيد وتكامل ولغيره شرك ونقصان ١٦١
ثانياً: احترام الكبير من الأمور الفطرية أيضاً ١٦٢
ثالثاً: احترام الحاضر من الأُمور الفطرية كذلك ١٦٣
تذكرة ١٦٣
فصل: صراع جنود الرحمن مع جنود الشيطان الباطنية والنفسية ١٦٥
حقيقة العقل ١٦٥
حقيقة الجهل ١٦٨
العلم بلا عمل بالنسبة إلى الباطن كالقوى الظاهرة ١٧٤
أقسام الجاهل ١٧٦
الخلاصة ١٧٧
أهمّية جنود مملكة الباطن وصراعهم ١٧٨
هزيمة جنود الرحمن أشدّ من جميع نيران جهنّم وعذاباتها ١٨٠
أقسام الجنّة والنار في علم السير والسلوك ١٨١
لا يصحّ إنكار ما حُجب عنّا من المعرفة ١٨٥
تنبيه ونصيحة ١٨٨
فصل: إشارة إلى بعض القوى الباطنية ١٨٩
قوى الباطن هي منبع الملكات وأصل الصور الملكوتية ١٨٩
المورد الأوّل: كون الصورة واحدة وغير مركّبة ١٩٠

المورد الثاني: تركّب الصورة من عدّة صور..... ١٩١
المورد الثالث: تعدّد الصور..... ١٩٢
التناسخ الملكي والتناسخ الملكوتي..... ١٩٣
وقت تشكّل الصور الأخروية..... ١٩٤
نصيحة..... ١٩٥
فصل في بيان لجم الأنبياء لطبيعة الإنسان..... ١٩٩
فصل في بيان السيطرة على الخيال..... ٢٠٣
ماهو الخيال؟..... ٢٠٣
الصورة حسّية وخيالية..... ٢٠٣
معنى آخر للخيال (المتخيّلة)..... ٢٠٤
مرتبتا الشريعة..... ٢٠٥
فصل في الموازنة..... ٢١١
تطلّع الإنسان إلى الكمال اللامتناهي..... ٢١٢
استفادة الإنسان من قواه محدودة..... ٢١٥
درجات الشدّة في النعيم والجحيم غير محدودة..... ٢١٧
فصل في معالجة المفاسد الأخلاقية..... ٢٢٣
فهرس المصادر..... ٢٢٧
الفهرس..... ٢٣٣